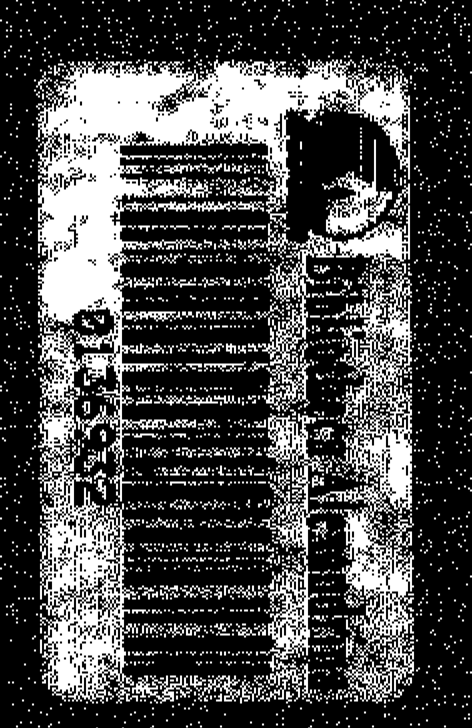


نظرة عربية

على

غزوات الإفرنج

من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين

تيسير بن موسى

محتوى الكتاب

مقدمة

ما زالت المكتبة العربية تفتقر الى دراسات حديثة في تاريخ الحروب الصليبية في الوقت الذي تعددت فيه وتنوعت الدراسات الغربية لهذه الحروب التي كانت اجزاء واسعة من وطننا العربي مسرحا لها وأسهمت فيها معظم شعوب اوربا الغربية... واهتمامي بالحروب الصليبية قديم منذ كنت طالباً فقد شدتني احداثها بما تميزت به عن غيرها من الحروب بكثرة المفارقات الغريبة المثيرة، حيث تلاقت فيها صور غريبة من الشجاعة والبطولة الخارقة الى الجبن والخيانة، ومن الذكاء والعبقرية الفذة الى الغباء المطبق والسطحية الكاملة ومن الايمان الراسخ الثابت الى المعتقد الخرافي الاسطوري، صور تجد فيها البطل الشجاع والانسان المرهف مع المجرم الدموي وقاطع الطرق الذي لا يرعى ذمة ولا يحترم عهدا، وكنت حين انكب على قراءة هذه الحروب اجد متعة وانا اتتبع المسالك الملتوية التي سارت فيها، والدروب الضيقة والواسعة التي نفذت منها. وعزمت في الآونة الاخيرة ان اعد دراسة مطولة عن هذه الحروب من بدايتها دراسة عصرية.

وكان دافعي لذلك مجموعة من القناعات والبواعث.

أولاً:

ان ما شاهدَتْهُ وعاشته الأمة العربية الاسلامية؛ ابان الحروب الصليبية من احداث. تتشابه بشكل مذهل مع الاوضاع والاحداث التي تعيشها امتنا هذه الايام، من تمزق وفرقة، وعدو دخيل يحتل ارضا عربية يدعي انها ارضه. اضف الى ذلك ان التحدي الجاهيري العربي، الذي برز في ذلك الوقت، وانتصر على حالة الضعف والخور، وتمكن في النهاية من فرض وجوده واسدال الستار على الهجمة الافرنجية،

هو نفس التحدي الذي تجابه به الجماهير العربية الان الهجمة الصهيونية رغم قسو الظروف وتعدد الجراح وتخاذل المتخاذلين، فمن الواجب، والحال هذا ان يولي الدارسون العرب الحروب الصليبية اهتماما خاصا حيث تتعدد فيهادراستهم التي توضح اسباب غزو الفرنجة لبلاد العرب، وتبرز الظروف والعوامل التي جعلت هذ الغزو يستفحل ويتمكن من الارض العربية، ثم الظروف والعوامل التي جعلت العرب المسلمين قادرين على إدالة دولة الصليبيين التي انتصبت على الارض العربية لمد قرنين متتالين تقريبا... فان مثل هذه الدراسات، في رأيي، ستسهم في توضيح الرؤيا، ودعم الروح النضالية العربية ورفع معنويات الشعب العربي الذي هزت الاحداث وفتت في عضده الاوضاع السياسية العربية المتردية، كما ان هذه الدراسات ستزيد من زخم التحدي الجماهيري العربي في مواجهة الهجمة الصهيونية المدعوم بقوى امبريالية عالمية متآمرة.

ثانياً:

ان الدراسات الغربية الكثيرة مهما اتصف مؤلفوها بالموضوعية والتجرد تنطلق من اعتبار الحروب الصليبية جزءا هاما من التاريخ القومي الاوربي العام.

ولا شك ان نظرة الغربيين هذه تجعلهم بعيدين عن مس وتحسس جوانب هاما تعنينا نحن العرب وترتبط بتاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا فتاريخ العرب يجب ان يكتبه العرب انفسهم، لأنهم الصق بهذا التاريخ واكثر ادراكا لجرياته ومساراته.

ثالثاً:

من المعروف ان التاريخ العربي الاسلامي تعرض منذ القديم لعمليات متواصلة ماكرة من التزييف والتحريف من قبل مجموعة من الكتاب والمؤرخين الاجانب لأسباب سياسية طامعة واغراض حاقدة.

كما لا يمكن ان نبرىء عددا من مؤرخينا القدامى من تهمة أنهم سحبوا احداث التاريخ ووسعوها أو ضيقوها كي تتلاءم مع وجهات نظرهم الخاصة، ومع اغراضهم وتطلعاتهم الشخصية، فأساؤوا الى تاريخ الامة العربية من حيث لا يدرون أو لا يشعرون.

واذا كان التاريخ كما يقول الدكتور قسطنطين زريق هو ادراك الماضي كما

كان، لا كما تتوهم انه كان، كذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب ان يكون أو كما نريده أن يكون، اذا كان هذا هو التاريخ فان ذلك لا يعني مطلقا اغلاق الاعين الفاحصة الناقدة، ولا يعني تحجير اي محاكمة ذهنية أو موازنة منطقية عندما نتعامل مع احداثه التي جاءتنا من مصادره البعيدة والا اصبح المؤرخ الحديث ناقلا وليس دارسا.

واخيرا فان الجدل الذي ما زال محتدم الاوار حتى هذا اليوم: هل التاريخ علم قائم بذاته له اصوله ومنهجه وقواعده العلمية الصرفة أو انه سيبقى خارج منظومة العلوم الموضوعية؟؟ بعيدا عن هذا الجدل فان التاريخ في نظري هو دائما الزاد الضروري الذي يجب أن تتزود به الامم في رحلتها الطويلة باتجاه المستقبل الزاهر الكريم.

وايماني بمهمة التاريخ وغايته هذه. وبجميع البواعث التي اوردت، هي التي دفعتني وألهبت الحماس في همتي لاعادة قراءة تلك الحقبة من تاريخنا، واقصد الحروب الصليبية قراءة عصرية عربية متأنية، محاولا ان لا اقع في منزلق تحميل النص التاريخي القديم اكثر مما يحمل أو ليّ عنق الاحداث لتتجه الى غير اتجاهها الصحيح.

ولا بد لي في النهاية من الاشارة الى المصادر التي اعتمدتها في دراستي هذه، فقد قضيت وقتا طويلا منكبا على قراءة العديد من كتب التاريخ القديمة والحديثة، والتي تناولت الحروب الصليبية. وكان ابرز الكتب التي اعتمدت عليها من الكتب العربية الاسلامية «الكامل» لابن الاثير، و«الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية» للمؤلف نفسه (وكتاب الروضتين في اخبار الدولتين) لأبي شامة و«ذيل تاريخ دمشق» للقلانسي وأما من الجانب الاجنبي فقد اعتمدت بالدرجة الاولى على كتاب «تاريخ الحروب الصليبية» للمؤرخ الانكليزي المعروف ستيفن رنسيمان. ورغم بعض المآخذ على ما ذهب اليه في تفسيراته وتبريراته لبعض الاحداث التاريخية والتي اشرت اليها في موضعها من الكتاب إلا ان هذا المؤلف الذي يقع في ثلاثة اجزاء ضخمة يعتبر بحق من أجل ما كتبه مؤرخ غربي عن هذه الحروب، فقد نجح رنسيمان في عرض الاحداث التاريخية بشكل علمي كما أن كتابه تضمن معظم ما كتبه المؤرخون

الغربيون القدامى وحتى المحدثون عن الحروب الصليبية وتمكن ببراعة من التنسيق والمقارنة فيما بينها، واستخلاص الحقائق التاريخية الثابتة التي لا يرقى اليها شك.

ولا يسعني اخيرا إلا ان اشكر جميع الاخوة الافاضل الذين قدموا إليّ يد المساعدة سواء بتوفير مصادر دراستي هذه أو اعانتي في ترجمة بعض النصوص التاريخية.

والله من وراء القصد

تيسير بن موسى

توطئة

مناقشة بعض المصادر التي اهتمت بالحروب الصليبية

القارىء لتاريخ الحروب الصليبية يكتشف فوراً وقد ملأته الحيرة، أن الشعب العربي صاحب الأرض التي دارت فوقها هذه الحروب يكاد يختفي في الكتب التي أرخت لأحداث هذه الفترة، وإن ذكر فإنما يذكر بشكل هامشي جانبي كأي شعب دخيل ليست الأرض أرضه وعلى دين ليس هو أول من بشّر به ونشره رجاله في أصقاع بعيدة وواسعة من العالم.

لقد حصر مؤرخونا القدامى الشعب العربي إبان هذه الفترة في بقعة لم تتجاوز أسوار قصر الخلافة في بغداد وانطلقوا - خلال ذلك يتحدثون بإسهاب عن آل بويه وآل سلجوق والأتابكة والسلاطين الأتراك والأكراد والشراكسة ويتحدثون أيضا عن باباوات روما وقساوستها، وعن ملوك الإفرنج وأمرائهم وكذلك عن أفّاقيهم ومغامريهم. وكان دائماً يرتسم في فكري سؤال كبير: أين كان هذا الشعب الذي كان تعداده عشرات الملايين في ذلك الوقت، وما دوره وسط هذا الخليط العجيب الغريب من الأقوام والأمم والناس؟؟ ويستتبع هذا السؤال الأسئلة الاخرى.. هل كان العربي المسلم يتفرج وكأن الأمر لا يعنيه وهو يرى بلاده وقد باتت موطئاً لحوافر فرسان الغزاة؟؟ وهل حقا أن الأتابك والسلاطين وغلمانهم ومماليكهم هم الذين صانوا وحدهم الإسلام وحموا العروبة؟؟ ورب معترض يقول: إن مفهوم العروبة كما نعرفه اليوم كان غير بارز وغير معروف في ذلك الوقت من الزمن؛ فكان هناك مسلمون فقط وينضوي تحت ظل هذه اللفظة العرب وغير العرب.

ولكن هل يتمشى هذا الاعتراض مع الحقائق التاريخية فمنذ البداية وحتى الآن كان هناك تميز واضح بين العربي وغير العربي وإلا لما وصف المؤرخون الدولة الأموية، بأنها دولة يعربية، وأن دولة بني العباس كانت دولة تعتمد على العنصر الفارسي، كذلك لما حملت بطون صفحات تاريخنا قصص ذلك الصراع الطويل بين العرب والأعاجم، وهو ما نعرفه بالشعوبية ولما ألف العرب كتباً كثيرة في إبراز فضل العرب، ولما ألف الأعاجم كتباً تتغنى بأمجادهم وأمجاد أجدادهم وأنسابهم. كما أن الأمر لو كان يعني أن الجميع في نظر ولاة الأمور الخاصة والعامة مسلمون لما أحاط السلطان المسلم غير العربي نفسه بحاشية من بني قومه، ولما ألف فرقاً خاصة لحمايته وخدمته من المماليك والعبيد الذين يجلبهم من خارج حدود بلاد العرب، مبعداً العربي عن المراكز القيادية والحساسة، إذن فإن تلك المقولة لا يدعمها الواقع ولا الحقيقة وأعتقد أن الحكام الغز هم الذين روجوا لتلك المقولة ليبرروا حكمهم لقوميات ليسوا منها، وقد كانت جمعية الاتحاد والترقي التي استولت على الحكم العثماني عام ١٩٠٨ صادقة مع نفسها ومع ما هو واقع فعلا حين أعلنت صراحة أن الحكم هو تركي من ألفه إلى يائه.

إن ابن الأثير يعتبر أهم مؤرخ عربي قديم للحروب الصليبية، وأعتقد أن مؤلفه الذي أسماه [الكامل في التاريخ]، رغم أهميته وغناه التاريخي قد بخس العرب حقهم وأغفل دورهم في التصدي لغزوات الإفرنج، وكان ابن الأثير في مواضيع كثيرة من كتابه يستعمل لفظ مسلمين عند الإشارة الى الجانب العربي إبان المعارك ضد الفرنج؛ فهذه اللفظة تبعده - كما يبدو - عن الإحراج أمام ولاة الأمور التركمان، فهي لفظة عائمة غير محددة، يدخل فيها العرب مع غيرهم من المسلمين غير العرب بينما، نجده عندما يكون الحديث عن الأتابكة أو رجالهم ومماليكهم يشير إلى عرقهم وجنسياتهم. واذا تحدث عن العرب فإنه يقصر حديثه على أولئك البدو العصاة الذين كانوا يغيرون أحيانا على قوافل الحجاج أو يحدثون بلبلة بالأمن.

وقد سار على منوال ابن الأثير معظم من جاؤوا بعده من المؤرخين إما لأنهم كانوا يعيشون في نفس الظروف التي عاشها ابن الأثير من تسلط التركمان أو مماليكهم على الشعب العربي، أو لأنهم اقتنعوا بما أورده حيث جعلوا الحرب الصليبية تدور بين جند التركمان ومماليكهم وبين الغزاة الإفرنج، وإننا قد نجد العذر والمبررات

لسلوك ابن الأثير لهذا المسلك إذ من المعروف أن كثيراً من الكتاب القدامى كانوا كتاباً للملك والحاكم وكانت علومهم ومعارفهم طريقاً للوصول إلى المناصب، وإلى كسب ود السلطان الحاكم ورضاه، حتى ولو كان الأمر على حساب الحقيقة العلمية الصرفة.

وربما كان ابن الأثير واحداً من هؤلاء، فهو يقول في مقدمة كتابه: إن همته في إتمام الكامل في التاريخ وإخراجه الى حيز الوجود توبت عندما طلب منه حاكم الموصل التركماني الأصل ذلك. ولنقرأ ما كتبه ابن الأثير في هذا الخصوص:

ثم إن نفراً من إخواني وذوي المعارف والفضائل من خلاني رغبوا إليّ في أن يسمعوه مني (يقصد كتابه الكامل) ليرووه عني فاعتذرت بالإعراض عنه وعدم الفراغ منه، فإنني لم أعاود مطالعة مسودته، ولم أصلح فيها من خلط وسهو ولا أسقط منها ما يحتاج إلى إسقاط.

ثم يقول ابن الاثير.. فبينما الامر كذلك، اذ برز امر من طاعته فرض واجب، واتباع امره حكم لازب، من أحيا المكارم، وكانت امواتا، واعادها خلقا جديدا، بعد ان كانت رفاتا، ومن عم رعيته عدله ونواله، مولانا مالك الملك الرحيم العالم المؤيد المنصور المظفر بدر الدين (بدر الدين لؤلؤ بن عبدالله الاتابكي، الملقب بالملك الرحيم حاكم الموصل).

ويتابع ابن الاثير قصة اتمامه لكتابه قائلا (... حينئذ القيت عني جلباب المهل وابطلت رداء الكسل، والقيت الدواة واصلحت القلم، وقلت هذا أوان الشد فاشتدي زيم وشرعت في اتمامه)[1]... الخ..

ومن ناحية ثانية فان اسرة ابن الاثير كانت على صلة وثيقة باتابكة الموصل، وقد تولى عدد من افرادها بعض المناصب الرسمية الهامة فيها فكان والده متوليا ديوان مدينة الموصل، وقد اقطعه الاتابكة نظرا لقربه منهم وإخلاصه لهم - قرية اسمها العقيمة قرب الموصل بالاضافة الى أراض زراعية كبيرة..

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج ١ - ص٤ و٥.

ولا بد والحالة هذه ان تكون ميول ابن الاثير واتجاهاته تسير مع ميول واتجاهات الاتابكة التركمان.

ومما لا شك فيه ان العرب المسلمين، كما تؤيد شواهد عديدة، كان لهم دور كبير في دحر الافرنج، ومن الصعب التصور ان يكون صلاح الدين الايوبي بذكائه وشجاعته، مع جيش من المماليك لا يتعدى بضعة آلاف قادر بمفرده اولا على تصفية الخلافة الفاطمية نهائيا. وثانياً على اسقاط دول الاتابكة التي كانت منتشرة في بلاد الشام وتوحيد مصر مع الشام مع الجزيرة العربية.. ثم الانطلاق ثالثا ليحارب الصليبيين ويكسر شوكتهم.

انه لمن المؤكد ان صلاح الدين لم يستطع أن يحقق ذلك الا بعد التفاف شعب هذه الارض من حوله، وانه بجند هذا الشعب وبسيوفهم تمكن صلاح الدين ان يتحرك وان يفوز وان ينتصر.

واذا كنا نجد العذر للمؤرخين العرب القدامى الذين كانوا تحت ظل حكم ظروف سياسية واجتماعية جعلتهم يبرزون ما يرضى عنه الحاكم التركماني، وايضا اذا كنا نجد العذر للمؤرخين الأوربيين القدامى على تجنيهم وتزييفهم وتحريفهم للواقع والاحداث، حيث كانوا تحت سيطرة حمى التعصب الديني، او لأنهم كانوا يجهلون الشيء الكثير عن ارضنا وشعبنا، اذا كنا كذلك فاننا لا يمكن ان نجد اي عذر للمؤرخين المعاصرين الذين تصدوا لكتابة تاريخ هذه الحقبة من تاريخ الانسانية.

فبين يدي الان كتابان حديثان لمؤرخ غربي، وهو الاستاذ ستيفن رنسيمان المؤرخ الإنكليزي المعروف، صدر عام ١٩٥٠م والثاني لمؤرخ عربي هو الاستاذ سهيل زكار استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة دمشق صدر عام ١٩٧٢م وهذان الكتابان يعتبران بحق من الكتب القيمة التي درست الحروب الصليبية، ولكنهما ـ كما سوف نرى ـ لم يتجنبا المزالق والحفر التي صنعها المؤرخون القدامى، عربا واجانب، حول هذه الحروب.

ولنبدأ بمؤلف الاستاذ ستيفن رنسيمان (تاريخ الحروب الصليبية) وهو من ثلاثة اجزاء ضخمة، نقله الى العربية عام ١٩٦٧م الدكتور السيد الباز العريني...

لقد اعتبر رنسيمان أن الحروب الصليبية تبدأ منذ دخول العرب المسلمين عام

٦٣٨ للميلاد الى مدينة القدس، وان ذلك في نظره يعتبر هاما ورئيسا في جعل الأوربيين يشحذون الهمم لاستعادة الاراضي المقدسة، وتحريرها من ربقة الاستعمار العربي واعادتها الى حظيرة كنيسة القديس بطرس بروما، او كنيسة ايا صوفيا بالقسطنطينية[١]...

والاستاذ رنسيمان لم يكتف بهذا التصور الخاطىء الذي كان مسيطرا على عقول ونفوس اباطرة روما وبيزنطة، وملوك اوربا ودهمائهم آنذاك، بل عمد الى تبني هذا التصور واعتباره حقيقة مسلما بها، حيث ينطلق من هذا التصور الذي يسيطر على مؤلفه حتى الاسطر الاخيرة منه، ليجعل غزوات الافرنج للديار العربيه امراً مشروعاً، فالافرنج انما كانوا يستردون حقا سلب من الكنيسة المسيحية، وارضا لهم احتلت من قبل غزاة دخلاء جاؤوا من الجزيرة العربية!! بهذه المقدمة الخاطئة وصل الى نتائج خاطئة، ويلمس القارىء تعاطف رنسيمان الكامل مع الدولة البيزنطية، محاولا تبرير جميع سيئاتها، كذلك تبرير اسباب انهزامها امام العرب أولا، ثم أمام السلاجقة ثانيا، حتى انه وهو المؤرخ الموضوعي يصف انهزام بيزنطة امام السلاجقة في معركة (ملاذكرت) بالكارثة المروعة.. كما انه في خاتمة كتابه انتقد الصليبيين انتقاداً مرا، لا للفظائع التي ارتكبوها بامتطائهم حصان الدين للنهب والسلب واستعباد شعب مسالم، بل لأنهم، أي الافرنج، لم يتفاهموا مع البيزنطيين وكانوا سببا في اضعاف بيزنطة التي كانت تعد العدة لاستعادة بيت المقدس والشام، وطرد المسلمين منها، وجعلوها لقمة سهلة في فم السلاجقة المسلمين الذين ادالوا دولتها وحطموا كيانها[٢]. ورنسيمان لم يخف يقينه التام بان بلاد الشام ومصر ارض بيزنطة ويرد جميع مظاهر تعاطف الشعب العربي في سوريا ومصر مع الفاتحين العرب المسلمين الى

---

(١) انظر رنسيمان ـ الحروب الصليبية ـ ج ١ ـ ص١٥ ـ ولم ينفرد رنسيمان بالقول أن الحرب بين الشرق والغرب تبدأ منذ خروج بيزنطة من بلاد الشام بل يشاركه في هذا الرأي معظم المؤرخين الغربيين، حتى أن أرنست باركر يضيف أن الحرب الصليبية هي رد فعل من قبل الغرب ضد ضغط الشرق الذي بدأ عام ٦٢٢م أي منذ بزوغ فجر الاسلام وحتى عام ١٦٨٣م عندما حاصر الأتراك المسلمون فينا ـ أنظر باركر ـ الحروب الصليبية ـ الترجمة العربية ـ ص١٣.

(٢) انظر ما كتبه رنسيمان في الجزء الثالث ص (٧٨٨) وما بعدها.

الخلافات الدينية والمذهبية التي كانت محتدمة الاوار في طول الامبراطورية الرومانية وعرضها، دون ان يهتم بالجانب القومي الذي لعب دورا كبيرا في حسم الموقف لجانب الفاتحين العرب الجدد، وازالة حكم الرومان نهائيا عن تلك الديار، ففي حديثه مثلا عن معركة اليرموك، التي وضع بها خالد بن الوليد بداية النهاية لحكم بيزنطة لبلاد الشام يعترف رنسيمان ان اهم عوامل انهزام الروم في المعركة التي فاقوا فيها المسلمين العرب عددا وعدة، ترك ١٢ الف مقاتل عربي مسيحي من بني غسان جيش الروم وانضمامهم الى صفوف المسلمين، ويعزو رنسيمان سلوك الغساسنة هذا المسلك لاسباب يستغرب المرء ان يقول بها مؤرخ كفء كالاستاذ رنسيمان، فالسبب بنظره الذي حدا بالغساسنة لترك جيش الروم هو لأنهم لم ينالوا مرتباتهم شهورا طويلة ولانهم على مذهب يخالف مذهب هرقل امبراطور الروم[١].

ولست ادري كيف وصل رنسيمان الى هذا الاستنتاج؟؟ فالغساسنة يعرفون جيدا ان المسلمين الذين جاؤوهم من الجزيرة العربية كانوا فقراء صفر اليدين، لذلك لا يمكن ان يأملوا ان يصبحوا اغنياء في عهدهم، كذلك ان اختلاف المذهب يبقى دائما ضمن دائرة المسيحية، فالمسيحي الكاثوليكي هو اقرب دينياً الى المسيحي الارثوذكسي او البروتستانتي من المسلم الا اذا تدخل عامل هام واقصد به العامل القومي فيصبح للأمر وجه آخر، وهناك اكثر من دليل بان الغساسنة كانوا يعتبرون الحكم البيزنطي حكما استعماريا محضا وهذا ما يصح ان نفسر به اسباب انضمام العرب الغساسنة. المسيحيين الى اخوانهم العرب المسلمين في معركة (اليرموك) وفي رأيي ان رنسيمان لو كان منصفا لاعتبر ان العاطفة القومية جعلت الغساسنة يقامرون بوجودهم وحياتهم حين تركوا معسكر الروم، وانضموا الى معسكر المسلمين، فحتى ذلك التاريخ لم يكن احد يتوقع ان يكون العرب المسلمون بتلك القوة القادرة على دحر واحدة من اكبر دول ذلك العصر.

كما ان هناك العديد من الاحداث التاريخية التي لو امعن فيها رنسيمان النظر لادرك بكل سهولة ان الروم البيزنطيين كانوا في نظر سكان مصر والشام مستعمرين غرباء وان حكمهم كان قائما على القوة العسكرية، ولم تستطع وحدة الدين بين الحاكم

---

(١) راجع الصفحة ٣٣ و٣٥ من كتاب رنسيمان ـ الجزء الأول.

والحكوم ان تجعل العنصر المحكوم يذوب في عنصر الحاكم. وسأورد على سبيل المثال لا الحصر عددا من هذه الدلائل والمؤشرات التاريخية:

(١) ـ تشبث سكان المدن خاصة في مدينة حمص ـ بالعرب المسلمين الذين قرروا الانسحاب منها بعد احتلالهم لها ابان الفتوحات العربية الاسلامية الاولى، وذلك للتجمع في اليرموك للتصدي للجيش الكبير الذي جهزه الروم لحرب المسلمين، وقد رفض هؤلاء السكان استرجاع الاموال التي دفعوها للمسلمين نظير حمايتهم لهم، وكان في مقدمة وفد اهالي حمص كبار رجال الدين المسيحي في المدينة.

(٢) ـ ما اورده رنسيان نفسه من ان بطريك انطاكية قد قال ان الله المنتقم الواحد القهار قد أثار من الجنوب ابناء اسماعيل لانقاذنا من الرومان، وان هذا الخلاص لم يكن ميزة هينة لنا.. وكذلك يقول ميخائيل السرياني (ان قلوب المسيحيين إنشرحت لسيادة العرب فليزد الله في قوة هذه السيادة ويجعلها زاهرة..)[١].

(٣) ـ اعتراف رنسيان نفسه ان سكان مصر قد سروا وأيدوا الفتح العربي، واذا كان هناك معارضة فانما كانت موجهة بالخصوص للحاكم العربي، وهو عمرو بن العاص نظرا لقسوته لا الى قومه ودينه..

(٤) ـ يشير رنسيان اشارة عابرة سطحية لحادث هام لو أمعن فيه هذا المؤرخ النظر ودرسه دراسة وافية لكان كفيلا بتغيير وجهة نظره من اساسها، واقتنع بان البيزنطيين كانوا غرباء، وان الدين كان ستاراً يحمي سيطرتهم على شعب ليس منهم ولا ينتمي اليهم والحادث هو ان السكان في مصر والشام سواء الذين اعتنقوا الاسلام او الذين بقوا مسيحيين سرعان ما تعلموا اللغة العربية، واعتبروها لغتهم واستعملوها في جميع اغراضهم الخاصة والعامة وبعد ان يعترف رنسيان بهذا الامر يسارع للتشكيك في عروبة سكان مصر والشام فيقول (واننا نطلق اليوم في شيء من التساهل على ذرية هؤلاء الاقوام لفظ عرب)[٢].

---

(١) الصفحة ٣٨ و٣٩ من الجزء الأول...

(٢) الصفحة ٤٣ من الكتاب المذكور ـ الجزء الأول.

ولم يتساءل رنسيان عن السبب الذي جعل السكان في مصر والشام، في اقل من عشر سنوات يتعلمون اللغة العربية، ولم يستطيعوا هضم لغة الروم خلال مئات السنين التي حكمت فيها روما والقسطنطينية هذه البلاد بلا انقطاع تقريبا. اذ بقي السكان الاصليون طوال حكم الرومان متمسكين بلغتهم القومية، وهي تلتقي مع اللغة العربية في الاصل، وهو ما ندعوه بالسامية، فمثلا كان سكان الشام يتكلمون اللغة السريانية الارامية والتي تتشابه الى حد كبير مع العربية، وفي رأيي ان الاختلاف بين العربية والسريانية من فروع اللغة السامية كالاختلاف الحاصل بين اللهجات العامية الدارجة في اقطار الوطن العربي في الوقت الحاضر، ليتضح ذلك سأورد فيا يلي ألفاظا عربية وما يقابلها بالسريانية:

عربي	سرياني
أب	ابا
أم	أما
أخ	أخا
شمس	شمشا
متى	امت
ورق	يرقا
فتح	فتح
عين	عينا
مساء	مايا
يد	أيدا

ورغم كل هذه البراهين والمؤشرات يصر رنسيان على ان الوحدة الدينية بين الرومان وسكان البلاد الخاضعة لهم اقوى وامتن، وينفي نفيا قاطعا الوجود القومي، ويتبدل في هذا الخصوص... (ان القومية لم تقم لعدة قرون عديدة على اسس العنصر

الا فيما يتعلق باليهود، فالمصري لا يعتبر نفسه من مواطني مصر، انما يعتبر مسلما او قبطيا او ارثوذكسيا، فتحكم في ولائه ديانته) وقوله ايضا: قبل المسيحيون في الشرق عن طيب خاطر سيطرة سادتهم المسلمين اذ لم يكن في وسعهم ان يفعلوا غير ذلك، فلم يكن ثمة احتمال ضئيل في ان تنهض بيزنطة من جديد لإنقاذ الاماكن المقدسة[1].

ورنسيمان الذي سيطرت عليه فكرة ان المسيحيين في الشرق هم جزء من الامبراطورية الرومانية المسيحية وان الحروب الصليبية جاءت لإعادة الامور الى نصابها، نراه حيثما يصدم ببروز عوامل قومية مناهضة للغزاة الصليبيين من قبل عناصر مسيحية، لا يجد اي حرج ان يسبغ على هذه العناصر النعوت والاوصاف التي تبعده عن الموضوعية العلمية، فمثلا فانه يتحدث في الجزء الثاني من كتابه عن عدم انصياع الارمن - وهم طائفة تسكن في الشمال الشرقي من بلاد الشام وتدين بالمسيحية - للغزاة الافرنج، بانهم، اي الارمن، ليسوا اهلا للثقة فضلا عن شهرتهم بالخيانة. واما المسيحيون الشرقيون فوصفهم بانهم لم يكونوا اهل حرب وقتال لذا عمد الفرنجة إلى ابعادهم عن المناصب الهامة في الدولة التي اقاموها في الشرق.. كما اعتاد ان يطلق على المسيحيين من سكان البلاد الذين رفضوا حكم البيزنطيين اولا ثم الافرنج بعد ذلك (الهراطقا)[2] ويقرر بشكل قطعي ان المسيحيين الذين دخلوا الاسلام كانوا ملاحدة هراطقة[3] ورنسيمان يطلق لفظة هراطقة وملاحدة، بشكل مطلق، دون أن يحدد بالنسبة لاي مذهب أو كنيسة هم هراطقة، هل لكنيسة روما أو لكنيسة القسطنطينية أو لانطاكية أو للاسكندرية فالمعروف انه منذ تفجر الخلاف المذهبي بين المسيحيين حول طبيعة السيد المسيح انقسموا الى طوائف وشيع واصبحت كل طائفة ترى انها على حق وتتهم اتباع الطائفة الاخرى بالهرطقة والانحراف عن المسيحية الحقيقية.

ويتجاهل رنسيمان الشواهد والبراهين الكثيرة التي تؤكد غير ما ذهب اليه،

---

(١) الصفحة ٣٨ و٤١ من كتاب رنسيمان.

(٢) راجع ما كتبه رنسيمان ف الصفحة ٣٨ من الجزء الأول والصفحة ٢٥ و٢٦ من الجزء الثاني عن الأرمن والمسيحيين الشرقيين.

(٣) انظر الصفحة - ٤٢ - من الجزء الأول لكتاب رنسيمان

ونراه يعتمد لتأييد وجهة نظره على مواقف القليل من كبار رجال الكنيسة من المسيحيين الشرقيين الذين يعرفون ان الاحتفاظ بالمناصب السامية التي وصلوا اليها، مرهون ببقاء الحاكم الذي نصبهم عليها دون اي اعتبار للتيار الشعبي الذي كان يتحرك باتجاه مخالف لمطامعهم الشخصية(١).

واذا كان المؤرخ الانكليزي رنسيان جعل بداية الحروب الصليبية تنبثق من روما في الغرب، محاولا ان يضعها في اطار ديني محض، ويلبسها ثوب الشرعية ويمنح دعاتها وقادتها مبررات القيام بها تحت راية وحدة العالم المسيحي وتحرير الاراضي من المستعمرين العرب المسلمين اذا كان رنسيان قد غرب بنا وأوغل في التغريب، فان الدكتور سهيل زكار قد شرق بنا واوغل هو الاخر في التشريق، جاعلا بداية تحرير البلاد العربية من غزاتها الإفرنج، تنطلق من اقاصي الشرق من تركستان وكردستان. ورغم ان الدكتور زكار يقول في كتابه الذي اسماه مدخل الى الحروب الصليبية:

(ان المؤرخين قد درجوا على الانطلاق في دراساتهم لهذه الحروب من أوربا موطن الصليبيين) وهذا قول حق لكن المؤلف يتجاوز السكان الذين كانت ارضهم مسرحا لتلك الحروب، وينتقل دفعة واحدة ليتتبع بتفصيل، احوال اقوام الغز الذين يعتبرهم حماة الاسلام الاول وان وجودهم كان رحمة للعرب والمسلمين، مع أنه يعترف في مقدمة كتابه بان سبب تجرؤ الاوربيين على غزو الارض العربية الاسلامية كان بسبب حالة التشتت والتمزق التي كانت عليه البلاد العربية، والتي نشأت عن هجرة الغز البداة الى الارض العربية مع الغزو السلجوقي الاول.

ويكثر الاستاذ زكار في تمجيده للتركمان السلاجقة ومماليكهم، ويعتبرهم أخلص للاسلام من العرب والعجم ويقول في هذا الخصوص، ما ان تبنى التركمان الاسلام حتى اصبحوا حماته المخلصين، ومن العلامات المميزة لتبني التركمان للاسلام كمال هذا التبني، حيث اسلموا انفسهم للاسلام، فتنازلوا عن ماضيهم وعاشوا كليا مع الدين

---

(١) اقصد ما كتبه رنسيان عن البطريك صفرنيوس الذي تسلم منه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مفاتيح بيت المقدس عام ٦٣٨م، والصورة المأساوية التي رسمها المؤلف عن نفسية هذا الراهب والتي يبدو أنه نفسه تأثر بها. راجع الصفحة (١٥ و١٦ و١٧) من كتاب رنسيان ـ الجزء الأول........

الجديد، وهكذا نسي التركمان ماضيهم واغرقوا شخصيتهم القومية في الاسلام، الامر الذي لم يفعله العرب والفرس، فليس لدى التركمان ذكريات جاهلية تركية، تعدل باي حال، او تشابه باي محتوى، الذكريات الممجدة لوثني الجزيرة العربية او مفاخر الامجاد التليدة الماضية للفرس...[1].

ثم يقول بالحرف الواحد في حاشية الصفحة ـ ١٦ ـ من كتابه المذكور (لقد سمعت من افواه الكثيرين من مواطني هذا البلد ـ يقصد سوريا ـ بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧م ان على العرب ان يتركوا محاولات التحرير والحرب، ويسألوا الاتراك وتركيا ان يقوموا بهذا العبء عنهم.

ويقول الدكتور زكار بنفس الحاشية نقلا عن المثقفين السوريين بانه لو بقيت البلاد العربية قطعة من الامبراطورية العثمانية، لما قامت اسرائيل ولما عاشت. كما يقول في متن الصفحة ذاتها (لقد بات كثير من المسلمين يرون أن الحكم لا يصح، ولا يمكن ان ينجح فيه الا تركي.

والامر الذي يذهل له المرء، وصول الدكتور زكار الى هذه الاستنتاجات والاستنباطات التي تدحضها كليا الوقائع التاريخية قديما وحديثا، فاذا كان الغز التركمان قد دخلوا الاسلام وانقطعوا له كليا ـ كما يقول الاستاذ زكار ـ ونسوا ماضيهم فذلك لان هؤلاء الاقوام لم يكن لهم ماض حضاري عريق انحدروا منه، فقد كان الغز عبارة عن بداة يعيشون قبل اتصالهم بالاسلام حياة اقرب ما تكون الى حياة الانسان البدائي الاول، والدكتور زكار نفسه يورد في كتابه نماذج عن معتقداتهم، والاساطير التي كانوا يعتنقونها، والتي كانت تسيطر سيطرة كاملة على سلوكهم ونمط حياتهم الاجتماعية وتدل على المستوى الفكري البدائي الذي كانوا فيه[2]..

لقد وجد الغز في الاسلام هويتهم الحضارية، لذلك نسوا او بالاحرى تناسوا ماضيهم، بينما العرب كانوا يعيشون حياة حضارية متقدمة نسبياً قبل البعثة المحمدية سواء في مكة نفسها، او في اليمن والبتراء والحيرة وبصرى وتدمر، وكذلك في

---

(١) راجع الصفحة ـ ١٩ ـ من كتاب مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ـ الدكتور سهيل زكار طبعة ثانية ١٩٧٢م.

(٢) راجع ما كتبه الدكتور زكار في الصفحة ٢٠ و٢١ من كتابه المشار اليه عن معتقدات الغز.

الاسكندرية وغيرها من المدن الحضارية الاخرى العربية المعروفة، وقد أقر الاسلام الحنيف كثيرا من العادات والقيم الاجتماعية والحضارية التي كانت سائدة عند العرب، وان حلف الفضول الذي عقده زعماء قريش قبيل البعثة وحضره الرسول الكريم عليه السلام، يعتبر واحداً من الشواهد الدالة على المستوى الفكري الانساني والاجتماعي المتحضر الذي كان عليه العرب آنذاك وما زالت اشعار العصر الجاهلي حتى يومنا هذا، ينبوعا ثريا، لجميع الشعراء وطلاب الادب ينهلون منه رقة العاطفة، وجمال اللفظ ودقة التعبير...

واذا استثنينا طبقة الحكام الاعاجم الذين توالوا على حكم البلاد العربية الاسلامية فاننا نجد ان هؤلاء الاقوام الذين حلوا وعاشوا في دار العروبة والاسلام، قد وجدوا في هذه الدار ملاذهم، وعملوا على الذوبان في المجتمع العربي الاسلامي فتعلموا لغة العرب واعتبروا انفسهم جزءا من هذا المجتمع، وأسهموا بافكارهم وعلومهم في بناء الحضارة العربية الاسلامية، ووجدوا المناخ الحضاري الذي فتق مواهبهم وقدراتهم، وما زال هؤلاء الرجال مفخرة لنا، معشر العرب - نعتز بهم ونباهي بهم الأمم الأخرى، وحين نتحدث عن ابن سينا او الفارابي او الخوارزمي فاننا نتحدث عنهم كعرب مسلمين، وليسوا فرسا او اتراكاً، انطلاقا من ان العروبة ليست عرقا خاصا أو دماً ازرق بل هي انتماء وثقافة وكما تقول السيدة سيجريد هونكه ان من يقول: ان ابن سينا ليس عربيا هو كمن يقول ان الرئيس الاميركي أيزنهاور الماني وليس امريكيا[1].

ومن التجني على هذه الامة ان نرد رجالات تاريخها الذين فيها نشأوا، وبها عرفوا وفي مناخها اعطوا وابدعوا، الى اصولهم البعيدة عن قصد او غير قصد، والا كان علينا ان نعتبر انفسنا وجميع سكان الارض اخوة ومن عرق واحد، طالما ان أبانا آدم وامنا حواء، فصلاح الدين الايوبي هو مفخرة عربية اسلامية وليس مفخرة كردستانية، وكذلك الحال مع رجالات الحرب والفكر الذين نبغوا في امتنا، وبرزوا في تاريخها.

وما قول الدكتور زكار، ان الغز وسلالاتهم هم الذين حموا الاسلام وصانوه،

---

(١) زيغريد هونكه - شمس العرب تسطع على الغرب ص١٣.

فمن الامانة ان لا ننكر الدور الكبير والهام الذي أداه الاتراك في الدفاع عن الاسلام وإسهامهم في كسر شوكة البيزنطيين والصليبيين، ثم المغول والتتار، لكن أن نسحب ذلك على جميع العهود والفترات، ونحصره فيهم فقط، فان ذلك يصبح مبالغة وخروجا عن الحقيقة والواقع، واعتقد ان الدكتور زكار يعرف أن من حمى العروبة والاسلام في ليبيا هو شعبها وليس الغز والاتراك، وحين وصلت بوارج الغزاة الايطاليين الى طرابلس عام ١٩١١م خرج الشعب العربي الليبي للتصدي للغزاة وحده، وان السلطان العثماني بعد بضع قذائف القتها بارجة ايطالية على معسكر عثماني في بيروت سارع لعقد معاهدة (أوشي - لوزان) مع ايطاليا تخلى بها عن الارض الليبية الى الايطاليين، وذلك بعد بضعة اشهر فقط من بدء الغزو الايطالي، وظل شعبنا العربي يقاتل الغزاة وحده لمدة تزيد عن عشرين سنة..

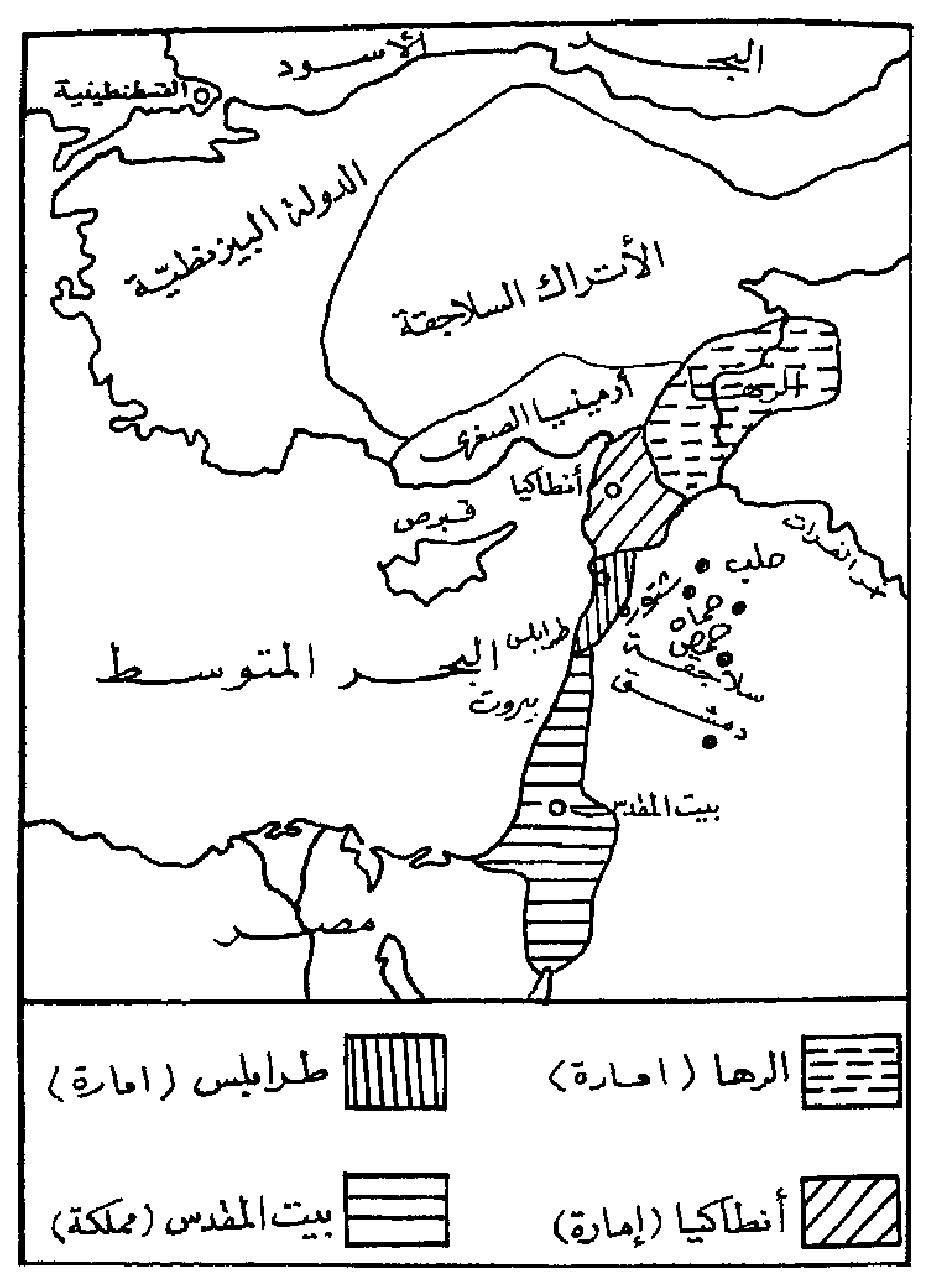
ثم اذا كانت ايطاليا قد تمكنت بعد تلك السنوات الطوال من انهاء المقاومة العربية العسكرية، فانها قد فشلت في نزع الاسلام والعروبة من قلوب شعبنا رغم جميع وسائل القهر وفرض الثقافة الايطالية عليه حتى ان الايطاليين كانوا إذا ارادوا ارضاء شعبنا لامر من الامور تظاهروا بالتسامح الديني، وليس ادل على ذلك من ان ايطاليا حين عرفت انها قادمة على حرب كونية عمدت في اواخر الثلاثينات من هذا القرن الى التظاهر بالتحمس لتدريس العربية والعلوم الاسلامية فانشأت المدرسة الاسلامية العليا، وذلك في محاولة لاسترضاء شعبنا وتأييده لها اثناء الحرب، وقد زال الاستعمار الايطالي، وبقيت بلادنا عربية مسلمة بفضل شعبنا وليس بفضل الغز والمغول وكذلك الحال في الجزائر فشعبها بعد مئة وثلاثين عاما من مسح شامل للعروبة والاسلام بقي معتزا بعروبته متمسكا بدينه الحنيف..

واذا وافقنا الدكتور زكار في قوله على لسان المثقفين الذين قابلهم، ان الدولة العثمانية لو بقيت ما كانت هناك اسرائيل، كان علينا ان نعتبر أن قيام اسرائيل يبدأ منذ ان انهزم القائد العثماني جمال باشا المشهور في بلاد الشام بالسفاح، امام القائد الانكليزي (الجنرال اللنبي) عام ١٩١٧م في فلسطين واحتلال الانكليز لبيت المقدس، فالبريطانيون كما هو ثابت ومعروف هم الذين مكنوا الصهاينة من احتلال فلسطين واقامة وطنهم القومي على ارضها، وبعبارة اخرى ان العثمانيين الذين لم يستطيعوا المحافظة على فلسطين كانوا سبباً مباشرا في قيام اسرائيل وليس كما ذهب اليه

الدكتور زكار، واذا كان يعتقد ان سبب انهزام الجيش العثماني في فلسطين وبلاد الشام عموما جاء بسبب ذلك التمرد الحدود الذي حدث في بلاد الشام والحجاز ضد السلطة العثمانية فهو اعتقاد خاطىء، فالعثمانيون لم يولوا اعتبارا كبيراً لذلك التمرد الذي كان ضعيف الاثر. وان جميع المصادر التاريخية تؤكد ان انهزام الجيش العثماني امام الجيش الانكليزي عام ١٩١٧ بسبب ضعف بنية ذلك الجيش وعدم قدرته القتالية، وترهل قياداته العسكرية والسياسية.



هذه بعض الملاحظات التي رأيتها في كتابي الاستاذين رنسيمان وزكار، ولا بد لي أن أوكد ان تلك الملاحظات لا تقلل مطلقاً من قيمة الكتابين العلمية أو تنقص من جهود هذين المؤرخين الفاضلين الكبيرة.



الامارات الصليبية في بلاد الشام

الفصل الأول

عوامل ضعف الأمة العربية

كيف كان وضع العرب عندما فكر الصليبيون الغزاة في الاتجاه بجيوشهم نحو مشرقنا؟... هذا هو موضوع هذا الفصل.

درج المؤرخون الغربيون، وسار معهم كذلك مؤرخونا العرب المحدثون، على تقسيم الحروب الصليبية، وفق عدد الحملات التي نظمها الإفرنج، والتي بلغت ثماني حملات كبيرة، وفي اعتقادي أن ذلك التقسيم غير سليم، على الأقل بالنسبة لنا معشر العرب. والأفضل أن نقسم تاريخ تلك الحروب على فترتين: الأولى، وأقترح أن نطلق عليها اسم دور الركود والنكوص العربيين، وهذه الفترة تمتد منذ وصول الإفرنج إلى الأرض العربية واحتلالهم لإنطاكية عام ١٠٩٦م وحتى بروز عماد الدين زنكي عام ١٢٨ م.

والفترة الثانية، وهي دور اليقظة وتسلم العرب زمام المبادرة من الغزاة، تمتد منذ أن استطاع عماد الدين وابنه نور الدين ثم صلاح الدين الأيوبي توحيد بلاد الشام مع مصر والجزيرة العربية وتصفية الدويلات الإقطاعية التي كانت منتشرة في تلك الديار، وتجميع القوى الشعبية وحشدها لمواجهة الغزاة الإفرنج، وحتى طرد الدخلاء وتحرير الأرض العربية منهم.

إن هذا التقسيم كما أرى - يوضح بشكل صحيح مسار الحروب الصليبية، ويعطي التفسير العلمي لكثير من الأحداث التاريخية التي وقعت آنذاك، ويضعها في حجمها الحقيقي البعيد عن المبالغة والتهويل، ومن خلال التقسيم الذي أقترحه، نستطيع القول: إن الحملات الإفرنجية التي جاءت في الفترة الأولى - دور الركود والنكوص - استطاعت أن تحقق غاياتها وأهدافها بينما الحملات التي جاءت في الدور الثاني، وهو دور اليقظة والمد العربي، فشلت وعادت مدحورة، ومن الثابت أن الحملة الأولى

فقط هي التي نجحت في مهمتها، والسبع الأخريات فشلت في تحقيق ما نظمت من أجله.

ويكفي للدلالة على ذلك أن نذكر أن الحملة الثانية، التي نظمها الإفرنج عام ١١٤٦ م لدعم الممالك الإفرنجية التي أقيمت على الأرض العربية، وتحطيم قوة نور الدين بن عماد الدين زنكي الذي استطاع استرداد إمارة (الرها) في الشمال الشرقي من سوريا من الإفرنج، قد فشلت في تحقيق أي غرض من أغراضها، حتى إنها اندحرت أمام أسوار دمشق وجيشها الصغير. ويرى مؤرخو الحروب الصليبية أن هذه الحملة كانت أكثر نظاماً وأحسن قيادة من الحملة الأولى، إذ إنه لم يكن فيها متشردون وأشقياء ورعاع، كالذين ضمتهم الحملة الأولى، بل فرسان وبارونات، وكانت بقيادة ملكين من ملوك أوربا: هما لويس السابع ملك فرنسا، و (كونراد الثالث) ملك ألمانيا[1]...

وبقية الحملات لم يكن حظها في النجاح أكثر من حظ الحملة الثانية، لأنها جميعها قد جاءت والعرب قد تيقظوا...

ونعود إلى الفترة الأولى أو الدور الأول، وهو دور النكوص والتراجع، لنبحث الأسباب والعوامل التي قادت الأمة العربية إليه...

في القرن السابع الميلادي انطلق العرب المسلمون من الجزيرة العربية وساحوا غرباً وشرقاً، واستطاعوا دحر دولتين عظيمتين من دول ذلك العصر، وهما دولة فارس وبيزنطة وأسس العرب دولةً كبيرةً امتدت من حدود فرنسا غرباً إلى الصين شرقاً، وقد انضوت تحت راية هذه الدولة قوميات كثيرة. وفي الوقت الذي اعتنقت

---

(١) أثار فشل هذه الحملة الدهشة والاستغراب لدى الأوربيين ومؤرخيهم، وكثرة تبريرات وأسباب فشل هذه الحملة. ويقول الأستاذ محمد كرد علي في كتاب خطط الشام: «... إن هذه الحملة الكبرى لم تجد نفعاً البتة، حتى استغربت حالها أمم النصرانية، فبحث بعضهم عن الخطايا التي استحقت بارتكابها هذه الكارثة، ونسبت أخرى هزيمة الحملة لخداع الروم أو لخيانة نصارى الشرق، وذكروا أن الصليبيين في القدس قد ارتشوا من أمير دمشق بمبلغ مائتي وخمسين ألف دينار، وأن الأمير أرسل المال زيوفاً أو نحاساً طلي بالذهب...».

أنظر محمد كرد علي، خطط الشام - ج ٢، ص ١٩.

فيه تلك الأقوام الإسلام وتشبثت به، واعتبرته طريق حياتها ومنتهى غاياتها الروحية، لم تنس الأرومة التي انحدرت منها، وحين بدأت أصابع الدولة العربية في بغداد تتراخى وتضعف، برزت الروح القومية لدى تلك الأقوام، وتعددت عمليات الانفصال القومي، وكثر تشكيل الدول القومية المسلمة غير العربية خاصة في الشرق بدءاً من فارس وحتى الصين، بينما كانت الأرض التي نطلق عليها اليوم الأرض العربية متمسكة بعروبتها[1].

إن بداية النكوص جاءت مع تولي محمد بن هارون الرشيد، الذي لقب المعتصم بالله، الخلافة عام ٢١٨ هـ - ٨٣٣م، والذي أدار ظهره لبني قومه، ووضع مستقبل هذه الأمة بين أيدي مجموعة من المغامرين. والمعتصم كان شجاعاً غيوراً، إلا أنه كان قصير النظر عاطفي المزاج، ضعيف الثقافة، وهناك من يؤكد أنه كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، وقد تبنى مذهب المعتزلة مقلداً أخاه المأمون، ليس عن فهم أو قناعة بما جاء به المعتزلة، وجهله هذا هو الذي دفعه لأن يضرب الإمام أحمد بن حنبل، وهو العالم الشيخ، بالسياط ويضعه في زنزانة رطبة لأنه رفض القول بخلق القرآن. والمأمون، الذي اختار المعتصم ليكون خليفته متجاوزاً أبناءه الذين امتازوا بالنجابة، والثقافة، كان يعرف ضعف أخيه الفكري، وأعتقد أن اختياره هذا كان

---

(١) لعل هذا الوضع يؤكد بأن العرب المسلمين حين انطلقوا بجيوشهم للعراق والشام ومصر والشمال الإفريقي، إنما كانوا محررين لتلك الأرض وليسوا فاتحين، محررين لأشقائهم من استعمار كسرى الفرس في الشرق، واستعمار قيصر الروم في الغرب. كما أن هذا الأمر يؤكد بشكل قاطع أن سكان بلاد الشام والشمال الإفريقي الذين كانوا مستوطنين فيها قبل البعثة المحمدية، هم من السلالات العربية التي نزحت عبر عصور طويلة من الجزيرة العربية، وحين جاءهم العرب المسلمون سرعان ما تمازجوا، وانصهروا في بوتقة قومية واحدة، ولو كان الأمر غير ذلك فبماذا نفسر عودة بلاد فارس إلى أصلها الفارسي الأول، وكذلك بلاد السند وما وراء النهر والديلم وغيرها، وبقيت الشام ومصر وليبيا وتونس والمغرب والجزائر داخل دائرة العروبة. ورب قائل يقول إن الحياة الحضارية السابقة للإسلام التي كانت عليها تلك الأقوام غير العربية قد عملت على خلق البناء القومي وترسيخه لديها، لذا نراها أخذت الدين، وتمسكت بقوميتها الخاصة. وهذا القول غير صحيح إذ من الثابت أن الحضارة الشامية والمصرية قبل الإسلام كانت أرفع وأسمى من حضارة فارس وطشقند وبخارى وغيرها، فلماذا برز التأثير الحضاري القومي هناك، ولم يبرز في مصر والشام، مع العلم بأن هذه البلاد قد تعرضت كما تعرض غيرها من الديار الإسلامية، بعد ضعف الخلافة العباسية إلى التيار الانفصالي، وحكمها أحياناً عدة حكام غير عرب، ورغم ذلك بقي شعبها عربياً خالصاً، لقد أفاض المؤرخ العربي محمد عزة دروزة في كتابه (الجنس العربي) في تأكيد أن سكان الشام والشمال الإفريقي هم من سلالات الجزيرة العربية، وقد أورد العديد من الأدلة والبراهين في كتابه المذكور.

لشجاعة المعتصم وقدرته القتالية، حيث اشتهر منذ نعومة أظفاره بتعلقه الشديد بالمنازلة والقتال، ومصارعة الأسود، فكان يحمل ألف رطل ويمشي بها لمسافة غير قصيرة، وكان قادراً على أن يلوي عموداً ثخيناً من الحديد ويجعله حلقة مستديرة، ويضغط على الدينار بإصبعه فيمحو كتابته[1]. لقد كان رأي المأمون أن الحكم يحتاج إلى رجل حرب وقتال، وليس لرجل فكر وسياسة، نظراً لتعدد الفتن والثورات على الحكم العباسي والتي قضى المأمون عهد حكمه كله دون أن يتمكن من القضاء عليها... تولى المعتصم بالله الحكم بعد وفاة أخيه المأمون، وكان أول عمل قاده فكره إليه هو تنظيم جيش من أخواله المماليك الأتراك[2]، فقد كانت أمه جارية تركية اقتناها هارون الرشيد اسمها ماردة أو مارية، كما يقول المسعودي، فاستكثر المعتصم من غلمان الغز، وأحضر منهم عدداً عظيماً وأسكنهم بغداد، واستغنى بشكل كامل عن جيوش العرب وأسقط رجالاتهم من كل الدواوين، وقد ضجّ سكان بغداد من تصرفات جنود الأتراك ومن اعتداءاتهم على العامة، الأمر الذي دفع المعتصم لبناء مدينة جديدة أسماها (سامراء) جمع بها جنده الجدد، وذلك درءاً للنقمة الشعبية التي بدأت تستفحل بين عرب بغداد كما يشير إلى ذلك المؤرخ العربي أبو جرير الطبري[3].

---

(١) خلاصة الذهب المسبوك (علي بن عيسى الاربلي) وقد يشكّ الإنسان في صحة ما أورده الاربلي من أن المعتصم كان يصارع ويلوي الحديد، وقصدي من إيراد هذا القول كدليل بأن المعتصم كان مشهوراً بين قومه بقوة عضلاته لا بقوة فكره...

(٢) يذكر الطبري أن الجنود العباسيين أعلنوا العصيان، ورفضوا الاعتراف بخلافة المعتصم، وأعلنوا تأييدهم لابن المأمون العباس، فاضطر المعتصم للالتجاء للعباس لتهدئة ثائرة الجند، وبالفعل لم يهدأ الجند ويقروا بخلافة المعتصم حتى جاء العباس وطلب منهم ذلك. ولعل ذلك الحادث كان من جملة الأسباب التي جعلت المعتصم يبعد جند أخيه ويشكل جيشاً جديداً من الغلمان الأتراك. أنظر الطبري - تاريخ الرسل والملوك ق٣ - ج ١١ - ص١٣٦٥.

(٣) يروي الطبري: أن المعتصم خرج إلى القاطول (المكان الذي بنى عليه مدينة سامراء) واستخلف ببغداد ابنه هارون الواثق، وقد حدثني جعفر بن محمد بن بوّازة الفراء، أن سبب خروج المعتصم إلى القاطول كان أن غلمانه الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها، وذلك أنهم كانوا عجماً جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة، ويطأون الصبي، فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم، ويجرحون بعضهم، فربما هلك من الجراح بعضهم؛ فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت بهم العامة، فذكر أنه رأى المعتصم راكباً منصرفاً من المصلى في يوم عيد الأضحى فقال له: يا أبا إسحق قال، فابتدره الجند ليضربوه، فأشار إليهم المعتصم فكفّهم عنه، فقال للشيخ: ما لك؟ قال: لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلج فأسكنتهم بين أظهرنا، =

وسكن المعتصم في المدينة الجديدة يحيط به جنوده الترك، وسلم قيادة هؤلاء الجنود، وأمر الدفاع عن الدولة العباسية، إلى عدد من القواد الأتراك، منهم: - الأفشين حيدر بن كابوس، وإيتاخ الخدري، واشناس الذي زوجه ابنته، وبجيف بن عنبسة، ووصيف وبغا الكبير. كل هؤلاء القواد الأتراك اختارهم المعتصم وسلمهم زمام ملك آبائه، وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش، وأسقط أسماءهم من الدواوين، واعتزّ بهؤلاء المجلوبين، فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب، يتصرفون فيهم كما يشاؤون[1]...

واعتماد الخلفاء العباسيين على جنود المرتزقة، من غير العرب لم يبدأ به المعتصم بالله؛ فالدولة العباسية أصلاً، لم تقم إلا على سواعد الفرس، ولكن من سبق المعتصم من الخلفاء كانوا على درجة من النضج السياسي والفهم، جعلتهم يحجمون قوة هؤلاء الأعاجم ويقلّمون أظفارهم الحادة كلما اشتدّ عودهم وتزايدت طموحاتهم، وأبو جعفر المنصور لم يتردد لحظة في إنهاء حياة أبي مسلم الخراساني الذي يعود له الفضل الأول في دحر جيوش بني أُمية، وترسيخ جذور الحكم العباسي، وذلك عندما لمس عنده الطموح لقلب الحكم العربي، وجعله فارسياً، كذلك هارون الرشيد الذي استأصل شأفة البرامكة الذين ربوه وعلموه وساعدوه في الحكم والسياسة، بعد أن أحسّ أنهم يعدّون العدة لقلب حكمه وإعادة مجد الدولة الساسانية.

والمعتصم نفسه تأكد لديه أن جنوده وقواده الجدد لا يختلفون في طموحاتهم الشخصية والقومية عمن سبقهم، فأحد قواده وهو الأفشين، الذي قربه المعتصم وجعله نائبه ومستشاره وصديقه الحميم، والذي توجه في حفل كبير وألبسه وشاحين بالجوهر النفيس، ووصله بعشرين ألف ألف درهم، منها عشرة آلاف ألف صلة له، وعشرة آلاف ألف يفرّقها في أهله وعسكره، وعقد له على بلاد السند، الأفشين هذا

= فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت بهم نسواننا، وقتلت بهم رجالنا، والمعتصم يسمع ذلك كله، قال ثم دخل داره فلم يره راكباً إلى السنة القابلة في مثل ذلك اليوم، فلما كان في العام المقبل في مثل ذلك اليوم خرج فصلّى بالناس العيد، ثم لم يرجع إلى منزله ببغداد ولكنه صرف وجه دابته إلى ناحية القاطول، وخرج من بغداد ولم يرجع إليها.

أنظر الطبري - تاريخ الرسل والملوك القسم الثالث. ج ١٢ - ص ١١٨٠ و ١١٨١.

(١) الخضري - تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية - ص ٢٤٠.

كـان أول من تآمر على الحكم العباسي، وقد اكتشف المعتصم نواياه ووقف على خططه ومشاريعه، واضطرّ المعتصم تحت تأثير وزيره القوي محمد بن عبدالملك الزيات استدراجه وإلقاء القبض عليه وقتله في السجن ثم صلبه بعد موته وإحراق جثته! لقد كانت هذه الحادثة كفيلة بإيقاظ المعتصم بالله، إلا أنه اعتبرها حادثة فردية، وليست ظاهرة عامة بين من اصطنعهم من الجنود، وقد استمرّ في تقريب الغريب وإبعاد وامتهان القريب، ولم يطل العمر به[1] ليرى ما زرعت يداه، بل ترك ذلك لأبنائه وأحفاده ليعيشوا من بعده حياة الهوان والذلّ حتى أسدل السلطان سليم الأول الستار نهائياً على الخلافة العباسية عام (١٥١٧م).

لكن الطبري يشير إلى أن المعتصم في أواخر أيامه شعر بخطئه وبخيبة كبيرة، وقد اعترف بذلك إلى أحد خلصائه وهو إسحق بن إبراهيم قائلاً كما يروي الطبري: ـ في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ فترة طويلة وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه إليك ، نظرت أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم، فأجابه إسحق: نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب إذ لا أصول لها؛ فقال المعتصم: لمقاساة ما مرّ بي في طول هذه المدة أسهل عليّ من هذا الجواب[2].

ويقول المؤرخ الشيخ محمد الخضري: إن المعتصم وحده يتحمل أكثر تبعة ما حلّ بالعباسيين من بعده من اضطراب أجهدهم وأضعف سلطانهم، وما حلّ بالأمة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها، فلم يكن الرجل بعيد النظر في العواقب، وإنما كان شجاعاً جسوراً يحبّ الشجعان سواء كانت لهم أحساب يحترمونها أو ليست لهم أحساب، وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقائها أم لا ، وهذا خطأ يحطّ بقدر الدولة من عظمتها[3] .

---

(١) توفي المعتصم عام ٢٢٧ هـ ٨٤٠ م واستمرت خلافته ثماني سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام، وله ثماني بنات وثماني بنين وتوفي وعمره ثمان وأربعون عاماً.
أنظر المقدسي ـ البدء والتاريخ ـ منشورات مكتبة الخياط ـ ج ٦ ص ١٢٠، وفيما تقدم أنظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك ق ٣ ـ ج ٣ ـ ص ١٣١٨.

(٢) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ القسم الثالث (ج ١٢) ص ١٣٢٧.

(٣) الخضري ـ تاريخ الأمم الإسلامية ـ ص ٢٤١ ـ أنظر كذلك شاكر مصطفى ـ في التاريخ العباسي ـ ص ٣١٠ وما بعدها.

واستمرت الخلافة العباسية بعد المعتصم، فخلفه ابنه الواثق بالله، وكانت قدم المماليك الذين اصطنعهم المعتصم قد توطّدت، وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم، ولا سيما القائد أشناس الذي اضطرّ الواثق لتتويجه وإلباسه وشاحين بالجوهر، عدا المنح المالية والهدايا العينية[1]، والمؤسف أن الواثق وافق على أن يقوم جنود المماليك بإضعاف العرب نهائياً وضرب أية قوة عربية كانت وما زالت متماسكة سواء في العراق أو في الجزيرة العربية، وهذا الأمر نجم عنه نتائج خطيرة مهدت ـ بشكل أو آخر ـ للغزو الصليبي ونجاحه في احتلال الأرض العربية، وقد حاول المتوكل الذي جاء بعد أخيه الواثق التصدي للسيطرة التركية وإعادة الخلافة العربية إلى سابق قوتها ونفوذها، وقد نجح بادىء الأمر، واستطاع أن يتخلص من القائد التركي إيتاخ، كما قرر أن ينقل مركز الخلافة من سامراء إلى دمشق ليبني هناك قوته العربية القادرة على الوقوف بوجه السلطان المملوكي، ولكن طقس الشام كما تقول بعض المصادر التاريخية لم يلائم صحته كما أن القادة الترك الذين أحسوا بما ينويه المتوكل، ضغطوا عليه وأجبروه على العودة إلى سامراء وأن يعدل نهائياً عن مشروعه، وقد كان تصرف المتوكل هذا بمثابة إنذار للمماليك الذين قرروا التخلص منه بأسرع وقت، وقد استغلّوا الجفاء الذي وقع بينه وبين ابنه وولي عهده المنتصر، والذي وصل إلى حدّ عزله من ولاية العهد، فتحلّق القادة الترك حول المنتصر وأقنعوه بضرورة إزاحة والده حتى يضمن لنفسه الخلافة، فوافق المنتصر وتولى (بغا) الصغير المعروف بالشرابي إعداد خطة لقتل المتوكل، ونفذ العملية القائد باغر التركي ومعه عشرة من المماليك؛ فدخلوا حجرة المتوكل، وانهالوا عليه بسيوفهم؛ فقتل، وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان، وكان ذلك عام ٢٤٨ هـ[2].

وبعد المتوكل خرج الأمر نهائياً من أيدي الخلفاء العباسيين العرب، وأصبح الأمر في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ في الدولة بيد المماليك وغلمانهم، ولم يبق للخليفة العباسي في بغداد من الخلافة إلا اسمها، يدعى باسمه على المنابر دون أن يكون له من الأمر أو النهي شيء، بل لم يبق له وزير يدير شؤون الدولة باسمه، وكل ما سمح له به كاتب حسابات يدير له شؤون قصره المالية وينظم حفلاته ولهوه.

---

(١) الطبري ـ تاريخ الرسل ق ٣ ج ١٢ ص ١٣٠٢.
(٢) المصدر السابق ـ ص ١٤٥٢ وما بعدها.

وتتابع مسلسل تنصيب الخليفة أو عزله وقتله إذا جأر يوماً بالشكوى، حتى ظهرت في الشرق قوة فتية جديدة هي دولة بني بويه الفارسية[1]. ورنت عين الخليفة المستكفي بالله إلى هذه القوة، ومهد أمامها السبيل للوصول إلى بغداد عام ٣٣٤هـ ٩٥٤ م، بقيادة أحمد بن بويه الذي قضى على سلطنة المماليك الأتراك، وأصبح الخليفة منذ ذلك التاريخ أسير الفرس بعد ما كان أسير الأتراك؛ فالوضع لم يتبدل بل زاد وضع الخليفة سوءاً وهواناً، ويروي ابن مسكويه قصة تنحية الخليفة المستكفي بالله الذي دعا البويهيين إلى بغداد على يد أحمد بن بويه وتنصيب ابن عمه المطيع لله مكانه بعد أن اتهمه أحمد بالتآمر عليه، ويقول ابن مسكويه: ذهب معزّ الدولة أحمد ابن بويه إلى دار الخلافة وذهب إليها سائر الناس على عادتهم؛ فلما جلس المستكفي على سريره، ووقف الناس على مراتبهم، دخل الأمير معزّ الدولة فقبل الأرض على رسمه، ثم قبل يد المستكفي ووقف بين يديه يحدثه، ثم جلس على كرسي فتقدم اثنان من الديلم (من جنود معز الدولة البويهي) ومدا أيديهما إلى المستكفي وعلا صوتها بالفارسية؛ فظن أنهما يريدان تقبيل يده، فمدها إليهما، فجذباه بها، وطرحاه على الأرض ووضعا عمامته في عنقه وجرّاه؛ فنهض معزّ الدولة، واضطرب الناس وارتفعت الزعقات، وافتتنت دار السلطان وضربت الأبواق، وساق الديلمان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معزّ الدولة حيث خلع، وسملت عيناه وأقيم مكانه المطيع خليفة[2].

وفي زمن آل بويه استفحل النظام الإقطاعي الذي سنه المماليك الترك، فلم تعد خزينة الدولة بقادرة على سدّ نفقات الخليفة والقادة المتحكمين، ولهوهم وبذخهم،

---

(١) ـ آل بويه: أسرة من بلاد الديلم أو بلاد جيلان التي تقع في الجنوب الغربي من شاطىء بحر الخزر (قزوين) ومؤسس الأسرة بويه بن فناخسرو المكنى بأبي شجاع، ادّعى أنه من نسل ملوك ساسان الفرس القدماء، ليكسب لأسرته نفوذاً بين قومه، وكان لبويه هذا ثلاثة أبناء، وكانوا يعيشون مع أبيهم على صيد السمك واحتطاب الحطب، وقد ألحق بويه أولاده في جيش الديلم، واستطاعوا بذكائهم وواسع حيلتهم أن يبرزوا ويؤسسوا دولةً كبيرةً لعبت دوراً في التاريخ العربي والفارسي. وأولاد بويه هم: علي، الملقب بعماد الدولة، كان يحكم فارس والأهواز وهو أكبر إخوته؛ ثم الحسن، ويلقب بركن الدولة، وكان يحكم الجبل والري وجرجان وطبرستان؛ والثالث هو أحمد، الذي أوكل إليه أخواه التوجه إلى بغداد وحكم العراق، وهو أصغر إخوته ولقبه الخليفة المستكفي بالله: بمعز الدولة.

(٢) ابن مسكويه ـ تجارب الأمم ص ٨٦ ـ كما ينظر فيما تقدم كتاب الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية للدكتور فاروق عمر ص ١٠٩.

لذلك لجأ الخليفة المقتدر بالله ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ إلى إقطاع المتنفذين بعض الولايات والأراضي على شرط أن يجمعوا كامل الإيراد لحسابهم الخاص ويسددوا منها نفقات الإدارة ورواتب جنود الولاية، ثم يدفعوا مبلغاً سنوياً معيناً لبلاط بغداد، وكانت هذه الهبات تسمى بالإقطاعات، نجم عنها ضعف الحكومة المركزية أولاً، وتشرذم الدولة إلى دويلاتٍ صغيرةٍ متناحرةٍ فيما بينها ثانياً، وحينما استولى بنو بويه على مقاليد الحكم في بغداد، استمروا في منح الإقطاعات العسكرية المعفاة من الضرائب، الأمر الذي زاد في عجز الخزينة العامة ونشر الخراب والإهمال في أخصب أقاليم الخلافة العربية الإسلامية، وكان هذا الأمر يتم على حساب العرب أصحاب الأرض الذين تمّ إقصاؤهم عنها بالقوة، كما تصاعدت عمليات الانفصال عن مركز الدولة الأم، وتعددت الأسر الحاكمة الغريبة، وانقلبت أرض الخلافة إلى دويلات لا تتجاوز حدودها أحياناً كثيرة مدينةً واحدةً أو عدة قرى.

وبعد مئة سنة ويزيد من تسلط آل بويه على بغداد، برزت في الشمال الشرقي من بلاد الشام قوة فتية أخرى استطاعت إثبات وجودها والتصدي بقوة إلى عنجهية الامبراطورية البيزنطية وتمريغ سمعتها في التراب.

لقد خرج السلاجقة[1] من أواسط آسيا فاعتنقوا الإسلام فاعتزّوا به واعتزّ بهم، وكانت الأمور في بغداد تسير من سيء إلى أسوأ، وكان آخر من تولى السلطنة من آل بويه أبو نصر خسرو فيروز الذي طلب من الخليفة القائم بأمر الله أن يلقبه بالملك الرحيم، ولكن الخليفة رفض ذلك بحجة أنه لا يجوز أن يلقّب أحد أياً كان بأخصّ صفات الله تعالى، ولكن السلطان البويهي أصرّ على أن يكون ذلك لقبه؛ فكان له ما

---

(١) السلاجقة: ينتسبون إلى سلجوق زعم إحدى قبائل الغز التركية، وموطنهم أواسط آسيا، وقد ظهروا في إيران في القرن العاشر، واعتنقوا الإسلام على المذهب السني، وبدأوا توسعهم في المنطقة، وسيطروا على خوارزم وإيران بعد أن قضوا على الدولة البويهية بفارس، واتخذوا أصفهان عاصمة لهم، وقد تمكّن السلاجقة زمن ألب أرسلان من فتح بلاد الكرج وأرمينيا وجزء كبير من آسيا الصغرى، واكتسحوا بلاد الشام، وهزموا البيزنطيين في معركة ملاذكرد عام ١٠٧١، وأسروا الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنس، وتجزأت دولة السلاجقة إلى دولٍ عديدةٍ في القرن الثاني عشر، منها الدولة الزنكية في الموصل وحلب ودمشق، وأمبراطورية خوارزم وسلطنة قونية في آسيا الصغرى (تركيا)، وقد اكتسح جانكيز خان التتري هذه الدولة كلها بعد انحسار الغزو المغولي، وقد ظهرت دولة قرمان في قونية، ثم بدأ بروز الأتراك العثمانيين الذين قضوا على الأمبراطورية البيزنطية وأسسوا أمبراطورية واسعة دامت حتى عام ١٩١٨.

أراد، وكانت سلطنة آل بويه ومعها الخلافة العباسية قد انحصرت في بغداد والبصرة وقسم من خوزستان، بينما انفصلت بقية البلاد عن مركز الخلافة، وكثرت الدويلات والأمراء والحكام، ووجد القائم بأمر الله أن خلاصه من استبداد آل بويه لن يكون إلاّ عن طريق السلاجقة، خصوصاً بعد أن علم أن آل بويه، وهم شيعة، قرروا مبايعة الخليفة الفاطمي المستنصر بمصر، وتنصيبه خليفة للمسلمين بدلاً من خلفاء بني العباس السنيين، وأسرع القائم بأمر الله وأرسل الرسل إلى (طغرل بك) السلجوقي مستنجداً به، فلبّى النداء وزحف بجيشه على العراق، ودخل بغداد عام ٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م، وقضى على زعماء البويهيين بمن فيهم آخر السلاطين الملك الرحيم خسرو، ولا شك أن لجوء خلفاء بني العباس إلى الاستجارة بالرمضاء من النار مبعثه خلو الساحة من قوة عربيةٍ قادرةٍ على تسلّم زمام المبادرة من المجلوبين، وإعادة الأمور إلى نصابها، فهؤلاء الخلفاء المتأخرون كانوا يحصدون ما زرعه أجدادهم الأوائل، وكنت قد ذكرت أن الخليفة الواثق بالله بن المعتصم قد أسهم في إخماد جميع القوى العربية الإسلامية في العراق والشام والجزيرة العربية على يد الجنود المماليك الذين اصطنعهم أبوه بحيث لم يكن هناك حلّ أمام الخلفاء إلا اللجوء إلى العناصر الخارجية للتخلص من استبداد عناصر خارجية، وبالنسبة للدولة الفاطمية فإن الخلاف الديني كان مستحكماً بينها وبين بغداد؛ فالفاطميون - وهم عرب كانوا على المذهب الشيعي الإسماعيلي، والعباسيون كانوا من السنة، وكان كل منهم يدّعي أنه الممثل الشرعي للمسلمين، يضاف إلى ذلك أن الدولة الفاطمية بعد وفاة المعتزّ بدين الله قد آلت هي الأخرى إلى الوهن والضعف، وتسلط الأجانب عليها[1].

---

(١) هناك نقطة تحتاج إلى تريث ومناقشة وهي أن الخليفة المعتصم بالله حينما لجأ إلى الاعتماد على الجنود المجلوبين، دفعه إلى ذلك عدم ثقته بأمته العربية، فمعظم الثورات والفتن التي قامت على الدولة العباسية كان مثيروها وقوادها عرباً، كالعلويين والأمويين والخوارج، بالإضافة إلى الطامعين في الخلافة من الأسرة العباسية نفسها.

وهذه حقيقة لا جدال فيها، ولكن السؤال: هل يبرر ذلك الوضع إقدام المعتصم أو غيره على تسليم مقدرات أمته إلى جماعات منفصلة كلياً عن الأرض والشعب اللذين كانت دولة بني عباس قائمة عليها؟؟؟ وهل خلت الأرض العربية من رجال خلّص يعتمد عليهم المعتصم كما فعل من سلفه من خلفاء بني أمية وبعض العباسيين؟؟ إن الأمم لا يمكن أن تغفر التفريط بسؤددها بل بوجودها ومستقبلها بسبب أنانية شخصية دافعها التمسك بالسلطة الزمنية مع إسقاط كرامة الأمة وديمومتها من الحساب، إن المعتصم تاريخياً =

لقد بدأ السلاجقة حكمهم بداية حسنة، حسنة بالنسبة للشعب العربي، وليست بأي حال بالنسبة للخليفة، واستطاع السلاجقة أن يقضوا على جميع الدويلات القزمة التي كانت منتشرة في ربوع العراق والشام وفارس، ويعيدوا إلى بغداد هيبتها وقوتها وسلطانها خصوصاً أيام ألب أرسلان الذي خاض معركة ملاذكرد الشهيرة عام ٤٦٤ هـ - ١٠٧١ م مع أمبراطور بيزنطة، دايوكنيس رومانوس، أو أرمانوس وفق المصادر العربية، واضعاً بهذه المعركة بداية النهاية لتلك الامبراطورية العجوز، كما كان عهد ابنه (ملكشاه) الذي تولى السلطنة بعده من أعظم عهود الدولة السلجوقية وأهمها وذلك بفضل حنكة ملكشاه، وحسن سياسته، وكذلك بفضل وزيره الخوجة حسن، الذي عرف باسم نظام الملك. ويعتبر المؤرخون العرب نظام الملك أقدر وزير ظهر في الإسلام، فقد برهن على عبقرية فذة وكفاءة كبيرة في إدارة البلاد حيث انتشر الأمن في جميع البلاد الممتدة من حدود الصين إلى الشطوط الشرقية للبحر المتوسط، ومن كورجيا شمالاً إلى بلاد اليمن جنوباً، وكان له الفضل في تأسيس المخافر ومراكز الحرس على طول الطرق التجارية، وعلى طريق الحج، كما كان محبّاً للعلم والآداب والفنون؛ فازدهرت في زمنه، واهتم كذلك ببناء المدارس والمكتبات والمستشفيات والقصور، وشقّ الطرق، وأنشأ مدرسة عالية في بغداد أسماها بالنظامية، لتدريس العلوم الفقهية والأدبية، وفي أيامه ظهرت طائفة من العلماء والأدباء والشعراء الكبار، منهم: الشاعر المشهور عمر الخيام.

ولكن حياة الاستقرار والهدوء والطمأنينة التي سادت المجتمع العربي، الذي أخذ يتنفس فيها الصعداء، ويستعيد قواه لمواصلة مسيرته الحضارية، هذه الحياة لم تدم طويلاً، إذ بعد وفاة (ملكشاه) عادت الفوضى والاضطرابات والانقسامات إلى ما كانت عليه أيام البويهيين، بل إلى أسوأ منها. وأنقل هنا ملخصاً لما حلّ بالبلاد الشامية والعراقية قبيل الغزو الصليبي، وحتى حين وصول الإفرنج واحتلالهم للأرض العربية، وذلك عن كتاب الحروب الصليبية للأستاذ رفيق التميمي... يقول المؤلف:

= يبقى مداناً لتفريطه في كرامة وكبرياء أمته بل ودينه، لأن ما حلّ بالأمة العربية بسبب فعلته غير الناضجة، انسحبت نتائجها السيئة على العالم الإسلامي قاطبة، إذ إن تشتيت المسلمين وتخلفهم إنما يرجع إلى العهود المظلمة التي حلت بالدولة العباسية على يد المغامرين الأعاجم.

لقد كان لملكشاه أربعة أولاد، هم: محمود، وبركياروق، ومحمد، وسنجر؛ فلما توفي السلطان المذكور أقرّ الخليفة المستظهر بالله ولده الرضيع محموداً على السلطنة بسعي من أمه (تركان خاتون)؛ فقام بركياروق وقاتل امرأة أبيه وجماعتها إلى أن توفي محمود وهو صغير، فقام على (بركياروق) عمه تتش، إلاّ أن بركياروق حاربه مدةً طويلةً انتهت بتغلبه على عمه تتش الذي قتل.

ولم يتمتع بركياروق بنعم السلطنة؛ فقد قام عليه بعد عمه تتش أخواه محمد وسنجر، وناصباه العداء وحارباه طويلاً، ثم صالحاه على اقتسام المملكة السلجوقية، وبعد وفاة هؤلاء الإخوة المتحاربين المتخاصمين، تبوأ عرش السلطنة السلجوقية محمود بن محمد، لكن القتال نشب أيضاً بينه وبين أخيه مسعود، ثم تغلب محمود على أخيه وصالحه وعفا عنه، ولم يكتف الأمراء السلاجقة ببذر التشويش في ديار العراق وفيما وراءها، بل نقلوها معهم إلى الديار السورية، وبذلك مهّدوا السبيل للصليبيين المهاجمين؛ فلقد قاتل حاكم سوريا تتش ابن أخيه بركياروق كما تقدم، وتقاتل بعد وفاته ولداه رضوان وتقاق مع ناصر، ثم تقاتل ناصر ورضوان مع الوزير جناح الدولة الذي تزوج أمهما وقد انضمّ إليهما ياغيسيان صاحب أنطاكية[1].

واستمر تقاتل هؤلاء حتى بعد وصول الصليبيين واحتلالهم لمدينة انطاكية، وقد تدفقت على بغداد جموع الهاربين من وجه الصليبيين القساة في شهر رمضان (٤٩٢ هـ - ١٠٩٨ م) وأخذوا يقصون على أهلها حوادث سفك الدماء وأعمال التخريب التي ارتكبها الغزاة الفرنجة ضد المسلمين وبلادهم؛ فنسي المسلمون الصيام من هول الفاجعة، وأقاموا يوم الجمعة بالجامع، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا حتى إن الخليفة المستنصر بالله لم يتمالك نفسه؛ فأرسل ثلاثة من رجال بلاطه إلى بركياروق وأخيه محمد كي يحضّهما على نبذ الخصام وتوحيد الصفوف لمحاربة الصليبيين، ولكن الحرب ظلت قائمة بينهما واستفاد منها الصليبيون، ونزلوا في البلاد الإسلامية دون أية مقاومة تذكر.

لقد انعكس هذا الوضع المتردي على الشعب العربي؛ فانكفأ على نفسه، وتقوقع في

(١) التميمي - الحروب الصليبية - ص ١٦ - وانظر كذلك ما أورده ابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - ج ٩ - ص ٧٧ وما بعدها.

مدنه وقراه، خاملاً فكرياً وحضارياً، وإنه بعد أن رأى السلطة المركزية عاجزة عن تأمين حمايته وحياته تولى هو نفسه في المدن والأحياء التي يسكنها حماية نفسه والدفاع عن حياته وممتلكاته، مشكّلاً ما عرف بنظام الأحداث، وهو تشكيل فرق من شباب المدن أو الأحياء مدربة على السلاح للتصدي لاعتداء الحكام المجلوبين على أرواح وممتلكات السكان أصحاب البلاد. وهذه القوى الصغيرة هي التي استفاد منها نور الدين ومن بعده صلاح الدين بعد أن جمعها وحشدها في جيش واحد لمحاربة الصليبيين كما سوف نرى.

وفي ختام هذا الفصل لا بد لي أن أشير إلى أن جميع من استولوا على السلطة في بغداد من أعاجم كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم دخلاء، حتى ولو اعتنقوا الدين الإسلامي وتسموا بأسماء عربية، وقد استغلّوا خلوّ الساحة من قوة عربية تتصدى لهم، كما استغلوا ضعف الخلفاء وقصر حيلتهم فصالوا وجالوا، ولكن لم يتجرأ واحد منهم مهما بلغ من القوة والسيطرة على إلغاء الخلافة العربية وتنصيب نفسه خليفة للمسلمين، لقد كان جميع أولئك المغامرين يشعرون ضمنياً أنهم دون مستوى هذا المركز، حتى إن عضد الدولة البويهي أرغم الخليفة الطائع على الزواج من ابنته، على أمل أن يكون له ولد من الخليفة يكون له الحق في الخلافة نفسها[1].

وإذا كان السلطان سليم الأول ألغى الخلافة العباسية، وتولى خلافة المسلمين، وسمى نفسه حامي الحرمين الشريفين هو ومن جاء بعده من السلاطين العثمانيين؛ فإن ذلك كان تحصيل حاصل، وقد تم بعد أن انتهت الخلافة العباسية نفسها على يد هولاكو التتري عام (٦٤١ هـ) بعد أن قتل آخر خلفاء بني العباس، وهو المستعصم بالله مع ابنيه وجميع من يلوذ به.

أما قضية إحياء الظاهر بيبرس[2] للخلافة العباسية فقد كان يشعر أن مركزه

---

(١) بدوي طبانة ـ الصاحب بن عباد ـ ص ٢٨.

(٢) الظاهر بيبرس: أشهر زعماء المماليك البحرية التي حكمت مصر والشام، كان ضمن جيش الملك الصالح نجم الدين الأيوبي وتوران شاه، برز في معركة المنصورة عام ١٢٥٨م التي انهزم فيها الصليبيون بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، كما برز في معركة عين جالوت التي كانت حاسمة مع المغول. تولى الحكم بعد مقتل الحاكم قطز، وترك آثاراً مهمة في القاهرة ودمشق، وما زال مسجده في القاهرة يحمل اسمه، وفي دمشق المكتبة الظاهرية، ومن أعماله الحربية تحرير قسم كبير من بلاد الشام من الصليبيين. توفي عام ١٢٧٧ في دمشق ودفن فيها.

وسط العالم الإسلامي والعربي مهزوزاً، فقد كان جندياً مغموراً، واستغل بعض الفرص ليرتقي إلى سدّة الزعامة، فأخذ يفتش عن خليفة عباسي يستمد شرعية حكمه منه، ووجد ضالته في شخص أسود اللون قيل له إنه من نسل بني العباس، فنصّبه في حفلٍ كبيرٍ في القاهرة، ولقّبه المنتصر بالله، ولكن هذا الشخص قتل بعد أن أرسله الظاهر على رأس جيش للسيطرة على بغداد، وفتش الظاهر بيبرس على شخص آخر فوجده في شخص اسمه أحمد، جاء بعدد من الشهود شهدوا أمام قاضي القضاة بأنه من نسل العباسيين، فنصّبه خليفة تحت اسم الحاكم بأمر الله. وقد اختلف الناس حول أصله، ورغم ذلك أصرَّ بيبرس على تنصيبه، ولنقرأ للمؤرخ أبي الفداء عن الكيفية التي برز فيها هذا الخليفة وكيف نصب:

[في، يوم الخميس في أوائل ذي الحجة من هذه السنة (أعني سنة ستين وستمائة) جلس الملك الظاهر مجلساً عاماً وأحضر شخصاً قدم إلى الديار المصرية، في سنة تسعة وخمسين وستمائة من نسل بني العباس يسمى أحمد، بعد أن أثبت نسبه بويع بالخلافة ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وقد اختلف في نسبه، فالذي مشهور عند نسابة مصر أنه أحمد بن حسن بن أبي بكر بن الأمير علي القبي بن حسن بن الراشد ابن المسترشد بن المستظهر، وأما عند الشرفاء العباسيين السلمانيين في درج نسبهم الثابت فقالوا: هو أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر أحمد ابن الإمام المسترشد الفضل ابن المستظهر][1].

وهذا يدلّ أن الخليفة المذكور حامت حول نسبه الشكوك، ولعل هذا الشك في نسبه جعل السلطان العثماني يقرّ تنصيب نفسه مكانه، يضاف إلى ذلك القوة العسكرية التي كان يتمتع بها العثمانيون آنذاك، ومع ذلك فقد أبقى العثمانيون بلاد الحجاز تحت إمرة من عرفوا بالأشراف، وكان لهؤلاء دور واحترام واسع في كل أنحاء السلطنة العثمانية، وقد قام آخر هؤلاء الأشراف وهو حسين بن علي بن عون بالتمرد على السلطنة العثمانية عام ١٩١٦ وإعلان الثورة عليها، وذلك بصفته الخليفة الحقيقي غير المتوّج للمسلمين.

---

(١) أبو الفداء ـ المختصر في أخبار البشر ـ ج ٣ ـ ص ٢١٥.

الفصل الثاني

أسباب الغزو الصليبي

يقول الكاتب الفرنسي الشهير شاتوبريان: (إن الحروب الصليبية كانت فاتحة النهاية للدين المسيحي في أوربا)، ولكن إذا أردنا التحديد فالحروب الصليبية لم تكن نهاية للدين المسيحي بل كانت بداية النهاية لسيطرة البابوية والكنيسة عموماً على مقدرات أشياع الدين المسيحي سياسياً واجتماعياً؛ فقد تمخضت هذه الحروب عن شق الأوربيين عصا الطاعة على رجال الكهنوت البابوي والكنسي عموماً، واستخفّوا بكلّ المفاهيم التي عملت الكنيسة على ترسيخها في نفوس المسيحيين الأوربيين منذ القرن الرابع ميلادي، ولا شك أن هذا الانقلاب الفكري والاجتماعي الذي حدث في أوربا كان نتيجة احتكاك الأوربيين بالعالم الإسلامي العربي؛ وتأثرهم بمبادىء المساواة والحرية التي ينادي بها الإسلام، كذلك اندهاشهم بالمستوى الفكري والحضاري الذي كان عليه العرب المسلمون في ذلك الوقت، ونحن لا نجافي الحقيقة عندما نقول بأن إشعاع المبادىء الإسلامية والتحضر العربي الإسلامي كان من أهم العوامل التي حركت البابا غريغوري السابع ثم البابا إربان الثاني، للتفكير ثم للإعداد للحرب الصليبية حيث توخيا منها إنهاء الدين الإسلامي بكلّ ما يحمله من تعاليم سماويةٍ منطقيةٍ في علاقة الإنسان بخالقه، ومن مبادىء إنسانية في الحياة والمجتمع الدنيويين، كذلك تحطيم الحضارة العربية الإسلامية بكلٍّ ما فيها من فكرٍ عبقري نيِّر وأسس علمية، لأن هذه التعاليم وهذه الحضارة كانت بالنسبة لمطامح البابوية العدو الحقيقي؛ فحجر الأساس في استمرار الهيمنة البابوية على أتباعهم كان يكمن في بقاء أولئك الأتباع جهلاء مطبقي التفكير، خصوصاً وأن رياح النور الإسلامي والفكر العربي قد بدأت تتسلل إلى أوربا عن طريق المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، والتاريخ الأوربي يحكي قصص المجازر المروعة التي اقترفتها البابوية

والكنيسة بسكان مدن وقرى الجنوب الفرنسي عام ١٢٢٦م، وذنب هؤلاء السكان أنهم حاولوا أن يديروا بلادهم وفق أسلوب جديد يحاكي الأساليب الجاري بها العمل في قرطبة وغرناطة، وأنهم استطاعوا مثلاً أن ينظموا أساليب الفلاحة والري وفق أحدث السبل التي تفتقت عليها العبقرية العربية، وزراعة نبتات وحبوب جلبت من الشرق، كما أن الصناعات في الجنوب الفرنسي قد اتسع نطاقها بفضل معلمين استدعاهم الفرنسيون من عرب الأندلس وصقلية، بحيث يخيل للمرء - كما يقول أحمد رضا - كأنما فرنسا الجنوبية تسكنها أمة مستقلة عن شمالها.

لقد حركت الكنيسة الدهماء من الشمال الفرنسي، فهاجموا سكان الجنوب من نهر الغارون إلى سواحل البحر المتوسط، وذبحوا الآلاف منهم ودمروا مزارعهم ومصانعهم، وأشعلوا النار في كل مدنهم وقراهم، وكان الراهب (سيتو) أحد قادة أولئك الدهماء يصيح بأعلى صوته: اقتلوهم، اقتلوهم عن آخرهم، والله يصطفي أولياءه[1] وكذلك قصة الجزرة الأخرى التي دبرت ضد الدوايين أو فرسان الهيكل، الذين كانوا من غلاة المتعصبين للدين المسيحي فبعد احتكاكهم بالمسلمين تغيرت مفاهيمهم ونظرتهم للحياة، فاتهموا بالزندقة والكفر، فسيق ستون واحداً منهم إلى ساحة في مدينة باريس، وتم حرقهم أحياء بمباركة الكنيسة وتدبيرها.

غير أن الحروب الصليبية خيبت آمال مثيريها وأهدافهم، فقد فرض الإسلام تعاليمه، وفرض العرب حضارتهم، ولعل الصيحة التي أطلقها ملك فرنسا فيليب الجميل (١٢٦٨ - ١٣١٤م) بعد أن ضاق ذرعاً بتدخلات بابا روما «بونفيس الثامن» في شؤون البلاد الفرنسية (ما أسعدك يا صلاح الدين! فلا بابا فوقك ينغص عليك حياتك! فياليتني كنت مسلماً مثلك!)[2] هذه الصيحة، وكذلك ما قام به هذا الملك نفسه من اعتقال البابا ورفض الهيمنة الكنسية على حكمه، تعتبر من بواكير تأثير الفكر الإسلامي في النفوس الأوربية.

وأخلص من هذه المقدمة لأقول بأن مبادىء الحرية الدينية والسياسية والاجتماعية التي أفرزها الدين الإسلامي تعتبر - موضوعياً - من الأسباب المهمة

---

(١) أنظر كتاب (الخيبة الأدبية) تأليف: أحمد رضا، ص ١٠٦ من الترجمة العربية في تونس.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣.

التي أشعلت نار الحروب الصليبية، وقد تعمدت أن أبدأ هذا الفصل بعرض هذا السبب والتركيز عليه بعد أن أغفله مؤرخو الحروب الصليبية... ولنبدأ الآن قصة الحروب الصليبية من أولها:

في أواخر الألف الأولى من الميلاد عمّ المسيحيين في أوربا اعتقاد بأن يوم القيامة سيحل في آخر يوم من عام ٩٩٩م، وسيتدمر العالم عن آخره، وقد تولت البابوية ورجال الكنيسة تأكيدهم لهذا الاعتقاد لدى العامة، الذين اندفعوا للصلاة والعبادة والتبرع بأموالهم وأملاكهم للكرسي البابوي والكنسي تقرُّباً من الله، وتزايدت بسبب ذلك ثروة البابا ورجال الدين تزايداً هائلاً[1] وقد فكر سلفستر الثاني الذي كان على الكرسي البابوي آنذاك في استغلال هذا الورع الديني المفاجيء، الذي حل بالمسيحيين الأوربيين، بتنظيم حملات صليبية ضد المسلمين في الأندلس وفي بلاد الشام، وقد أجرى بالفعل مشاورات مع ملوك وقادة أوربا ولكن أحداً من هؤلاء لم يوافقه، خصوصاً وأن الدولة الإسلامية في الأندلس كانت ما زالت قوية منيعة، فعلى رأسها الحاجب المنصور الذي تولى حكم الأندلس عام ٩٨١م، واستطاع بقوته وجرأته جعل أمراء أوربا يفكرون ملياً قبل الدخول معه أو مع المسلمين عموماً في مغامرة حربية.

وبقيت فكرة سلفستر الثاني مجرد حلم يراود مخيلة الكرسي البابوي حتى عام ١٠٧٣م حين وصل إلى البابوية الكاردينال «هيلد براند» الذي اتخذ اسم «البابا غريغوري السابع» ويعتبر هذا البابا المهندس الفعلي والمخطط للحروب الصليبية، بعد أن استجدَّ أمران دفعاه لأن يتبنى بحماس الدعوة لحرب المسلمين؛ الأول: بوادر ضعف الدولة العربية في الأندلس حيث وقعت البلاد بعد وفاة المنصور عام ١٠٠٢م في دوّامة المنازعات والخصومات، وقد شجع هذا الوضع الأمراء الأوربيين على مهاجمة المسلمين واستخلاص المدن الأندلسية منهم.

---

(١) لقد استفادت الكنيسة من فكرة ترويج تدمير العالم من جهتين الأولى حين جمعت بين يديها جميع أموال وأملاك التعساء الأوربيين والثانية حين استطاعت إقناع العامة بعد أن حل اليوم الموعود ولم يدمر العالم بأن الرب استجاب لأدعيتها وأدعية رهبانها، ولتدخل البابا الشخصي لدى السماء، حيث ازدادت الكنيسة منزلة ورهبة عند الدهماء.
أنظر أحمد رضا - الخيبة الأدبية - ص ٦٨.

الأمر الثاني وصول النرمانديين إلى البلاد الإيطالية بقيادة روبرت جيسكارد، وانتزاعهم حكم الجنوب الإيطالي من البيزنطيين، وصقلية من العرب، وقد وجد غريغوري السابع في هذا السيل من المتوحشين القتلة ـ وهو نفسه ذاق الأمرَّين من وحشيتهم ـ فرصة ذهبية لتوجيههم شطر المشرق الإسلامي، مروراً ببيزنطة التي كانت تناصبه العداء، وتدين بمذهب مخالف، وبذلك يستطيع تحقيق حلمه الكبير في جعل العالم المسيحي تحت إمرته وسيطرته، ولكن نزاعه مع الامبراطور الألماني هنري الرابع[1] حال دون ذلك، وقد مات عام ١٠٨٧ م تاركاً تنفيذ الحرب الصليبية إلى البابا إربان الثاني.

لقد وصل أربان الثاني إلى البابوية عام ١٠٨٨ م، والدارس للكيفية التي وصل بها هذا الكاهن للكرسي البابوي يلمس الأسلوب الانتهازي الماكر الذي اتبعه لتحقيق طموحه؛ فقد ولد (أودو لاجير) وهذا اسمه الحقيقي عام ١٠٤٣م في شاتيون سيرمان في البلاد الفرنسية من أسرة إقطاعية، وقد تلقى تعليمه الديني في المدرسة الكاتدرائية في ريمس، وكانت لنجابته وقوة شخصيته عاملاً في تعيينه بعد تخرجه رئيساً لشمامسة كاتدرائية ريمس، ولكن ذلك لم يرض طموحه، فانتقل إلى دير كلوني حيث تولى في هذا الدير الكبير مركزاً سامياً هيأه بعد حين ليصبح مندوب القساوسة الفرنسيين في الفاتيكان، وقد ترك ذكاؤه وقوة شخصيته في نفس البابا غريغوري أثراً طيباً، فاختاره ليكون مندوبه في فرنسا وإيطاليا، وقد تعرض وهو في ألمانيا للسجن من قبل هنري الرابع ليعود إلى روما بعد ثلاث سنوات ويصبح مساعد البابا الأول. وبعد وفاة غريغوري انتخب البابا فيكتور الثالث خلفاً له، ولكن ذلك لم يرض «أودو» الذي أعلن عن عدم اعترافه بالبابا الجديد، ولم يطل العمر بفيكتور ليجد (الكرادلة) أنفسهم أمام شخصية «أودو» الطموحة فانتخبوه باسم إربان الثاني.

---

(١) ـ سبب الخلاف بينه وبين هنري الرابع يكمن في أن غريغوري رفض الانصياع لأباطرة ألمانيا كما كان عليه الحال في السابق، في الوقت الذي أصر هنري على ممارسة سلطته على البابوية، وقد أسفر هذا الخلاف عن لجوء غريغوري إلى صقلية بعد أن عزله هنري وعين مكانه في روما بابا آخر، يعرف في التاريخ باسم جيلبرت المغتصب، غير أن غريغوري احتفظ بنفوذه على المسيحيين وهو في منفاه، واعتبروه البابا الشرعي.

ودخل إربان في صراع متعدد الجوانب، أولاً مع الرهبان المنافسين له والمعارضين لتوليته الكرسي البابوي، وقد استطاع إخماد أصواتهم واحداً إثر الآخر، ثم صراعه مع الأمبراطور الألماني هنري الرابع، وتمكن شيئاً فشيئاً من توطيد مركزه حتى استطاع طرد البابا جيلبرت المغتصب والعودة إلى روما من منفاه صقلية... وخلال السنوات التي سبقت ذلك، استولى على حكم بيزنطة مغامر جريء عرف باسم الامبراطور ألكسيوس، وقد كانت بيزنطة مهددة من قبل النورمنديين في الغرب والسلاجقة من الشرق، وحاول ألكسيوس حين تولى الحكم عام ١٠٨١م استرضاء البابا غريغوري السابع طالباً منه فتح صفحة جديدة بين بيزنطة وروما وأن يكفيه شرّ قائد النورمنديين روبرت جيسكارد، إلا أن غريغوري رفض نداء ألكسيوس مؤكداً قطع جميع أباطرة بيزنطة عن الكنيسة البابوية على اعتبار أنهم هراطقة منحرفون.

ولكن بوصول إربان إلى حكم العالم المسيحي الكاثوليكي تغيَّر الوضع، كما أن جيسكارد كان قد مات وتولى أخوه روجر حكم صقلية بعده، وفي عام ١٠٨٩ م أعلن إربان رفع قرار الحرمان عن ألكسيوس ودعاه لتصفية الخلافات بين الكنيستين، واستغلّ الامبراطور البيزنطي هذا الوضع ليدعو إربان الثاني لنصرته على السلاجقة المسلمين وتحرير آسيا الصغرى وبلاد الشام منهم، وهذا الطلب البيزنطي رسم في مخيلة إربان، الذي كان نجمه في القارة الأوربية يتصاعد باطّراد، صورة العالم المسيحي الواحد الذي سيصبح تحت قيادته ورئاسته في أوربا وآسيا الصغرى وبلاد الشام.

وفي عام ١٠٩٥م قرر إربان التحرّك في هذا الاتجاه، اتجاه جعل العالم المسيحي في قبضته، فدعا لعقد مؤتمر ديني كبير في مدينة كليرمونت في فرنسا، ووسط جمع كبير ضمّ كبار رجال الكنيسة والأمراء والإقطاعيين الأوربيين صعد إربان المنصة في دير كليرمونت وألقى خطابه المشهور الذي دعا فيه المسيحيين الأوربيين لإشهار الحرب الصليبية على الكفرة، والانتصار لإخوانهم مسيحيي المشرق وتحرير بيت المقدس من المسلمين وإعادته لحظيرة المسيحية.

وقد نُقل نصّ هذا الخطاب، تاريخياً عن طريق الرواية، فليس هناك وثيقة مكتوبة بالنصّ الحرفي له، ويذكر المؤرخ رنسيمان أن أربعة مؤرخين معاصرين أوردوا

فقرات من الخطاب، وزعم أحدهم وهو روبرت الراهب بأنه شهد هذا الاجتماع. ومما أورده هؤلاء المؤرخون نقلاً عن إربان قوله: (إن الترك المسلمين وصلوا في زحفهم إلى جوف البلاد المسيحية، وأخذوا يسيئون معاملة السكان ويدمّرون مشاهدهم وأضرحتهم).

وفي أسلوب درامي عاطفي وصف إربان ما يعانيه الحجاج أثناء سفرهم من العذاب والمتاعب على يد العرب المسلمين، وقد أنهى خطابه بتوجيه نداء لمسيحي أوربا بأن ينطلقوا لنجدة الشرق، وأن يسير الأغنياء والفقراء سواء بسواء، وأن يكفوا عن قتل أحدهم الآخر، ويباشروا عوضاً عن ذاك قتال الحق فيؤدون ما أمر الله به أن يعمل[1]. ومن يلقى مصرعه في المعركة يتحلل من ذنوبه، وغفر الله أخطاءه، وإن الحياة في أوربا أصبحت تعسة، كثيرة الشرور بعد أن أضنى الناس أنفسهم في تدمير أجسادهم وأرواحهم، واستبدّ بهم الفقر والبؤس، وسوف ينعمون هناك بالرخاء، ويكونون أصدقاء أوفياء لله، فلا ينبغي التمهل والإرجاء فليستعد كل مسيحي للسير عند حلول الصيف[2]، وليكن الله هاديه[3]، وما إن أنهى إربان خطابه الذي صاغه ببراعة ودهاء، حتى جاءت الاستجابة، كما توقعها سريعة وقوية وحارة، وانطلقت جموع الحاضرين في هتاف واحد... هكذا أراد الله... هكذا أراد

(١) ـ إشارة البابا هذه مصدرها أن فقدان الأمن في أوربا كان من مظاهر ذلك العصر وقد كثر الاقتتال وشنّ الحروب بين الإمارات والمقاطعات الأوربية، لأتفه الأسباب، خاصة بعد الاجتياح النورماني. والطريف أنه في عام ١٠٣٨م قرر الراهب إيمون رئيس أساقفة بورج تنظيم ما سماه بجيش السلام، ودعا كل مسيحي يزيد عمره عن خمسة عشر سنه للانخراط في هذا الجيش، وأن يعتبر نفسه عدواً لكل من ينتهك حرمة السلام، وقد دغدغت هذه الدعوة نفوس العديد من رجال الدين الصغار، ودفعوا بمئات من الفلاحين للانضواء تحت علم هذا الجيش، على اعتبار أن السلام كان دعوة السيد المسيح الأولى، وقد اختلف قادة جيش السلام عدا في كيفية نشر رسالتهم، فلم يجدوا غير إشهار الحرب على كل من لم يدخل في جيشهم؛ فأخذوا يهاجمون القلاع والمزارع والقرى ويدمرون كل ما يصادفونه ويذبحون ويقتلون كل من يصادفهم، ولم يمض زمن طويل حتى أضحى جيش السلام ينشر الرعب والفزع في كل مكان يحطّ فيه، مما اضطرّ الآخرين لوضع حدّ لهذا الخطر المدمّر، وتولى كونت ديوليز قيادة جيش التقى به مع دعاة السلام على ضفاف نهر (شير) ودارت الدائرة على رجال السلام، وقتل ـ كما يروي رنسيمان ـ من رجال الدين فقط أكثر من سبعمائة كاهن عدا المئات من الفلاحين والدهماء الآخرين.

(٢) ـ عقد المجمع الديني المذكور في ٢٨/نوفمبر عام ١٠٩٥ م.

(٣) رنسيمان ـ الحروب الصليبية ـ ج ١ ـ ص ١٦١ وما بعدها ـ أنظر كذلك في كل ما تقدم ـ باركر ـ الحروب الصليبية ـ ص ١٩ وما بعدها ـ وهامرتن تاريخ العالم ـ ج ٤ ـ ص ٧٤٠ وما بعدها.

الله، وأخذ الخطباء يتداولون على منصة الخطابة، ثم يتقدمون من البابا يطلبون منه الإذن بالالتحاق في الحملة الصليبية.

ولا نعتقد مطلقاً أن إعلان إربان الحرب المقدسة قد جاء ـ كما زعم المؤرخون الأوربيون إثر فورة دينية عاطفية محضة؛ فالقرار اتخذه إربان بعد دراسة مطولة عميقة وضع فيها حسابات الربح والخسارة ـ حتى اختياره مدينة كلير مونت لإشهار إعلانه كان مقصوداً ومتعمداً؛ ففرنسا هي بلده، وقد كان حماس الفرنسيين كبيراً حين تمّ اختياره ليكون راعي المسيحية الكاثوليكية، الأمر الذي اعتبر شرفاً لفرنسا عموماً. إن البابا إربان الثاني أراد أن يسير بمخطط غريغوري إلى نهايته؛ فيمد سلطانه البابوي على سائر أوربا والمشرق، وليست إشارته لبيت المقدس وتصوير عذاب واضطهاد المسيحيين في المشرق الإسلامي إلا ورقة عرف أنها رابحة في لعبته الذكية مع دهماء أوربا، بل إن عدداً من المؤرخين يرون أن الحرب الصليبية كان المقصود بها بالدرجة الأولى مسيحيي المشرق وليس مسلميه، لأن هؤلاء المسيحيين رفضوا بكل قوة الانصياع إلى بابوية روما عدا عن كونهم أكثر حضارة وعلماً من جهلاء روما وغيرها من مدن أوربا الغربية، لقد لعب إربان لعبته الذكية ليحقق من ورائها العديد من المكاسب والأهداف التي تعرضنا إليها.

وإذا كانت هذه الأسباب هي التي دفعت بإربان لإعلان الحرب على المسلمين، فما هي دوافع الآخرين الذين أيدوه وساروا معه من الزعماء والأمراء ثم الدهماء والفقراء؟.

الحجاج المسيحيون لبيت المقدس:

يعتبر الحج المسيحي لبيت المقدس من الطقوس المستحدثة؛ فليس في صلب الدين المسيحي ما ينصّ على وجوب الحج على المسيحيين، لذلك فإن مسألة حج الأوربيين إلى الديار المقدسة في فلسطين كان مبعثه خليطاً من ارتباط تاريخي فيما يتعلق بحياة السيد المسيح والمكان الذي بعث فيه مع ارتباط روحاني في قدسية هذه المناطق، خصوصاً بعد انتشار الكتب الدينية التي أخذت تفيض في وصف السيد المسيح وولادته وأقواله، ثم اضطهاده وصلبه، كلّ ذلك خلق حالة تشوق لدى

المسيحيين لزيارة فلسطين التي شهدت بزوغ فجر المسيحية الأول، ويوماً بعد يوم أخذت وفود الحجاج الأوربيين تتزايد، وربما تعثر وصول الحجاج في بداية الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام ـ ولكن من المؤكد كما يقول رنسيان أن عهد الحج الكبير قد بدأ في القرن العاشر الميلادي[1]، أي بعد البعثة المحمدية بثلاثة قرون، وكان الحجاج المسيحيون الأوربيون يتبعون في سيرهم باتجاه بيت المقدس طريقاً بحرياً يبدأ من المدن الساحلية الإيطالية إلى طرابلس فالإسكندرية ففلسطين، وطريقاً برياً عبر بيزنطة وآسيا الصغرى، ووفق ما تشير المصادر التاريخية القديمة فإن الحجاج كانوا يلقون ترحيباً جيداً من السلطات الإسلامية سواء أيام العباسيين أو الأخشيديين أو الفاطميين، فالحجاج كانوا أحد الوسائل المنشطة للحركة الاقتصادية في البلاد العربية بما يجلبونه معهم من أموال وبما يرجعون به من هدايا وسلع شرقية، كما أسهمت روح التسامح الديني عند المسلمين في المحافظة عليهم، وتأمين سلامتهم، وقد ظل الأمر كذلك حتى الربع الأخير من القرن الحادي عشر حين أخذ سلاطين آل سلجوق في حكم البلاد الشامية، وتفشى الاقتتال بين أمرائهم، فبدأ الحجاج المسيحيون يعانون من صعوبات فقدان الأمن وعدم وجود الدولة الحازمة، فكثرت شكواهم وكثر تذمرهم، وحين أطلق إربان الثاني دعوته لتخليص بيت المقدس من المسلمين وجد عند هؤلاء الحجاج كل تأييد ومساندة[2].

---

(١) رنسيان ـ الحروب الصليبية ـ ج ١ ـ ص ٢٠ و٧٧.

(٢) يؤكد الكاتب أحمد رضا أن ما يسمى بالمصاعب التي يلاقيها الحجاج المسيحيون في ديار المسلمين ما هو إلا مجرد فرية اختلقتها الكنيسة البابوية لايغار قلوب المسيحيين على المسلمين والتمهيد للحروب الصليبية، ويذكر أحمد رضا أن زوار المقدس من المسيحيين بعد أن كانوا يقتصرون عند عودتهم إلى أوطانهم على نقل الحوادث ببساطة خالية من الأغراض، إذا بهم أصبحوا بجأة لا يقصُّون إلا القصص المهيجة لحفائظ الناس حتى تتمكن من النفوس ملامح الانتقام، فكان في تقدير رجال الكنيسة بأنه لا وسيلة أنجع لإثارة لواعج التعصب المسيحي إلا من ذكر المآسي والعذاب الذي يلاقيه زوار بيت القدس من السلاجقة، وكان الرواة لا ينقلون إلا أنين المسيحيين مع وابل من الشتائم والسباب، ويضيف أحمد رضا بأنه من الممكن أن الأوربيين في القرن العاشر لحقهم بعض الصعوبات والأذى خلال أسفارهم لزيارة بيت المقدس، لكن أي عجب في حين كان الأوربي لا يستطيع التنقل في نفس بلاده دون أن تحفه الأخطار، ثم إذا كان الولاة العرب المسلمون قد أقاموا في فترة ما، العراقيل في وجه زوار المقدس، فلا شك أن عملهم هذا كان بدافع صيانة الأمن، وليس مبنياً على منزع تعصب ديني، وكان المسلمون يرون تشديد المراقبة على الأجانب منذ أن ناصبتهم مدينة بيزة الإيطالية، بإيعاز من البابا سلفستر الثاني، العداء، وهاجمت شواطىء سوريا، علاوه على ذلك فإن الزوار الذين يربو عددهم أحياناً على السبعة آلاف يغدون مسلحين في الغالب، وفي ←

الأناشيد الحماسية الدينية:

على أثر الفتح العربي لأسبانيا وانهزام المسيحية الأوربية أمام الجيش العربي الاسلامي، تعددت الأشعار والأناشيد التي تفيض كراهية وحقداً على العرب المسلمين، وكانت أشهرها أنشودة رولان التي انتشرت في أوربا وأصبحت الأنشودة المفضلة للجنود النورمان، وقد اختلف مؤرخو الغرب في اسم واضعها وكذلك في أسباب تأليفها ومنهم من يؤكد أن رولان هو شخصية حقيقية وأنه ابن أخ ملك فرنسا شارلمان كان يترأس مجموعة في جيش عمه في غزوة على بعض المواقع الاسلامية في الأندلس انتصر فيها شارلمان، وحين كان الجيش عائداً هاجم مؤخرته، التي كان يقودها رولان، كمين عربي، أسفر عن مقتل جميع الجنود بما فيهم رولان هذا، وقد وردت هذه الحادثة في تاريخ شارلمان الرسمي، وقيل أن ذكراها الأليمة كانت ترين على قلب الملك فتمحو منه عوالم السرور التي نجمت عن ظفره في ميادين القتال في اسبانيا.

وللمؤرخ الانكليزي فيشر رأي آخر في قصة أنشودة رولان فيقول في سياق حديثه عن جنود النورمان (ان النورمان قد شغفوا بالاستماع الى الراوي وهو يغني ويرنم الأشعار التي خيلت مصرع البطل شارلمان على يد المسلمين في وقعة تاريخية لم يشهدها لا شارلمان ولا المسلمين[1] وسواء كانت قصة رولان مجرد أسطورة أو حقيقة وقعت، فإن تأثير هذه الأنشودة كان بالغاً في تنمية روح الحقد والضغينة على العرب المسلمين وقد ترجمت الى سائر اللغات الأوربيـة، ودفع نجاح هذه الأنشودة وانتشارها بين صفوف الأوربيين، الكنيسة البابوية على تأليف المزيد من الأناشيد على غرارها ونشير الى أنشودة (حج رولان) التي وضعت بمعرفة الكنيسة وحملت في كلماتها حث

= حالة خلط من ألماني وإنجليزي ونورماني ويوناني، وكانت المعارك تنشب بينهم، ويعكرون صفو الأمن في البلاد مما يضطر السلطات الإسلامية للتدخل، ويرى أحمد رضا أن ما استلفت أنظار البابا هو أن رهبان بيت المقدس كانوا ينظرون لوفود الحجاج بأنهم مصدر ثروة طائلة لهم، فإن هؤلاء الرهبان كانوا يبيعون بأثمان باهظة للحجاج بعض أمتعة السيد المسيح وحوارييه أو ما يزعمون أنها أمتعتهم، وهي تجارة رابحة، الأمر الذي جعل لعاب البابا يسيل بغزارة، وتطلع لأن تكون هذه الثروة الطائلة تحت إدارته. راجع ما كتبه أحمد رضا في هذا الخصوص في كتابه (الحبسة الأدبية) ص (٧٤) وما بعدها.

(١) فيشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى. ج ١. ص١٢٧.

المسيحيين على قتال المسلمين وطردهم من بيت المقدس، وقام القساوسة بنشرها بين سائر طبقات المجتمع الأوربي قبيل الحروب الصليبية.

بطرس الناسك:

في خضم الإعداد للحملة الصليبية وفي فورة الحماس خرج من بين صفوف الأوربيين من الشمال الفرنسي شخصية غريبة كانت من أقوى الشخصيات التاريخية التي لعبت دوراً في إلهاب حماس الناس لقتال المسلمين، وهذه الشخصية هي التي عرفت باسم بطرس الناسك، وقد اختلف المؤرخون في الكشف عن هوية هذا الرجل حتى الآن بصورة جلية، والذي عرف عنه أنه من مواليد مدينة اميان في شمال فرنسا واسمه الحقيقي (كوكو بيتر) وكان قميئاً قصير القامة، قبيح الوجه بينه وبين النظافة عداوة مقيمة، ولعل مواهبه هذه هي التي دفعت زوجته للتمرد عليه والارتماء في أحضان الآخرين، الأمر الذي أحدث شرخاً عميقاً في نفسه؛ فترك زوجته وأولاده، وهام على وجهه في فيافي فرنسا، وانقطع للزهد والتعبد فبلغته دعوة إربان الثاني لحرب المسلمين، فتطوع تلقائياً للدعوة لهذه الحملة، فأخذ يجوب على حمارته العرجاء مدن وقرى أوربا ويخطب في الناس حاضّاً إياهم على الحرب المقدسة، وكان بطرس يقابل بحماسةٍ شديدةٍ من قبل الفلاحين، ويمنحونه الهدايا المختلفة، وكان من المهارة والذكاء أن أخذ يوزِّع هذه الهدايا على جماهير الجياع والمحتاجين؛ فازدادت شعبيته وارتفع مقامه بين الناس حتى أصبحت حمارته كما يقول رنسيمان ـ لا تقلّ قدسية ومكانة عنه، وكان الناس ينهالون على هذه الحمارة المسكينة ليستلوا شعراً من جلدها بعد أن بات في يقينهم أن شعرة واحدة منها كفيلة بفتح أبواب الجنة على مصراعيها أمام من يستحوذ عليها. وكان بطرس أثناء تنقلاته يرتدي قميصاً من الصوف الخشن يتدلى إلى ساقيه وهو حافي القدمين مكشوف الرأس، وامتاز بقدرته على الخطابة بصوته الحاد المؤثر وبعينيه البراقتين اللتين يشع منهما نظرات خاطفة تلقي الرهبة والخشية في نفوس البسطاء السذج، مع همة قعساء في الحل والترحال، ويروي المؤرخ الفرنسي (فونك برنتانو) أن بطرس كان لا يتغذى إلا بالنبيذ والخبز، وبفضل خطبه الحماسية وتنقلاته المتواصلة كان الناس يبيعون ممتلكاتهم ومزارعهم بأرخص الأثمان

وينضمون إليه، وقد أخذ جيشه من الفقراء والجياع يتعاظم متجهاً بهم إلى الشرق عن طريق بلغاريا وبيزنطة[1].

أحلام الفقراء وأطماع الأمراء

يعتبر العامل الاقتصادي من العوامل الرئيسة والأولية المهمة لتحريك آلاف الأوربيين الغربيين، وزجّهم في حرب المسلمين، بالرغم أن العديد من المؤرخين الغربيين يقلّلون من أهمية هذا العامل ويصنفونه كعامل ثانوي مساعد، ولتتّضح الصورة سأحاول باختصار عرض الأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة في أوربا الغربية وقت التمهيد للحرب الصليبية.

لقد تميزت السنوات التي تلت القرن الثامن ميلادي بانتشار نظام الإقطاع في أوربا الغربية، بعد أن ضعفت سلطة الدولة المركزية إثر انهيار إمبراطورية شارلمان، وانثيال البدائيين من الشمال الأوربي نحو الوسط والجنوب، فغدت الأرض الأوربية الغربية كرقعة الشطرنج مقسمة إلى مربعات ومستطيلات وأشباه منحرف، لا تتجاوز مساحة الواحدة الكبيرة منها بضعة هيكتارات مربعة، وتنحدر حتى تصل إلى أقل من عشرة هكتارات، وتحولت كل إقطاعية إلى دولة قائمة بذاتها، يقف على رأسها السيد الإقطاعي الذي يمتلك بين يديه جميع السلطات وممارستها على أرضه ومن عليها، فبيده حق فرض الضرائب واختصاصات الولاية والقضاء والإدارة المحلية، وتختلف النظم بين إقطاعية وأخرى خصوصاً في النقود المتداولة والمكايل والعقوبات وغيرها[2].

ويقرر الأستاذ كوبلاند أن سنوات القرنين التاسع والعاشر الميلادي هي من

---

(١) ـ الغريب أن بعض المؤرخين المحدثين يوغل في التحذلق وتشويه معاني العبارات حين يصف الحملة التي قادها بطرس الناسك بالحملة الشعبية، لقد ضمت هذه الحملة الجياع والمذنبين والسذج من الناس، وكانت بلا قيادة ولا نظام، تنقلب إلى جراد في كل مكان تحلّ فيه نهباً وسلباً وقتلاً، أنظر ويلز في موجز تاريخ العالم حيث يصف حملة بطرس بأنها حمله شعبية وأنها حركة شعبية، ص (٢٢٢).

(٢) أنظر الدراسة القيمة التي كتبها «ج. و. كوبلاند» تحت عنوان: «القنبّة والإقطاعية» في كتاب تاريخ العالم المجلد الخامس. والأستاذ كوبلاند متخصص في تاريخ العصور الوسطى وأستاذ لها في جامعة ليفربول بإنجلترا.

أشد العصور ظلاماً في تاريخ غرب أوربا، إذ هي أكثر ظلمة مما سبقتها من أيام الإغارات الجرمانية الكبرى، التي عملت على هدم الدولة الرومانية، كما زاد في ظلمتها وختم عليها كذلك أن ليس لدينا من مصادرها كاتب معاصر نستشفّ من كتابته شيئاً مما وقع تحت سمعه وبصره[1].

وتقوم الحياة في الإقطاعية على فلاحة الأرض وزراعتها، يؤديها مجموعة من الأقنان والفلاحين البؤساء، ارتبطوا بقطعة الأرض التي يخصصها لهم السيد والتي مساحتها، في أحوال كثيرة، نصف فدان فقط، دون أن يملكوا الحرية في الانتقال عنها. ويذكر كوبلاند أنه يحظر على القن أن يتزوج من خارج إقطاعيته إلاّ بإذن سيده، كما عليه أن يؤدي واجبات تبعيّته بالخدمة في أرض المتبوع، وتقديم جزء من غلته له، وإذا تزوج أو جاءه مولود أو مات له ميت فعليه أن يدفع مبالغ معينة لسيده رمزاً لتبعيته، كما ظل يشرى ويباع ويبدل بغيره حسبما يشاء السيد، ويضيف كوبلاند انه إذا ذكرنا أن القن كان لا يسمح له ترك أرضه فإن من المعروف كذلك أن القن لم يكن يرغب هو نفسه في ترك الأرض لأنها المورد الوحيد لعيشه كما يذكر كوبلاند أيضاً أن العلاقة بين القن وسيده ذات شقين تبعية اقتصادية وعبودية شخصية[2].

أما البارون أو السيد فقد كان يعيش في قصره، الذي كان يشكل مركز دولته، يمارس فيه صلاحياته على أرضه وعبيده، كما ظل يعيش على السلب والنهب[3]. ويؤكد كوبلاند بأنه لم تتوفر في الإقطاعية سبل الحياة الكريمة بل كان الفقر المالي، فضلاً عن الفقر العلمي، هو المميز للحياة هناك. مما جعل المجتمع الإقطاعي عرضة لنكبات وويلات تنزل به بين الحين والآخر[4].

وهكذا كانت الحالة الاجتماعية والاقتصادية في أوربا إبان التمهيد للحرب الصليبية شبه كاملة من الدمار، وإذا ما اضفنا إلى كل ذلك ما نجم عن زحف

---

(١) المصدر السابق ص ٨.
(٢) المصدر السابق ص ١٥.
(٣) المصدر السابق ص ١٤.
(٤) المصدر السابق ص ١١ و ١٢.

سكان الشمال الأوربي البدائيين على أوربا الغربية، من انتشار الفوضى والتخريب، وازدياد بؤس الفلاحين الأوربيين، وما إن أخذ السكان الأصليون ينجحون رويداً رويداً في ترويض وتدجين الشماليين لتعود الحياة إلى مجراها الطبيعي حتى داهمتهم الطبيعة عام ١٠٩٥م، عام الدعوة للحرب، بكميات هائلة من الأمطار، جرفت مزارعهم وأتلفت أرزاقهم وخربت بيوتهم، وكونت مستنقعات آسنة عملت على نشر الملاريا والطاعون في أوربا، فمات مئات الآلاف من الناس جوعاً ومرضاً، ومن تبقى على قيد الحياة من الأقنان والفلاحين عاش جائعاً عارياً.. وليس غريباً والحالة هذه أن تجد دعوى الحرب لدى هؤلاء التعساء كل حماس وتأييد، بعد أن قالوا لهم أن في بلاد الشام نهرين من لبن وعسل، وما على كل واحد منهم إلا أن يجلس بين النهرين ويضع في كل يد قدحاً ليغرف بيمينه لبناً وبيساره عسلاً، والشرط الوحيد لامتلاك ذينيك النهرين قتل الكفار المسلمين وتخليص بيت المقدس منهم، ويكونون بذلك قد ضمنوا الدنيا بلبنها وعسلها والآخرة بجناتها الوارفة.. ولم يتردد الفلاح الأوربي المقهور بعد أن عرضوا عليه هذه الصفقة المغرية من الانخراط في الجيش الصليبي تاركاً بيته وزوجته وأولاده بلا معيل أو مصدر حياة.

أما الأمراء ورجال الإقطاع، فقد جاءت دعوة إربان الثاني لتشحن نفوسهم بأحلام واسعة عريضة في امتداد سلطانهم ونفوذهم إلى بقاع أخرى غنية غير عالمهم الأوربي البائس، فيزداد عدد عبيدهم، وتزداد أرصدة ثرواتهم.

وقبيل الدعوة للحرب أخذت الكنيسة على عاتقها وخصوصاً في فرنسا تبني طبقة الفرسان، والإضفاء على هذه الطبقة طموحها الروحي، ويقول المؤرخ فيشر: إن نظم الفروسيـة اصطبغـت في أواخر القرن الحـادي عشر أي غـداة الحروب الصليبية بكل مظاهر القداسة التي ابتكرتها القوى الكنسية المهيمنة في ذلك الوقت؛ فالفارس المتأهل للدخول في طبقة الفرسان عليه أن يغتسل بماء تباركه الكنيسة، ثم يقضي ليلته بالصلاة حتى إذا أصبح، قصد إلى الكنيسة حيث يعترف بذنوبه وخطاياه ويتناول العشاء الرباني ويتلو عليه القس واجبات طبقته، وهي الدفاع عن الدين وإيواء الأرمل واليتيم والبائس، أي أن الفارس يضحي صليبياً بمعنى الكلمة، وذلك قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بدأها المعروف[1].

---

(١) فيشر - أوربا في العصور الوسطى ج ١ ص ١٧١ - ويصف رفيق التميمي هؤلاء الفرسان بأنهم كانوا دائماً =

وإذا أضفنا على ذلك مطامع ومطامح تجار مدن بيزا وجنوا والبندقية، وهي المدن التجارية الأوربية الرئيسية في ذلك العصر، في كسر الاحتكار الاسلامي على سلع الشرق النفيسة الغالية الثمن والحلول محلهم في استيرادها وبيعها للعالم... بعد كل ذلك نصل إلى قناعة تامة بأن الجميع في أوربا الغربية بلا استثناء وجدوا في خطاب البابا إربان الثاني فرصة العمر التي لا تعوض، وما عليهم فقط إلاّ شدّ الركائب والجري بسرعة وعجل صوب فلسطين بلد الأحلام والأطماع.

= رجال حرب سواء كانت المعركة لصالح الأمير الذي يتبعونه أو لصالح عدوه، فهم دائماً مع الذي يدفع أكثر، وكان قصارى همهم الظفر ثم الانقضاض على مال المغلوب واقتسامه بينهم - أنظر التميمي - الحروب الصليبية ص ٤٢، كما يذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أن بعض كبار المغامرين من الفرسان أمثال الذي يعرف باسم السيد الكمبيادور، كانوا يحاربون إلى جانب النصارى طوراً وإلى جانب المسلمين طوراً آخر، أي حسبما تتوفر المطامع والمغانم - أنظر محمد عبد الله عنان - مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام الطبعة الرابعة - ص ١٦٠.

الفصل الثالث

الصليبيون يتجهون نحو بلاد الشام

ثمة صورتان، تعطيان إجابة حاسمة عن السؤال: كيف استطاع الصليبيون، وهم خليط من أقوام مختلفة بألسنتهم وأصولهم ووعيهم وثقافتهم، تطع آلاف الكيلومترات، راجلين في طرق امتلأت بالجبال والوهاد والبحار والأنهار، ومداهمة الأرض العربية واحتلالها وإقامة دويلات صليبية عليها..؟؟ ولماذا انهزم العرب المسلمون أمام هذه الأقوام الغازية، في معارك كانوا فيها أضعاف مهاجميهم، وجرت على أرضهم ووسط مزارعهم وسهولهم..؟؟

..... الصورة الأولى تصور الروح والمعنويات التي سادت الصليبيين إبان الاستعداد للحرب، ثم أثناء الحرب نفسها...

والصورة الثانية، صورة المسلمين عندما وصل بلادهم التيار الصليبي، الذي جرفهم، وهز ملكهم، ودمر بلادهم، وأذهب ريحهم...

وستتضح معالم هاتين الصورتين من خلال أسطر الصفحات التالية...!!

* * *

قلت في الفصل السابق إن دعوة البابا إربان الثاني للحرب لاقت من الصدى والقبول من سكان غرب أوربا، درجة ما كان البابا نفسه يتوقعها، وأخذ الناس يستعدون للمسير بعد أن حدد البابا منتصف شهر أغسطس من عام ١٠٩٦م لبدء تحركهم من ديارهم، على أن يتم تجمعهم في القسطنطينية في شهر ديسمبر من العام نفسه...

وكأن عصا سحرية مسّت المجتمع الأوربي الغربي، ففجأة توقفت الحروب والمشاحنات بين الأمراء، وحل الوئام بين حكام الإقطاعيات والحصون الريفية من

جهة، وسكان المدن من جهة ثانية، كما أن زعماء الإقطاع خففوا من مظالمهم وجبروتهم لطبقة الأرقاء وأقنان الأرض، وأخذوا في التقرب إليهم وخطب ودهم، وفتحت الحدود بين الإمارات الإقطاعية، وبدأت الحاصلات الزراعية تتدفق على الأسواق مما جعل أثمانها ترخص بشكل ملحوظ، حيث كان ذلك عاملاً مهماً في توفير المال اللازم للرحيل، وتجميع المواد الغذائية التي تتطلبها رحلة الآلاف من المحاربين سواء لأخذها معهم أو لتركها مؤنة لأسرهم أثناء غيابهم... ولم تترك الكنيسة وسيلة لإغراء وحثّ الناس للانخراط في الجيش الصليبي إلا واتبعتها، فقد أعلنت، مثلاً، أن كل من يدخل في جيش الصليب، بات من رجال الكنيسة فلا تجوز محاكمته إلا أمام المحاكم الكنسية، كما أعلنت عن إعفاء جميع الصليبيين من طبقة العامة، من دفع الجزية إلى سادتهم الإقطاعيين وإلغاء فوائد الديون التي سبق أن اقترضوها، وتأجيل تسديد هذه الديون إلى ما بعد خمس سنوات.

ووسط هذا المناخ الديني العاطفي الحماسي، تألفت الجيوش الصليبية التي انضم إليها آلاف الرجال الذين تقاطروا من كل ناحية من نواحي أوربا الغربية، خصوصاً من فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا...

وقبل أن أتابع حركة هذه الجيوش النظامية التي بلغ عدد جنودها مئة ألف محارب، سأتعرض للحديث باختصار عن حملة الجياع التي قادها بطرس الناسك من وراء ظهر بابا روما....

بطرس الناسك يقود حملة الجياع:

خرج بطرس الناسك بنحو عشرين ألف إنسان من غوغاء ودهماء أوربا باتجاه بيت المقدس، متبعاً الطريق البري الذي يمرّ من المجر ويوغسلافيا وبلغاريا حتى القسطنطينية، وكان تحرك بطرس وجماعته في ٢٠ من أبريل عام ١٠٩٦ وقد سبقه بأيام ألف رجل قادهم أحد أتباعه، وهو مغامر فرنسي عرف باسم (والتر المفلس)... وتحرك بطرس في هذا التاريخ يعني عصيانه لأوامر البابا إربان الثاني الذي حدد تاريخ التحرك بدءاً من ١٥ أغسطس. ويبدو أن بطرس كان في موقف فقد فيه السيطرة على هذه الجموع غير المتجانسة التي تبعته، ومعظمها من الفلاحين الفقراء، والتي شبهها المؤرخ الفرنسي «غلبرت دي نوجن» بالجراد، ليس لها قائد تأتمر بأمره،

تسير بغريزتها، لتنشر الخراب والدمار في كل مكان تحلّ به..

دخلت جموع بطرس في معارك طاحنة مع المجر وسكان مدينة بلغراد والبلغار، الذين امتشقوا أسلحتهم لصدّ أعمال النهب والسلب والقتل، التي كانت تقترفها الجيوش الجائعة على سكان المدن والقرى التي مرت بها ومات الآلاف من عسكر بطرس الذي لم يكن بإمكانه فعل أيّ شيء لضبط جماعته، ومنع اعتداءاتها وتعليمها النظام والطاعة.

أما الامبراطور البيزنطي ألكسيوس فقد ذهل عندماجاءته أنباء تحرك بطرس مع دهمائه، وأنباء التخريب والدمار الذي ألحقوه بكل مكان مرّوا منه، وكان ألكسيوس قد وضع خطته وهيأ نفسه لاستقبال جيش منظم سيصله عن طريق الأدرياتيك يتحرك بإمرة مندوب عن البابا..

ووصل بطرس على حمارته مع متشرديه إلى ضواحي القسطنطينية ليجدوا قوات الامبراطور البيزنطي قبالتهم، وتقدم قائدهم ليطلب من بطرس أن يبقي جماعته خارج المدينة حتى يتمّ أمر نقلها إلى ميادين القتال على الضفة الشرقية لبحر مرمرة حيث يوجد السلاجقة المسلمون...

وفي الأيام التي انتظروا فيها، إتمام إجراءات نقلهم، انقلب محاربو بطرس الذين جاءوا لتحرير بيت المقدس من الكفارا إلى لصوص وقتلة لإخوانهم المسيحيين خارج القسطنطينية وداخلها، حيث أخذوا يتسللون في جنح الظلام إلى أحياء المدينة الكبيرة، فيسرقون بيوتها ويغتصبون نساءها، حتى الكنائس والأديرة لم تنج منهم، وبعد أن نهبوا جميع ما في هذه الكنائس من ذهب وفضة وتحف ورياش، صعدوا أسطحتها فخلعوا صفائح الرصاص التي تغطيها ليبيعوها في أسواق المدينة جهاراً، وكان لا بدّ للامبراطور البيزنطي، أن يضع حداً لهذه الفوضى التي عمت المدينة، فقرر نقل جماعة بطرس كيفما اتفق إلى الساحل الآسيوي، وتولت مراكب بيزنطية نقل محاربي بطرس، وألقت بهم على ساحل بحر مرمرة، واتخذوا من بعض قلاعها وأهمها قلعة (كيبوتس أو كيفيتوت) مقراً لهم، وكعادتهم استمرّوا في النهب والسلب؛ فترك أهالي المنطقة دورهم وأراضيهم ورحلوا عنها خوفاً من هذا السيل الهمجي الذي حلّ ببلادهم.

وعلى مسافة غير بعيدة من المكان الذي تمركز به بطرس وجماعته، انتشرت قلاع السلاجقة، وقد قام بضعة آلاف من متشردي بطرس من الفرنسيين بالتوغل في أراضي السلاجقة حتى بلغوا مشارف مدينة نيقية عاصمة السلطان السلجوقي « قلج أرسلان » فنهبوا القرى والمزارع وقتلوا كلّ من صادفوه في طريقهم حتى السكان المسيحيين، بوحشية مروعة، وقيل: إنهم عمدوا إلى شيّ الأطفال على السفافيد، وحين عادوا ومعهم غنائمهم إلى معسكر كيفيتوت أخذوا يقصون بطولاتهم على زملائهم، فتحمس الألمانيون من جنود بطرس، فخرج ستة آلاف منهم بقيادة رينالد أحد زعمائهم، وهاجموا قلعة « اكسير يجوردن » السلجوقية واستطاعوا احتلالها والاستيلاء على جميع ما فيها من قوت، غير أن السلاجقة الذين استيقظوا من مفاجأة وصول هذا الحشد المدمر من متشردي أوربا إلى مشارف بلادهم، سرعان ما جهزوا جيشاً تولى محاصرة الألمان في القلعة ومنعوا عنهم الماء الذي كانت مصادره خارج القلعة، ثم أخذوا يهاجمون القلعة فاضطرّ رينالد، بعد أن استبدّ به وبجيوشه العطش وكثر فيهم القتل، إلى الاستسلام، واشترط السلاجقة للإبقاء على حياة المستسلمين دخولهم الإسلام، ووافق معظمهم بلا تردد على التخلي عن المسيحية وإشهار إسلامهم، وأرسلوا ضمن حراسة مشددة إلى مناطق بعيدة عن مسرح القتال، ويبدو أن طلب السلاجقة من أسراهم اعتناق الإسلام كان للسخرية من هؤلاء الذين نذروا أنفسهم للمسيح وتطهير بيت المقدس من الكفرة المسلمين (١)

وفي الوقت الذي كان فيه الترك يحاصرون الجنود الألمان، تسلل اثنان من رجالاتهم الذين يتقنون اللغة الاغريقية وقد تخفيا بزيّ بيزنطيّ، إلى قلعة كيفيتوت، حيث أخذا يشيعان بين عسكر بطرس أن رينالد وجماعته الألمان استطاعوا دحر السلاجقة واحتلال مدينة نيقية عاصمتهم. وأن الألمان الآن يقتسمون الغنائم الكثيرة فيما بينهم، وحدث ما توقعه السلاجقة، فهاجت شهوات الصليبيين وغلت حمى الحسد والحقد على زملائهم الذين استأثروا بالغنائم وحدهم، وشدّوا الرحال للحاق بهم حتى لا تضيع عليهم كنوز السلاجقة، وحاول بعض قادتهم تهدئة الخواطر، وإثناءهم عن السير بلا نظام أو خطة، ولكن دون جدوى، وبينما الأمر كذلك جاء من أخبر القادة بحقيقة ما حلّ بالألمانيين من هزيمة منكرة، فخرج أولئك القادة بسرعة إلى الجموع الهادرة وطلبوا منها التمهل لأن زملاءهم لم يغنموا شيئاً بل هم أصبحوا غنيمة للسلاجقة...

لكن الهرج والمرج زاد بين صفوف القوم؛ فمنهم من صدّق ما حلّ بزملائه الألمان على يد السلاجقة فثارت في نفسه النخوة والرغبة في الانتقام لزملائه، ومنهم من اعتبر قصة الهزيمة كذبة كبرى اخترعها القادة المتواطئون مع الألمانيين لتقاسم الغنائم فيما بينهم، وحرمان بقية المحاربين منها[1].

وإزاء هذا الموقف لم يجد قادة جيش بطرس بداً من السير، وفي فجر ٢١/اكتوبر ١٠٩٦م تحرك الجيش الصليبي الذي أصبح الآن عدده يفوق/٢٠/ألف مقاتل، بعد أن وصلته دفعات كبيرة من الدهماء الأوربيين الذين تأخروا عن ركب بطرس.. تحرك هذا الجيش بأكمله وقد تصاعد صياح وهرج أفراده حتى وصل إلى العنان... ونجحت خطة السلاجقة الذكية، الذين عرفوا نفسية عدوهم، واستطاعوا تحريك هذا العدد الضخم من الصليبيين ليطوقوهم عند مشارف بلدة (دراكون) ثم لينهالوا عليهم بالسهام من جميع الجهات. وقد دبَّ الذعر والاضطراب بين عساكر بطرس فانكفأوا راجعين، فلاحقهم السلاجقة برماحهم وسيوفهم وسهامهم. ومن نجا من الصليبيين مات جوعاً بعد أن تاه في الجبال والغابات، أو مات غرقاً في مياه البحر، ولم ينج من العشرين ألفاً ـ وفق ما تقول أكثر المصادر التاريخية القديمة تفاؤلاً ـ سوى ثلاثة آلاف، وصلوا إلى إحدى القلاع البعيدة والقريبة من البحر فتحصنوا بداخلها حتى جاءتهم مراكب الامبراطور البيزنطي ونقلتهم إلى العاصمة القسطنطينية بعد تجريدهم من أسلحتهم.

ومات معظم زعماء وقادة هذه الحملة بما فيهم والتر المفلس، أما بطرس فقد كان وقت المعركة في القسطنطينية.

حملة الجياع الألمانية:

إذا كان السلاجقة تولوا أمر حملة بطرس فإن الشعب المجري قد تولى أمر الحملة الصليبية التي قادها ثلاثة من أتباع بطرس الناسك وهم (جوتشالك، وفولكمار، وأميخ) الذين أرسلهم بطرس ليجمعوا الناس من بعض المناطق الألمانية، وقد نجح كل واحد من هؤلاء في تشكيل جيش من المتشردين والفقراء الألمان، ورأوا

(١) التميمي ـ الحروب الصليبية ـ ص ٤٥.

قبل أن يبدأوا بالسير لتحرير بيت المقدس، أن يطهروا الأرض الألمانية من اليهود، ليوفق الربّ حملتهم من جهة، ومن جهة أخرى ليوفروا لحملتهم الأموال والمؤن التي سيحصلون عليها من اليهود الأغنياء بعد ذبحهم، وهكذا كان... وحين بدأت هذه الجيوش الصليبية زحفها باتجاه القسطنطينية، بعد أن صفت حسابها مع يهود بلادها، كان في استقبالها على حدود الأرض المجرية جيش كبير يقوده (كولومان) ملك المجر الذي ذاق الأمرين هو وشعبه من تصرفات أفراد حملة بطرس الأولى، فقرر عدم تكرار المهزلة مرة أخرى، فطوق هذا الجيش الصليبي الجديد، ليوم، ثم أمر جنوده بدخول معسكر الصليبيين وهم نيام وذبحهم عن آخرهم، ولم ينج منهم سوى نفرٍ قليلٍ جداً لاذ بالفرار..

ولسنا ندري كيف تلقى بطرس نبأ هذه الكوارث التي حلت بجيشيه الأول والثاني؛ فالمصادر التاريخية القديمة ـ سامحها الله ـ أغفلت ذلك.. فبطرس هو المسؤول الأول عن إزهاق أرواح هذه الآلاف المؤلفة من الناس البسطاء حين كان يقتلعهم من مزارعهم ومن بين أسرهم الفقيرة ليقودهم إلى تحقيق هدف؛ أقل ما يمكن أن يقال عنه: إنه لا يوازن بأي مقياس تلك المجازر التي تعرض لها هؤلاء البؤساء.

الحملة الصليبية النظامية:

تألفت هذه الحملة التي يطلق عليها أيضاً اسم حملة الفرسان الصليبية، أو الحملة الصليبية الأولى من أربعة جيوش رئيسة، الجيش الأول يتألف من بعض مواطني مقاطعات فرنسا الشمالية واللورين ورينان، وكان تحت قيادة الأمير (غودفري دي بويون) دوق اللورين السفلى، وشقيقيه (يوستاس وبلدوين)، وقد تحرك هذا الجيش ماراً بألمانيا والمجر وبلغاريا، واستطاع غودفري السيطرة على جيشه ومنعه من الاعتداء على سكان القرى والمدن التي مرَّ بها خصوصاً في المجر بعد أن رفض الملك المجري بادىء الأمر السماح للجيش الصليبي المرور ببلاده، ولكنه وافق بعد ذلك على أن يأخذ بلدوين شقيق غودفري وأسرته رهائن عنده لضمان عدم اعتداء أفراد الجيش على ممتلكات المجريين، على أن يطلق سراح الرهائن عند تخطي آخر جندي صليبي أرض بلاده، وهكذا كان..

ووصل الجيش الصليبي الأول إلى القسطنطينية في الموعد المحدد وهو شهر

ديسمبر ١٠٩٦م دون وقوع أي حوادث تذكر، وحدثت بعض الاصطدامات الدموية المحدودة بين هؤلاء الصليبيين وبين الجنود البيزنطيين قرب القسطنطينية، ولكن تمّ الوفاق بين الطرفين، ونقل الجند الصليبي إلى الشاطىء الآسيوي من بحر مرمرة بانتظار وصول بقية الجيوش الأخرى، وقد استقبل الامبراطور البيزنطي غودفري بقصره بترحاب بالغ، ووعده بتزويد جيشه بما يلزمه من مؤن.

والجيش الثاني كان بقيادة ريموند الرابع أمير طولوز، وقد صحب هذا الجيش مندوب البابا الأسقف «أديار دي مونتل» أسقف مدينة (لي بويه) كما صحبه عدد كبير من أمراء جنوب فرنسا، وعبر الجيش جبال الألب وتعرض أثناء سيره لعدة حوادث واصطدامات مع سكان المدن والقرى التي مرّ بها، وفي إحداها جرح مندوب البابا نفسه، ووصل الجيش العاصمة البيزنطية في شهر أبريل من عام ١٠٩٧م وانضمّ إلى الجيوش الصليبية الأخرى بعد أن عبر البوسفور.

والجيش الثالث كان يضمُّ مجموعة كبيرة من النورمانديين الذين استوطنوا الجنوب الإيطالي، مع أعداد من الإيطاليين، وكان بقيادة الأمير بوهمند وهو ابن روبير جيسكارد مؤسس مملكة النورمنديين في جنوب إيطاليا وصقلية، وقد قطع هذا الجيش البحر الأدرياتيكي ووصل إلى القسطنطينية في أبريل من عام ١٠٩٧م.

والجيش الرابع كان مؤلفاً من سكان وسط وغرب فرنسا، وبالخصوص من شبه جزيرة نورمانديا، وكان تحت قيادة روبيرت أمير مقاطعة نورمانديا والابن الأكبر لوليم الفاتح، ورافقه صهره ستيفن أمير منطقة (بلوا) وابن عمه «روبرت الثاني» أمير منطقة الفلاندر. وقد عبر هذا الجيش جبال الألب ووصل إلى إيطاليا، والتقى قائده روبرت النورماندي بالبابا إربان الثاني ونال بركته ودعاءه. ثم اجتاز البحر الأدرياتيكي من مرفأ باري ووصل إلى القسطنطينية وانضمّ إلى الجيوش الصليبية الأخرى في أبريل من عام ١٠٩٧م. وقد تعرض هذا الجيش لبعض المتاعب منها غرق إحدى السفن التي تقلّ قسماً من أفراده ومات أكثر من/٤٠٠/ جندي في بحر الأدرياتيك.

وكان شقيق ملك فرنسا (هيو الكبير) قد سبق الجميع إلى القسطنطينية مع عدد من فرسان ونبلاء فرنسا، ولكنه حين أراد قطع البحر الأدرياتيكي غرقت سفينته،

ومات العديد من رجاله، واستطاع هذا الأمير مع بعض جنوده النجاة بفضل مساعدة البحارة البيزنطيين.

ومن رؤساء هذه الجيوش تشكلت القيادة العليا للحرب الصليبية. وقد طلب الامبراطور البيزنطي من قادة الصليبيين أن يقسموا له اليمين بأن كلّ ما سوف يحررونه من أيدي المسلمين سيعاد إلى الامبراطورية البيزنطية، وعلى وجه الخصوص مدينة انطاكية التي تمثل ثقلاً مسيحياً بالنسبة لبيزنطة، حيث تواترت الأقوال أن السيد المسيح جعلها ملكاً للقديس بطرس أحد حوارييه المخلصين. ووافق جميع القادة على أداء القسم للامبراطور إلا ريموند أمير (طولوز) الذي أقسم على أن يحترم شرف الامبراطور وحياته.

ومن المذكرات التي دونتها «أنا كومنين» إبنة الامبراطور البيزنطي عن هذه الفترة التي عاشتها، يتضح أن الامبراطور كان ينظر إلى جميع الصليبيين نظرة شك وعدم ثقة، كما كان يعتبرهم أقل تحضراً ومكانة من البيزنطيين، غير أنه كان يرى فيهم وسيلته الوحيدة لضرب السلاجقة الذين باتوا يهددون عرشه وممتلكاته.

وفي هذا الخلط من المصالح المشتركة، وعدم الثقة بين البيزنطيين والصليبيين... بدأ الزحف المسيحي على ديار الإسلام في أواخر أبريل من عام ١٠٩٧م[١].

القتال مع السلاجقة وانتصار الصليبيين:

كانت القوة الإسلامية الحقيقية في المنطقة ترتكز على جيش السلاجقة في آسيا الوسطى، الذي كان بإمرة قلج أرسلان الثاني الذي اتخذ من مدينة نيقية القريبة من شواطىء بحر مرمرة والمقابلة للقسطنطينية عاصمة له، بينما أنهك التطاحن والاقتتال بين الأمراء السلاجقة في بلاد الشام القوى العربية والإسلامية عموماً، إذ بعد وفاة ملكشاه دبّ الخلاف بين ورثته العديدين، ودخلوا في حروب وقتال مع بعضهم البعض، في نفس الوقت الذي كان فيه الصليبيون يدقون أرض بلاد الشام بسنابك

---

١) يذكر أرنست باركر أن عدد الجنود الصليبيين كما قدره المؤرخ الصليبي فولشرمو (٦٠٠) ألف جندي، ويرجح باركر أن عددهم كان (١٥٠) ألف جندي ـ أنظر باركر الحروب الصليبية ـ ص ٢٧.

خيلهم، حتى أن قلج ارسلان نفسه كان غائباً عن عاصمة ملكه نيقية حين ألقى الصليبيون عليها الحصار، حيث كان يقود جيشه لقتال بعض الأمراء الذين تمرّدوا عليه في المناطق الشرقية من آسيا الوسطى، غير أن جيشه كان متماسكاً نسبياً.

وفي أوائل مايو وصل الصليبيون إلى نيقية، وحاصروها، ولكن أسوارها وحصونها المنيعة، واستبسال حاميتها قهرت هجوم الصليبيين، وعاد قلج ارسلان على عجل لإنقاذ مدينته، واشتبك مع جيش ريموند والراهب أديار، وكادت الدائرة تدور على الصليبيين لولا تدخل جيش روبرت أمير الفلاندر، حيث شعر السلطان السلجوقي بأنه لا قبل له بمهاجمة الجيوش الصليبية جميعها، فارتدّ إلى الجبال، وترك مدينة نيقية ومن فيها يواجهون مصيرهم بأنفسهم!! وظلت هذه المدينة صامدة لمدة سبعة أسابيع، حتى تدخل الامبراطور البيزنطي أليكسيوس، فأرسل مراكبه إلى بحيرة إسكان التي كانت تشرف عليها المدينة، وتمّ سقوط نيقية بيد البيزنطيين، وليس بيد الصليبيين ورفع على ساريتها علم بيزنطة ومنعت قوات الامبراطور الجيش الصليبي دخول المدينة إلا فرادى، الأمر الذي جعل هؤلاء يشعرون بأن أليكسيوس قد خانهم وكاد الجمع الصليبي ينقلب عليه لولا أكياس الذهب التي أهداها الامبراطور إلى قادة الصليبيين والتي غنمها من قصر قلج ارسلان في نيقية.

أما قلج ارسلان فقد تراجع، وبدأ في تجميع جيشه في منطقة (دوريليوم) بعد أن عقد هدنة مع المناوئين لحكمه، وكان قادة الصليبيين اتفقوا على تقسيم جيوشهم إلى قسمين، على أن يسبق القسم الأول القسم الآخر بمسيرة يوم، وذلك لحلّ مشكلة تأمين الغذاء لتلك الأعداد الضخمة، وسار القسم الأول بقيادة بوهمند النورماني الذي التقى بجيش قلج ارسلان في دوريليوم، ومرة أخرى كادت المعركة تحسم لصالح السلاجقة لولا وصول القسم الثاني من الجيش الصليبي الذي ما إن شاهد قلج ارسلان طلائعه حتى دبّ فيه الذعر، معتقداً أن هذه الجيوش لا آخر لها، وتراجع مولياً هو وجيشه الادبار، بعد أن أبلى الجيش السلجوقي في هذه المعركة بلاء عظيماً واستبسل جنوده بشكل جعل الصليبيين يكتشفون لأول مرة أن السلاجقة المسلمين على درجة عالية جداً من القدرة القتالية، وأن ما لدى الصليبيين والبيزنطيين من وسائل علمية في فنون الحرب ليست إلا طرقاً بالية متداعية أمام فنون السلاجقة الحديثة الذكية، ويذكر المؤرخ البريطاني رنسيان أن أحد المؤرخين النورمانديين الذين شهدوا هذه

المعركة، تمنى لو كان هؤلاء الترك مسيحيين ومن جنود الصليب، وأن انبهاره الشديد بالترك جعله يؤكد، فيما دونه في تاريخه، أن الفرنج والترك هم من أصل واحد، وأنهم ينحدرون من سلالة الطرواديين الذين ناهضوا اليونانيين.

ومهما يكن، فقد كانت نتائج معركة دوريليوم حاسمة لصالح الصليبيين، فالطريق حتى بلاد الشام أصبح مفتوحاً أمامهم، فليس هناك من قوة نظامية إسلامية يخشونها، وتابعوا تقدمهم وسط جبال الأناضول يقودهم أدلاّء بيزنطيون باتجاه الجنوب، ولم يكن يقلقهم في مسيرهم إلا أمران الأول الكمائن التي كان ينصبها، بين الفينة والأخرى، رجال العصابات السلاجقة حين كانوا ينقضّون على مؤخرة الجيش ويقتلون ويأسرون عدداً من جنود الصليب، والأمر الثاني الألبسة السميكة والدروع الثقيلة التي إن ناسبت طقس ديار الغرب الباردة، فإنها كانت عبئاً ثقيلاً ومرهقاً في أرض المشرق ذات الشمس الحارقة، خصوصاً وأن سيرهم قد جاء في أشد أشهر الصيف حرارة.

وعند وصول الجيش الصليبي إلى منطقة سهل كليكيا، انفصل عن الجيش بعض القطاعات لتفتح عدداً من المدن الجانبية، وكاد الخلاف يدبّ بين بعض الأمراء الصليبيين على امتلاك هذه المدن لولا تدخل مندوب البابا حيث عمل على تقسيم الغنيمة بين الأمراء قسمة ضيزى. وعند بلدة عينتاب (في شمال سوريا) أخذ بلدوين شقيق غودفري قسماً من جيشه وسار باتجاه مدينة الرها، آخذاً بنصيحة أحد الأدلاّء بأن في وادي الفرات الغربي، في الشمال الشرقي من سوريا، أراضي مخصبة جداً وأن أكثر سكانها مسيحيون، وسيرحبون به، واستطاع هذا الجيش أن يستولي على مدن وقرى هذه المنطقة بكل سهولة، وحين وصل بلدوين مدينة الرها، خرج حاكمها الأرمني (تودروس) مع حاشيته لاستقباله والترحيب بمقدمه تحت ضغط أهالي المدينة الذين كانوا مستائين من حكم تودروس، وخضوعه للسلاجقة والبيزنطيين معاً[1].

---

(١) الواقع أن تودروس، أمير الرها كان على درجة عالية من المهارة الدبلوماسية وسعة الأفق حيث استطاع أن يجعل منطقة الرها محايدة بين البيزنطيين من جهة، والسلاجقة المسلمين من جهة أخرى، وينفرد فيها بالحكم بنفسه ويبعدها عن مآسي الحروب التي كانت مشتعلة لعشرات السنوات بين الأتراك والبيزنطيين، وكان للمحافظة على السلام في بلاده اتفق مع الطرفين على أن يدفع لكل منهما جزية كبيرة، لذا اضطر إلى فرض ضرائب كانت نسبياً باهظة على سكان البلاد الذين ضجوا من فداحة هذه الضرائب واعتقدوا أن الصليبيين سيريحونهم من شراء أمنهم وسلامتهم بأموالهم.

وبلغ ترحيب وحماس أهل الرها ببلدوين وعسكره حداً جعلهم يرغمون حاكمهم، الذي أبقاه بلدوين حاكماً على الرها، أن يتخذ من هذا الافرنجي وريثاً للعرش من بعده، وليتمّ ذلك كان لا بدّ لتودروس أن يعلن تبنيه لبلدوين، وقد كان تودروس عقيماً، وفي حفل كبير أقيم في المدينة، ووفق الطقوس الأرمنية أصبح بلدوين ابن تودروس رسمياً[1].

ويبدو أن بلدوين كان على عجلة من أمره، فتآمر مع بعض الأهالي لقتل والده الجديد ووراثة عرش الرها؛ فقامت جماعة بمهاجمة تودروس في قصره، وأنهوا حياته بأن مزقوه إرباً إرباً، وأصبح بلدوين ـ شرعياً ـ حاكم الرها وما جاورها من القرى والدساكر، وبذلك تكون الرها أول مستعمرة صليبية تقام على أرض بلاد الشام، وأصبحت هذه المستعمرة من القوة والهيبة بفضل سياسة وذكاء بلدوين، ما جعلها محطّ أنظار العديد من الصليبيين الذين توافدوا إليها، وأقطعهم بلدوين أراضيها الزراعية، وإن كان هذا الحاكم الصليبي قد تعرض لانتقادات مرة وقاسية، من قبل عدد من القساوسة الإفرنج الذين كانوا يعتبرون بقاءه في الرها وتأسيس مستعمرة صليبية فيها، خيانة لمبادىء الحرب الصليبية التي مبتغاها تحرير بيت المقدس والأماكن المسيحية الأخرى من الكفرة لا إقامة وتأسيس امارات في منطقة لم يسمع بها لا المسيح ولا حواريوه. ولكن بلدوين أثبت فيما بعد أن الرها كانت بمثابة صمام الأمان لبقية المستعمرات الصليبية الأخرى.

حصار إنطاكية:

يعتقد المسيحيون أن مدينة إنطاكية التي تقع في الشمال الغربي من سوريا، وعلى الضفة اليسرى من نهر العاصي (اورنت) مدينة مقدسة كان منحها السيد المسيح

---

(١) ينقل رنسيمان عن عدد من المؤرخين القدامى، الأسلوب الذي تم فيه تبني تودروس لبلدوين حسب الطقوس الأرمنية فيقول: إنه وفقاً لشعائر الأرمن وقتذاك تقرر أن يجري من طقوس احتفال التبني ما يلائم طفلاً صغيراً، لا شخصاً مكتمل الرجولة، فقد تقرر تجريد بلدوين من الملابس حتى وسطه، بينما ارتدى تودروس قميصاً بلغ من الاتساع أن يدخل فيه بلدوين، وأخذ كل من الوالد الجديد والابن الجديد يحكّ صدره العاري في صدر الآخر العاري أيضاً. وكرر بلدوين هذا العمل وبنفس الطريقة مع الأميرة زوجة تودروس.

أنظر رنسيمان ـ الحروب الصليبية ـ ج١ ـ ص٢٩١.

للقديس بطرس ليكون أول بطريرك فيها قبل ذهابه إلى روما، ويبني فيها كنيسته المعروفة، وقد تداول على حكمها منذ الفتح العربي الإسلامي المسلمون والبيزنطيون، وحين وصلها الصليبيون عام ١٠٩٧م كانت بيد السلاجقة، وتدار من قبل أمير سلجوقي يدعى «ياغي سيان»، ونظراً لمناعة حصونها، وارتفاع أبراجها التي بلغ تعدادها/ ٤٥٠/ برجاً، طال حصارها من قبل الصليبيين لمدة تزيد على ثمانية أشهر، تعرض فيها الصليبيون إلى مهالك خطيرة، سواء من قبل السلاجقة، من داخل المدينة ومن خارجها، أو لنفاد المؤونة والغذاء حتى إن بعض المصادر تذكر أن الصليبيين وصل بهم الحال أحياناً لأكل لحوم خيلهم وكلابهم وفئران الحقول، بل حتى لحوم الجند المسلمين المقتولين، وقد وصف هذه الحالة التعسة كل من (ريتشارد باليرين وغرندوردي دوي) في الأشعار التي جمعت تحت عنوان إنطاكية. وانقلب الفارس الصليبي إلى حيوان مفترس. وتسبب طول الحصار في انهيار معنويات عدد من القادة والجنود الصليبيين، ويروى أن بطرس الناسك فرّ مع عدد من المحاربين، لكن تمّ إلقاء القبض عليهم من قبل جنود بوهمند النورمندي الذي قرّر فصل رؤوسهم عن أجسادهم وبينهم بطرس لولا تدخل الأمراء الآخرين.

كان بوهمند الوجه البارز في هذا الحصار، وكان يطمح في أن يصبح أميراً لهذه المدينة المقدسة، ويبني فيها مستعمرة متسعة خاصة به، بالرغم من معرفته الأكيدة برغبة أليكسيوس الملحة في إعادة انطاكية إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية. وطموح بوهمند كان له دور كبير في إقناع الآخرين بعدم النكوص، وحثهم على التماسك كما أنه استطاع أن يتصدّى بجيشه لجميع المحاولات التي قام بها الجنود المحصورون لفك الحصار.

التخاذل العربي الإسلامي:

أجمعت كلّ المصادر التاريخية على أن المسلمين كانت لهم فرصة كبيرة أمام أسوار إنطاكية لسحق القوات الصليبية لو اجتمعت كلمتهم، ووحدوا راياتهم بإخلاص، وقد عرف الصليبيون درجة التفكك والخصام الذي كان سائداً بين المسلمين، ويقول ابن الأثير في الكامل: «إن الإفرنج كاتبوا صاحب حلب ودمشق وسائر أمراء بلاد الشام، بأنهم لا يقصدون بلادهم وإنما قصدهم كان إنطاكية فقط

حتى يمنعوهم، من مدِّ يد المساعدة إلى حاكم انطاكية. ولكن هؤلاء الأمراء كانوا في صراع دموي مع بعضهم البعض.. فأمير دمشق تقاق بن تتش كان يحارب أخاه رضوان بن تتش أمير حلب. وكذلك أمير حماه ضد أمير حمص، بعد أن انفصل كلٌّ أمير عن الآخر وجعل من مدينته دولة قائمة بذاتها، تعادي جاراتها من المدن الإسلامية الأخرى، وكان الواحد منهم يرجو أن يهاجم الصليبيون إمارة عدوه المسلم ليتشفى منه، ووصل الحقد ببعضهم إلى إبرام اتفاق مع الصليبيين على ضرب أعدائهم من الأمراء المسلمين!!

أما الفاطميون حكام مصر آنذاك فقد قرروا الاستفادة من الصليبيين في ضرب السلاجقة والسنيين جملة. ففي شهر إبريل من عام ١٠٩٨ وفد إلى معسكر الصليبيين المنصوب أمام انطاكية سفارة مصرية محملة بالهدايا النفيسة، أرسلها الأفضل كبير وزراء الخليفة الطفل المستعلي بالله، وعرضت السفارة المصرية على الصليبيين، الذين رحبوا بها، أن يتقاسموا الامبراطورية السلجوقية، فيحوز الفرنج شمال بلاد الشام، بينما تأخذ مصر فلسطين فقط، وقد أظهر الصليبيون موافقتهم على هذا الاتفاق، ويؤكد المؤرخ رنسيان أن الصليبيين وجدوا في ذلك فرصتهم التي لا تعوض بتدبيرهم المؤامرات بين الدول الإسلامية وضرب بعضها ببعض[1].

ومن استقراء الحوادث التي وقعت فيا بعد، يتأكد لدينا أن الصليبيين دبروا أن يقوم الفاطميون بمهاجمة القدس والقضاء على حاميتها السلجوقية التي كانت نوعاً ما متماسكة، حتى إذا ما جاءها الصليبيون وجدوا أمامهم جنوداً أمضَّهم التقاتل فيستولون عليها بسهولة، وهذا هو الذي حدث بالفعل، فقد دمَّر الفاطميون قوة السلاجقة في القدس، بدلاً من أن يتحدوا معهم لمقاومة الصليبيين، وحين وصلها الصليبيون لم تتحمل القوات الفاطمية سوى معركةٍ واحدةٍ استمرَّت ساعات، لتسلم القدس صاغرة إلى الصليبيين، واتفاق الفاطميين مع الصليبيين يدلُّ على جهل الفاطميين المطبق بحقيقة وأهداف الغزاة الصليبيين، فانطلاقهم من بلادهم كان هدفه القدس وليس انطاكية أو حلب أو حماة أو حتى دمشق، ومؤرخنا العربي ابن الأثير الذي وصلته أنباء السفارة المصرية أثبت أخبارها في كتابه القيم الكامل، لكنه صاغ

---

(١) ستيفن رنسيان الحروب الصليبية، الجزء الأول ص ٣٢٦ الترجمة العربية. يروي رنسيان قصة السفارة المصرية وينقلها عن مصادر صليبية وبيزنطية.

هذه الحادثة بأسلوب المستنكر أو غير المصدق أن يقوم الفاطميون حكام مصر آنذاك بالاتفاق مع أعدائهم في الدين ضد إخوانهم المسلمين، وان اختلفوا في المذهب.

يقول ابن الأثير.. «قيل: إن أصحاب مصر لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم دخول مصر وحصارها خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين السنيين. والله أعلم»[1].

سقوط إنطاكية:

بقيت هذه المدينة صامدة، وقد أوهنت الجيوش الصليبية، ولم تلن قناتها إلاّ بعد خيانة أحد ضباطها ويدعى «فيروز» الذي كان - كما يقول ابن الأثير - أرمنياً ثم أسلم، وقد حقد على أمير إنطاكية السلجوقي لأنه أمر بمصادرة الكميات الكبيرة من المؤن التي كان يخزنها في قصره، ويحتكرها لنفسه في وقت اشتدّت الضائقة الغذائية في البلاد، وكان هذا الأرمني برتبة ضابط كبير، وكان مسوولاً عن حماية أحد الأبراج المهمة في سور إنطاكية، فاتصل (فيروز) سراً بأمير النورمانديين الطليان، بوهمند، وعرض عليه تسهيل دخول الصليبيين إلى داخل المدينة عن طريق برجه، وتمّ الاتفاق بين الطرفين على أن يتمّ تنفيذه بعد منتصف الليل، وسارع بوهمند للاجتماع مع بقية الأمراء الصليبيين مقترحاً عليهم تسليم المدينة للقائد الذي يتمكن من فتحها والاستيلاء عليها، ولم يوافق المجتمعون على هذا الاقتراح إلاّ بعد أن هددهم بالانسحاب والعودة الى بلاده.

ونجحت مؤامرة بوهمند وفيروز، ودخل الصليبيون من البرج المعين، وفتحوا أبواب المدينة ليدخلها بقية الصليبيين، وقد دبَّ الذعر والهلع فى قلوب المسلمين

---

(١) واضح أن ابن الأثير أراد أن يجد مبرراً، حتى ولو كان غير صحيح، لستر فعلة الفاطميين التي استنكرها جميع المسلمين آنذاك، فالسلاجقة كانوا على درجة من الضعف والشقاق جعلتهم ليسوا غير قادرين على فتح مصر فحسب، بل على الاحتفاظ بما لديهم من أراض وممالك، بدليل أن الفاطميين قد استطاعوا قهرهم وتخلصهم بيت المقدس، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ويبدو مما تقدم أن ابن الأثير كان مقتنعاً بأن ما أقدم عليه الفاطميون كان من مخازي ذلك العصر الكبيرة فعمل جهده على سترها.
أنظر ابن الأثير، الكامل ج ١٠ ص٥٢.

الذين أخذتهم المفاجأة غير المتوقعة، ولم يُضِع الصليبيون أي دقيقة، فانهالوا بسيوفهم ورماحهم على المسلمين دون تمييز بين مقاتل أو غير مقاتل، أو بين رجل وامرأة وطفل، ولم تمض ساعات حتى كان قد تمّ الإجهاز على الآلاف من المسلمين الذين كانوا داخل المدينة بشكل وحشيّ همجيّ، وأما حاكمها السلجوقي فقد استطاع الفرار إلى خارجها مذعوراً، ونظراً لهلعه وقع من فوق حصانه فكسرت ساقه، ولم يستطع الحركة فرآه أحد الأرمن القرويين فجز رأسه، وذهب به إلى بوهمند لينال المكافأة السخية.

الحربة العجيبة:

لم يمض على سقوط إنطاكية سوى (١٢) يوماً حتى داهم الصليبيين خطر محقق، إذ وصل إلى أسوار المدينة جيش إسلامي لجب كان يقوده قائد سلجوقي اسمه «كربوغا» أمير مدينة الموصل، وقد كلفه الخليفة العباسي المستظهر بالله بن المقتدي بأن يتحرك مع غيره من أمراء آل سلجوق لإنقاذ إنطاكية استجابة لنداءات حاكمها باغي سيان، وقد تألف الجيش من جنود فارس وبغداد ودمشق وحمص وحماة. وقدر عدده بثلاثمائة ألف جندي، وكان من المفروض أن يصل هذا الجيش قبل سقوط إنطاكية، ولكن قائده رأى أن يحرر مدينة «الرها» من بلدوين الصليبي أولاً؛ فحاصرها ثلاثة أسابيع دون أن يتمكن من فتحها، كما أنه أضاع كثيراً من الوقت بين دمشق وحلب لإقناع أمرائها بالاشتراك معه في الحملة، وحين وصل الجيش الإسلامي إلى إنطاكية كانت المدينة قد سقطت وانتهى الأمر، ويرى جميع المؤرخين بأن هذا الجيش لو سار مباشرة إلى إنطاكية، قبل سقوطها لكان وجه تاريخ الحروب الصليبية قد تغير، ولاستطاع كربوغا إبادة الصليبيين الذين أنهكهم وفتّ من قواهم طول الحصار ونقص المؤونة، وتأخر وصول جيش كربوغا أحد العوامل التي أدّت لهزيمته، مع العلم أن حصار الصليبيين لإنطاكية امتدّ لأكثر من ثمانية أشهر أي ما يقرب من العام الكامل منذ دخول الجيش الصليبي الديار الإسلامية، ورغم ذلك فان الصليبيين الذين انهمكوا في إطلاق العنان لغرائزهم الجسدية، وجدوا في جيش كربوغا خطراً ماحقاً على وجودهم، فعظم خوفهم، ولم يكن لديهم ما يأكلون لأن حصار المسلمين لهم جاء قبل أن يتدبروا أمر المدينة، وأمر مؤونتهم ووصل اليأس ببعضهم حداً دفعهم للفرار أو الاستسلام للمسلمين طلباً للقوت الذي أصبح مفقوداً تماماً، وكاد الجمع

الصليبي كله يستسلم لولا شخص مغمور يدعى (بطرس بارثولوميو) كان يعمل خادماً لأحد الأمراء الصليبيين الصغار، وقد اشتهر بطرس بين زملائه بالغباء ووضاعة الأصل والانهماك في مباهج الحياة... تقدم بطرس، والناس في أوج يأسهم، من خيمة الأمير ريمond قائد جيشه، وهو يرتدي ثوباً مهلهلاً، يطلب مقابلة الأمير مع أسقف لي بوية، ليروي لها أحداث نبوءة راودته وهو نائم، ووافق الأمير على الاستماع إلى نبوءته التي تتلخص في أن القديس أندرياس جاءه وهو نائم ثلاث مرات، وأمره أن يحضر إلى مكان أرشده له قرب كنيسة بطرس بإنطاكية، ويخرج من الأرض الحربة التي طعن بها اليهود السيد المسيح، وأنه بعد إخراجها سيكتب للحملة الظفر في القتال إذا حملتها معها، وطلب بطرس من سيده مساعدته لاستخراج هذه الحربة.

لقد كانت قصة هذه الحربة غريبة، ولكن الجميع صدقها وخرج بطرس ومعه اثنا عشر رجلاً، فيهم عدد من أمراء الحملة، بينهم ريموند ومندوب البابا الأسقف أديمار - بناء على تعليمات وتوصيات القديس أندرياس، إلى المكان المحدد، وانهمك الجميع في الحفر ليوم كامل دون أن يعثروا على شيء، وحين بدت على وجوه الجميع الخيبة، وأخذوا يتهمون بطرس بأنه كاذب مخادع، إذا ببطرس ينطلق وهو يصيح بشكل هيستيري إلى مكان قرب الكنيسة، وينبش التراب بيديه ويستخرج قطعة حديدية تشبه الحربة علاها الصدأ ويرفعها عالياً!! فجثا القوم على الأرض، وارتفعت أياديهم إلى السماء شاكرة الرب على هذه الرعاية السماوية التي خصهم بها، وانتشر خبر العثور على الحربة المقدسة بين جميع المقاتلين الصليبيين انتشار النار في الهشيم، ودبّ فيهم حماس غريب، وامتلأت نفوسهم روحانية هائلة، كما قويت عزائمهم على القتال والفداء.

وقد أبدى الأمير بوهمند ومعه معظم القادة الصليبيين فرحهم بهذا التطور الجديد لقواتهم، ورغم أنه عرف أن قصة الحربة هي لعبة من اختراع الأمير ريموند الذي اختار ذلك المغمور لتمثيلها، إلا أنه قرر عدم إضاعة الوقت بعد أن آلت إليه قيادة الجيش الصليبي إثر مرض الأمير ريموند المفاجيء، حيث لم يكن هناك من سبيل أمام الصليبيين إلا القتال والقيام بعمل انتحاري أو يموتون جوعاً، أو يصبحون أرقاء لجيش المسلمين، وكان هذا رأي القادة الآخرين، وأوعز إلى بطرس لينشر بين الناس أن القديس أندرياس ظهر له بعد اكتشاف الحربة، وأوصاه أن يبلغ

إخوته الصليبيين بالصوم لمدة خمسة أيام تكفيراً عن ذنوبهم، ثم يهبون دفعة واحدة ويهاجمون الأتراك وسيكون النصر حليفهم. وبذلك يكون بوهمند قد استغلّ، بطرس ونبوءته خير استغلال، فلم يكتف بدفع الناس للحرب، بل جعلهم يصومون أيضاً ليحل مشكلة التموين المستعصية. وتولى بوهمند ترتيب الجيش، وجعله على ستة أقسام، ووضع في المقدمة (ريموند آجيل) وهو راهب ترك صفحات كتبها عن الحرب الصليبية ليحمل الحربة وبجانبه بطرس بارثولوميو، وبصفوف متراصّة تقدّم الصليبيون من بوابات المدينة باتجاه خيمة كربوغا نفسه، وفوجىء المسلمون، وظنوا أن الصليبيين جاءوا مستسلمين حتى إن أحد قادة المسلمين العرب وهو وثاب بن محمود طلب من كربوغا أن يبادر ويهجم على الصليبيين، لكن كربوغا نهره مؤكداً أن هؤلاء جاءوه مستسلمين، ولم يكتشف حقيقة الأمر إلا حين وصلت رماح وسيوف الصليبيين إلى رقاب المسلمين، وقد حاول كربوغا المناورة واتباع أسلوب الكرّ والفرّ، ولكن ذلك لم يجده، فقد وجد نفسه أمام إصرار عجيب من قبل الصليبيين على القتال والانتحار، ومما زاد الصليبيين حماساً واندفاعاً، الخطة البارعة التي هيأها بوهمند، فأثناء المعركة أخرج عدداً من الفرسان من تل مقابل يلبسون ثياباً بيضاء ويحملون صلباناً ويمتطون خيولاً جميعها بيضاء، وحسب الخطة خرج من بين صفوف الجيش الصليبي صوت يقول إن الملائكة ومعهم جميع القديسين نزلوا من السماء لمساعدة إخوان الصليب، فازدادت نفوس القوم اشتعالاً وقد زاغت أبصارهم، واربدت سحنهم، وأخذوا يتسابقون للموت، مما أفزع المسلمين فارتدوا وتراجعوا، وتخلخلت صفوفهم وكانت هزيمة منكرة لم تكن في الحسبان.. وترى بعض المصادر التاريخية أن الهزيمة حلت بجيش كربوغا فقط الذي كان يشغل قلب الجيش الإسلامي، فلو أن بقية قطعات الجيش الإسلامي الأخرى تحركت وطوقت الصليبيين لتغير الوضع، ولكن ـ كما يبدو ـ أن أمراء تلك القطعات جاءوا متفرجين وليسوا محاربين بدليل أنهم تركوا كربوغا يواجه مصيره مع جيشه لوحده، ويروي ابن الأثير أن سبب انهزام الجيش الإسلامي كان بسبب أخلاق كربوغا أمير الموصل ومعاملته السيئة للقادة الآخرين. لكن الحقيقة أن الجيش الإسلامي رغم ضخامته ضم جماعات متنابذة متناحرة، أمثال تقاق بن تتش أمير دمشق وجناح الدول أمير حمص وغيرهما من أمراء دول المدن، وكان كل أمير يتحسب من الأمير الآخر، كما أنهم كانوا لا يخفون

قلقهم من أن انتصار كربوغا سيزيد من شعبيته وقوته، ويجعله قادراً على تحقيق طموحاته التي كثيراً ما صرح بها من قبل بضم حلب وحماه ودمشق إلى إمارته وهذا يؤكد أن قبول هؤلاء الأمراء الانضمام لجيش كربوغا كان تحت ضغط شعبهم، وبغرض دعائي محض، يضاف إلى كل ذلك أن معظم جنود الجيش الإسلامي كانوا قبل وصولهم إلى إنطاكية في معارك طاحنة مع بعضهم البعض، وقد أثخنت جراحهم حراب اشقائهم وإخوانهم.

وهكذا فإن قصر نظر هؤلاء الأمراء السياسي اضاع على المسلمين آخر فرصة لدحر الصليبيين وتمكنت ألعوبة (بطرس بارثولوميو)[1] من إلحاق الهزيمة بهم. وقد أسفرت هذه المعركة عن امتداد نفوذ الصليبيين حتى بيت المقدس، إذ بعدها خرج الجيش الصليبي باتجاه الجنوب، خاصة بعد أن تفشى في إنطاكية وباء التيفوئيد، وذهب ضحيته العديد من الصليبيين من بينهم أديمار مندوب البابا ووكيله في الحملة الذي كان بذكائه ودهائه قد وفر على أمراء الصليبيين الاختلاف والشقاق.

لقد أخذت المدن الإسلامية تسقط واحدة إثر أخرى بيد الصليبيين دون أية مقاومة تذكر، فدخلوا معرة النعمان، وذبحوا جميع من فيها من المسلمين، ويقدر عددهم بمئة ألف مسلم، كما تذكر ذلك المصادر العربية الإسلامية!! ثم انتقلوا إلى مصياف وطرابلس الشام وبيروت وحيفا حتى مدينة القدس التي حاصروها مدة قصيرة، ثم تجمعوا وهاجموها دفعة واحدة، ولم تستمر المعركة سوى يوم واحد فتحت بعدها المدينة أبوابها ليدخلها الصليبيون، ويقترفوا فيها أبشع أنواع القتل وسفك الدماء، وحسب الأرقام التي أوردتها المصادر التاريخية الصليبية والعربية القديمة

---

(١) أصبح بطرس بعد أسطورته عن الحربة شهيراً ومتنفذاً، لكن نفوذه بل وحياته انتهت بصورة مأساوية كاملة، فأثناء تقدم الصليبيين باتجاه بيت المقدس حاصروا مدينة عرقا قرب طرابلس الشام، ولكن هذه المدينة امتنعت عليهم، وقد قرروا تركها والتقدم إلى غيرها ولكن ريوند أصر على استمرار حصارها وحتى يقنع الباقين في البقاء أوعز لبطرس إذاعة نبوءة رآها بأن القديس اندرياس جاءه في الليل يلح عليه بأن يخبر الجميع أن يفتحوا مدينة عرقا وأن لا يتركوها، فأذعن بطرس لسيده وأخذ يروج قصة حلمه الجديد، ولكن هذه المرة وجد الجميع أن ثقب هذه الكذبة متسع لا يمكن رتقه، فارتفعت الأصوات تكذب بطرس وتكذب قصة حربته المقدسة وطلب منه إن كان صادقاً أن يدخل امتحاناً على الطريقة الجرمانية، في أن يجتاز ممراً ضيقاً تتأجج فيه نار حامية وهو في ثوب طويل فإن مرّ بسلام دون أن تمسه النار كان صادقاً، ورضخ المسكين فأوقدت النيران ومرّ من بينها فاشتعل ثوبه، واحترق جسده، ولم يخرج من لهيب النار إلا وهو في أتعس حال، وقد عاش لمدة أسبوعين يتلوى ألماً من الحروق إلى أن مات.

يمكن القول: إن عـدد المسلمين الـذين ذبحوا بيـد الصليبيـين منـذ خروجهم من القسطنطينية وحتى احتلالهم بيت المقدس، تجاوز نصف المليون إنسان، فيهم الكثير من النساء والأطفال والرضع، وقد وصف عدد من المؤرخين[1] بإسهاب الطرق الوحشية التي اتبعها الصليبيون في إزهاق أرواح تلك الأنفس البريئة بشكل تقشعرّ له الأبدان، ويروى أن جماجم المسلمين وأذرعهم التي امتلأت بها شوارع وأزقة مدينة القدس، بقيت عدة أيام دون أن يتمكن الصليبيون من إزالتها لكثرتها، وكادت تهدد بانتشار الوباء في المدينة بعد تفسخها... وكل ذلك يدعو المرء ليتساءل عن نوع القلوب التي كان يحملها هؤلاء القوم بين جنوبهم.

وهكذا استطاع الصليبيون أن يوطدوا حكمهم في المشرق العربي الإسلامي، ويقيموا الإمارات، ويبنوا القلاع، وينهبوا ويسلبوا ويقتلوا ويستبيحوا الحرمات، مستغلّين السُّبات العميق الذي كان عليه المجتمع الإسلامي، وتقوقعه وتخاذله، حتى إن هذا التخاذل - كما يقول المؤرخ العربي رفيق التميمي في كتابه الحروب الصليبية - وصل إلى العلماء المسلمين كالغزالي مثلاً، ويقول المؤرخ التميمي في هذا الخصوص: «بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره في إعداد الخطط، وتحبير الرسائل لحث أهل أوربا على امتلاك أقطار المسلمين كان أبو حامد الغزالي - وهو الملقب بحجة الإسلام - غارقاً في خلوته، منكباً على أوراده الصوفية، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة إلى الجهاد والدفاع عن بلاد الإسلام المقدسة، والأنكى من هذا كله والأدهى أن حجة الإسلام سكت سكوتاً مطبقاً عن هذه الحرب الطاحنة التي شنها الغرب على الشرق، ولم يذكر شيئاً عنها في كتبه، في حين أن الغزالي يُعدُّ من أكبر المؤلفين

---

(١) أفاض الصليبيون القدامى في التباهي والتفاخر بالمذابح المروعة للمسلمين، ونجد ذلك على سبيل المثال فيما يسمى بأغاني انطاكية، وهي أشعار عامية وضعها ريشار وعزيبدور وهما شاركا في الحرب، كذلك ما جاء في كتاب القسيس فوشيه دي شارتر الذي رافق الحملة الصليبية الأولى وقد نشر كتابه عام ١٦١١. كذلك كتاب القسيس ريموند دي جيل الذي نشر عام ١٨٦٦. كما أن المصادر العربية مثل الكامل لابن الأثير والمختصر لأبي الفداء والعبر لابن خلدون قد أفاضت في وصف هذه المجازر البشعة التي تعرض لها المسلمون.

ويذكر ابن الجوزي أن عدد من ذبحوا من المسلمين في بيت المقدس تجاوز سبعين ألف مسلم - أنظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - ج٩ - ص١٠٥.

المسلمين حتى زعموا أن مؤلفاته لو قسمت على أيام حياته لخص كل يوم منها أربعة كراريس »[1].

* * *

وبذلك تكون معالم الصورتين، اللتين افتتحت بها هذا الفصل، بجزئياتها وكلياتها، قد اكتملت[2].

---

(1) النعمي - الحروب الصليبية - ص٦١ - كذلك أنظر في كل ما تقدم في هذا الفصل - رنسيمان - الحروب الصليبية ج١ - ص٣٠٣ وما بعدها - باركر - الحروب الصليبية - ص٢٧ وما بعدها - هامرتن - تاريخ العالم ج٤ - ص٧٤٥ وما بعدها.

(2) المذهل أن هاتين الصورتين يتكرر رسمها في أيامنا هذه، على نفس الطريقة وبنفس المقياس، وإن اختلفت بعض أصباغها وألوانها، وتغيرت ريشات وأصابع راسميها لكنها واحدتان شكلاً ومضموناً في كلا الزمنين!.

الفصل الرابع

ممالك وإمارات الصليبيين في بلاد الشام

من المسلم به أن انهزام الأمم في ساحات الحرب، هو، نتيجة لمقدمات، وخاتمة لحصلات، كما أن انهزام الأمم ليس مكانه بالضرورة ميادين القتال وساحات الوغى، فالأمة العربية الإسلامية، كانت قبل أن يصلها الإفرنج في القرن الحادي عشر ميلادي وينتصروا عليها عسكرياً، تعيش حالة انهزام نفسي وروحي كاملين. ولكن مقومات وجود الأمة العربية الإسلامية، ودعائم ديمومتها، كانت، كما دلت الأحداث من القوة بحيث جعلت حالة الانهزام الروحي والنفسي هذه، مجرد ظاهرة مسَّت سلوك وتصرفات إنسان هذه الأمة، ولم تصل إلى جوهره ذي البناء الديني والفكري والوجداني، وكانت محنة الحروب الصليبية، موضوعياً، العامل الأول والرئيسي لتغلب هذا الجوهر على العوامل المضادة لتقدم الأمة وقدرتها على استرداد أرضها وصون كرامتها ومتابعة مسيرتها.

وفي هذا الفصل سنتعرف على الممالك والأمارات التي أنشأها الصليبيون على الأرض الشامية، ثم النظم وأساليب الحكم التي اتبعوها في هذه الأمارات، وأخيراً العلاقات التي كانت بين الصليبيين وجيرانهم المسلمين. أيام الحرب والسلم.

١ ـ مملكة بيت المقدس:

دخل الصليبيون مدينة القدس في/١٥/يوليو/١٠٩٩/م وقرروا تأسيس مملكة بيت المقدس التي شملت معظم المدن والقرى الممتدة من البحر حتى نهر الأردن، ومن أهم مدنها الناصرة، بيت لحم، بانياس، نابلس، حبرون، عسقلان، يافا ارسوف.

واختلف القوم على من سيكون ملكاً على هذه المملكة فاجتمع القادة الكبار بعد عشرة أيام من سقوط القدس بيدهم لاختيار الشخص الذي سيتوج ملكاً على

القدس، ووجد الأمراء الصليبيون أنهم أمام مرشح مهم هو (ريموند) أمير تولوز لتولي هذا المنصب الرفيع، لأن (ريموند) كان أكبر الأمراء سناً ومقاماً، خصوصاً وأنه صديق ورفيق الأسقف (أدامير) مندوب البابا وراعي الحملة الصليبية الذي توفي في إنطاكية قبل تحرك الصليبيين نحو القدس، ولكن هذا الأمير من جهة أخرى كان موضع اتهام من قبل معظم الصليبيين بأنه المخطط والمدبر لخديعة الحربة المقدسة في إنطاكية والتي ذهب ضحيتها بطرس بارثولوميو حرقاً بالنار، أضف إلى ذلك أن ريموند كان صلفاً متغطرساً، كل ذلك أفقده شعبيته لدى العامة والخاصة من الصليبيين.

وفي بداية الاجتماع الذي عقده الأمراء، ومن باب المجاملة، عرض المجتمعون تاج مملكة بيت المقدس على ريموند، ولكن هذا الأخير الذي جاء من همس في أذنه بأن الجميع داخل القاعة وخارجها غير سعداء بأن يكون ملكاً عليهم، وقف وسط الأمراء معلناً بإباء وشمم مفتعلين رفضه القاطع أن يضع على رأسه تاجاً من ذهب في بلاد تكلل فيها السيد المسيح بتاج من الشوك، وفي الوقت الذي جعل رفض ريموند التاج، جميع الأمراء يتنفسون الصعداء، إلا أن السبب الذي تذرع به أوقعهم في مأزق؛ إذ من هو الشجاع الذي سيتحدى المسيح ويزين رأسه بتاج من ذهب، ويتلقب بلقب لم يحظ به المسيح نفسه وهو ملك مدينة القدس؟؟ وتوجه الأمراء بأنظارهم نحو الأمير «غودفروا دي بويون» دوق اللورين الأدنى الذي سارع قبل أن تضيع عليه هذه الفرصة الذهبية وأعلن استعداده لقبول هذا المنصب على شرط أن لا يسمى ملكاً وإنما وكيل كنيسة القيامة وبالتالي لن يضع على رأسه تاجاً لا من ذهب ولا من شوك... وخرج ريموند من الاجتماع والغيظ يأكل قلبه فلعبته فشلت...

... لقد كان غودفروا شاباً وسيماً، قوي الجسم، وقيل في وصفه أنه كان يشطر الفارس الذي ينازله بضربة واحدة من سيفه، لكن يبدو أن نمو عضلات ساعديه جاء على حساب نمو فكره وعقله وقدراته السياسية والإدارية، فقد كان فاشلاً في إدارة هذه المملكة التي أقيمت على جماجم العرب المسلمين ولم يستطع جمع كلمة الأمراء بل زاد من تفككهم وتنابذهم، ومن حسن حظ الصليبيين أن العمر لم يمتد بهذا الملك سوى سنة واحدة من توليه العرش وقد خلفه أخوه بلدوين أمير منطقة الرها وقيل

إن سبب موت غودفروا تناوله لطعام دسّ فيه سم من قبل أمير مدينة القيسارية الذي كان يناصبه العداء.

كان بلدوين الأول يختلف عن أخيه في كل شيء فهو اداري وسياسي ماهر مع لا مبالاة دينية سافرة، فكان رجل دنيا قبل أي شيء، وأول عمل قام به أن سمى نفسه ملك مملكة بيت المقدس ولبس في حفلة تتويج فخمة أقامها في مدينة بيت لحم تاجاً من ذهب. ثم أخذ يطوف في شوارع هذه المدينة مرتدياً الملابس المزركشة، يتقدمه تابعوه وقد وضع على رأسه خوذة مذهبة منقوش عليها نسر باسطاً جناحيه ومن ورائه رجال حرسه بملابسهم الزاهية الجميلة. واشتهر عن بلدوين أيضاً تعشقه لنمط الحياة العربية فأكل أكلهم ولبس لبسهم. كما فرش قصره على غرار قصور الأمراء المسلمين وقد أثر سلوكه هذا في جماعته فقلدوه في كل شيء حتى إن المؤرخ الصليبي (دي شارتر) كتب في تاريخه، إن الفرنج في زمن هذا الملك انقلبوا فجأة إلى شرقيين في مأكلهم ولباسهم، وانهم عمدوا إلى التزاوج مع العربيات المسيحيات أو المسلمات اللاتي تنصرن بالقوة، كما أخذوا يرطنون باللغة العربية، وأخذوا ينسون جنسياتهم وأصولهم الأولى؛ فأصبح الواحد منهم لا يعرف إلا باسم المدينة الفلسطينية المقيم فيها كمقدسي أو يافاوي أو قيساري.. الخ. بعد أن كان ألمانياً أو فرنسياً أو إيطالياً، ولا شك أن الحضارة العربية الإسلامية تغلبت على بدائية الغزاة فانصهروا فيها وتتلمذوا عليها.

٢ ـ امارة طرابلس:

لم يتوقف الصليبيون عند الحدود التي وصلوا إليها بل استمروا في فتح المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، سواء أيام غودفروا أو أخيه بلدوين الأول ومن ثم ابن عمه بلدوين الثاني، وأهم المدن التي سقطت بأيديهم مدينة طرابلس الشام، الذي تولى الأمير ريموند الذي خسر عرش القدس، أمر فتح هذه المدينة، ولكن طرابلس الشام صمدت بوجه جميع المحاولات التي قام بها الفرنج للاستيلاء عليها، وكانت تحت إمرة أمير عربي هو (أبو علي محمد بن عمار) الذي أظهر من البراعة والشجاعة ما رفع قيمته وقدره بين أفراد شعبه فالتفوا حوله واستماتوا في الدفاع عن مدينتهم، وكان ابن عمار يأمل أن تتحرك القوى الإسلامية لنجدته ولكن دون جدوى، فخرج بنفسه

من طرابلس وأخذ يطوف المدن الإسلامية حاثاً حكامها على بذل المساعدة له ولبى استغاثته أمير حمص وحماه ولكن جيوشها الضعيفة هزمت أمام أول لقاء لها مع الجيش الصليبي، وبعد أن ضيق الصليبيون على طرابلس الحصار ومنعوا الإمدادات والمؤن من الوصول إليها، سقطت المدينة بيد الفرنج، وقد أفاض مؤرخنا ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين في وصف صمود هذه المدينة واستبسال شعبها الذي كلف الصليبيين مئات من القتلى... ويشير ابن الأثير إلى أن أحد عوامل سقوط هذه المدينة خيانة اثنين من أغنيائها الذين نقموا على ابن عمار حين طلب منهم التبرع من أموالهم لتغطية نفقات الدفاع عن مدينتهم، فاتصلوا بالصليبيين وأخذوا يرشدونهم على منافذ طرابلس، والنقاط التي يمكن اختراقها من أسوارها.

وبعد استيلاء الفرنج عليها نصب الأمير (برتراند بن ريموند) أمير طولوز أميراً عليها محققاً بذلك ما كان يطمح فيه أبوه من إقامة أمارة في الشرق.

ومن الأمور المهمة التي ترتبت على سقوط مدينة طرابلس بيد الصليبيين، حرق مكتباتها الضخمة، فقد اشتهر آل عمار أمراء طرابلس بتشجيعهم للعلم والمعرفة حيث كانت مكتبتهم الخاصة تضم أكثر من مائة ألف مجلد وكان فيها مائة وثمانون ناسخاً ينسخون الكتب فضلاً عما كان يشترى لها من الكتب من البلاد الأخرى. وذكر المؤرخ الإنكليزي (جبن) أن عدد الكتب في المدينة كلها يتجاوز ثلاثة ملايين كتاب، نفث الصليبيون غيظهم من صمود المدينة، في هذه الكتب فأحرقوها، كما أشار ابن خلكان إلى كنوز المعرفة هذه التي ضاعت بسبب الجهل.

٣ - إمارة إنطاكية:

أنشأ هذه الامارة بوهمند النرمندي أحد القادة الصليبيين الأول عام ١٠٩٨ م، ومساحة هذه الامارة صغيرة بالنسبة لبقية الامارات الصليبية الأخرى، وتشمل الوادي الأدنى لنهر العاصي (أورنت) والسهل الممتد أمامها مع قسم من جبال الأمانوس والنصيرية وميناءي الإسكندرونة والسويدية، ورغم صغر مساحة هذه الإمارة إلا أن واردات سهولها الخصبة وموقعها البحري جلبا لها المال والرفاهية يضاف إلى ذلك أن قسماً من سكانها الأصليين عادوا إليها واستأنفوا إدارة عجلة

مصانعها الكبيرة كصناعة المنسوجات الحريرية والصوفية والبسط والزجاج والفخار والصابون.

ودخل بوهمند في نزاع مع البيزنطيين الذين كانوا يأملون من الصليبيين إعادتها إلى حكمهم نظراً لما تتمتع به هذه المدينة من مركز ديني مرموق لدى المسيحيين الشرقيين، ولكن جهود البيزنطيين ومحاولاتهم السياسية والحربية باءت بالفشل، وبقيت إنطاكية تحت الحكم الصليبي، وحاول بوهمند توسيع إمارته على حساب بلاد المسلمين فجهز حملة إلى أعالي الفرات باتجاه الشرق، فتصدت له فصائل تركية من الدانشمند بقيادة أنوشتكين أمير منطقة سيواس الذي أحاط بجيش بوهمند وهزمه شرّ هزيمة ووقع بوهمند نفسه أسيراً لدى الأتراك، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع الصليبيون للدانشمند مائة ألف بيزنط وقد آل حكم إنطاكية إلى تانكرد ابن أخت بوهمند.

٤ ـ إمارة الرها

وهي أول إمارة أقامها الصليبيون على أرض الشام وتقع في الشمال الشرقي من سوريا الحالية، وتمتد مساحتها على جانبي نهر الفرات من راوندان وعينتاب في الشمال الغربي إلى أواسط المنطقة المعروفة باسم الجزيرة، وقد أسسها بلدوين شقيق غودفروا عام ١٠٩٧م، ولعبت هذه الامارة دوراً مهماً وبارزاً في حماية الامارات الصليبية الأخرى خاصة إنطاكية. ودخل الصليبيون في الرها معارك طاحنة مع السلاجقة والدانشمند، وتمكنوا من إيقاف الزحف الإسلامي سنين طويلة حتى استطاع عماد الدين زنكي من استردادها عام ١١٤٦ ـ كما سنرى ـ وكان سقوطها بيد المسلمين فاتحة النهاية للحكم الصليبي في بلاد الشام.

لقد كان يفصل مملكة القدس وإمارة طرابلس عن إمارتي الرها وإنطاكية، رقعة أرض واسعة الامتداد يحكمها أمراء مسلمون سلاجقة اشتدّ التشاحن والتباغض بينهم وكثرت الحروب بينهم. واستفاد الصليبيون من هذا التنابذ والتكالب على الحكم والامارة بين المسلمين ليوطدوا حكمهم في إماراتهم. أما في بغداد فقد كان الخليفة العباسي المستظهر بالله شاباً ليس له من السلطة إلا اسمها ويأتمر بأمر السلطان السلجوقي بركياروق، وفي مصر تولى الوزير الأفضل وهو أرمني الأصل ثم أسلم،

الحكم وصاية عن الخليفة الفاطمي الصغير، وقد دبّ الفساد في كل مرفق من مرافق الدولة الفاطمية وكثرت فيها المؤامرات والفتن والتطاحن على السلطة مما جعل جيشها مترهلاً غير قادر على مواجهة الصليبيين الذين هزموه في عسقلان هزيمة منكرة عام ١٠٩٩م. وذلك عندما جهز الأفضل حملة لاسترداد القدس بعد أن اكتشف أن الصليبيين خدعوه وتنكروا لما اتفق معهم عليه باقتسام بلاد الشام بينه وبينهم.

نظام الحكم الصليبي

اعتبر الصليبيون الامارات الثلاث، وهي طرابلس وإنطاكية والرها تابعة اسمياً لملك بيت المقدس وفق النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في أوربا آنذاك وإن اختلف عن ذلك النظام في أن الملك أو الأمير المقطع يعيَّن عن طريق الانتخاب من قبل الأمراء الصليبيين جميعاً وليس عن طريق الإرث. وقد وضع الصليبيون أسساً وقواعد لحكمهم منها اعتبار ملك بيت المقدس مقطعاً، ويقع في قمة النظام الإقطاعي، وهو الذي يصدر المراسيم بتعيين الأمير بعد انتخابه، وعلى هذا الملك أن ينجد الأمير المقطع إذا تعرض للاعتداء، أو هدد بثورة داخلية وأن يكون حكماً بين الأمراء في الاختلافات التي تحدق بينهم. وعليه أن يتشاور مع بقية الأمراء قبل أن يضع قانوناً شاملاً لكلّ الامارات، وكذلك في منح إقطاعات جديدة لأمراء جدد، وأن يقسم على احترام حقوق الأمراء، كما أن من حقّ كلّ أمير أن يرفع علم العصيان على الملك إذا شعر بأن الأخير هضم حقاً من حقوقه[1].

ويتضح مما تقدم أن سلطة ملك القدس، كانت صورية، وأن كلّ أمير في إقطاعيته، كان ملكاً قائماً في ذاته، وكان للأمير مثلاً أن يعقد معاهدات منفردة مع المسلمين وأن لا يتقيد بمعاهدة كان الملك أبرمها، كما أن علاقة الأمراء الصغار بالملك لم تختلف كثيراً عن علاقات الأمراء الكبار به، فكانوا يتمتعون بقسط وافر من الاستقلال الذاتي الذي كان على الملك أن يحترمه، وهؤلاء الأمراء الصغار كانوا مقطعين أراض ومدن ضمن حدود مملكة بيت المقدس، أو في القلاع والحصون،

(١) يذكر باركر أن الصليبيين ظلوا لفترة طويلة يتعاملون في المناطق التي احتلوها ببلاد الشام ـ بقانون العرف ـ وهو عبارة عن مجموعة من العادات والتقاليد المرعية في بلادهم الأصلية، والتي لم يجر تدوينها، أنظر باركر ـ الحروب الصليبية ـ حاشية الصفحة ٦٠.

وبجانب الملك والأمراء هناك البطريرك ورجال المحاكم الدينية ومجالس الرهبان، فهم جميعاً يتمتعون بصلاحيات لا يستطيع الملك مساسها. وكانت اللغة الرسمية الفرنسية، وحافظت الأقوام الصليبية الأخرى على لغاتها القومية في معاملاتها الخاصة.

وعموماً فإن الصليبيين شكلوا إمارات وإقطاعيات كانت في الواقع منفصلة، وتحمل كثيراً من التناقضات وعوامل التفكك. ولم يكن يجمع هؤلاء الأمراء إلا التهديد الإسلامي المستمرّ عليهم، فقد كانوا يشعرون أنهم كجزيرة وسط بحر متلاطم الموج من العرب المسلمين، وكان الصليبيون يؤلفون أقلية ضئيلة داخل هذه الإمارات، والفئة المسيطرة منهم كانت تتمثل في الفرسان والمقاتلين. وأما غير المقاتلين وهم كبار السن وبعض التجار من مدن بيزا وجنوا والبندقية الإيطالية وغيرها. واعتبروا أنفسهم من طبقة الأسياد على سكان البلاد الأصليين مسيحيين ومسلمين، وتمتعوا بحقوق سياسية كبيرة، وكانت لهم محاكم خاصة وقوانين مميزة، وكثير من هؤلاء الصليبيين الذين صنفوا أنفسهم ضمن طبقة الأسياد كانوا أرقاء وأجراء في بلادهم الأصلية.

ويمكننا أن نقول أن معظم الصليبيين الذين حطُّوا في بلاد الشام كانوا مقاتلين، فهم إلى جانب الأعمال المدنية التي يمارسونها كانوا يتشقون السلاح كلما دعا الأمر لذلك. والإمارة كانت تشكل وحدة مقاتلة فلكلّ أمير جيش من الإفرنج يأتمر بأمره، وهو دائماً على أهبة الاستعداد. كما عمد الصليبيون، كعادة كلّ مستعمر، إلى تشكيل جيش من المرتزقة من سكان البلاد المحليين ومن غيرهم فرسان ومشاة، ومع أن جيش المرتزقة هذا لم يكن موضع ثقة الفرنج حيث كثيراً ما خذلهم جنوده إبان المعارك سواء في الفرار من المعركة أو بالانضمام إلى جانب المسلمين إلا أن الصليبيين حافظوا عليه نظراً لقلة عددهم[1].

الرهبان الفرسان:

إذا كان انتصار الصليبيين، وإنشاء إماراتهم على الأرض الشامية، جاء على

(١) يشير جون هامرتن إلى أن الصليبيين كانوا يفرقون بين أبناء الدين الواحد في المعاملة ويضرب مثلاً أن المسيحي الكاثوليكي كان يعفى من الضرائب فيما كان المسيحي الأرثوذوكسي يدفعها ـ أنظر تاريخ العالم ـ ج ٤ ـ ص ٧٥٥.

يدْ عدد من القادة والأمراء المغامرين، فإن تثبيت هذا الانتصار ومدّ عمر هذه الامارات لعشرات السنين، إنما يعود الفضل فيه إلى تلك القوة الدينية العسكرية التي نطلق عليها اسم الفرسان الرهبان - التي ضمت ثلاث طوائف هي فرسان الهيكل وفرسان القديس يوحنا، وفرسان التيوتون.

فهذه الطوائف الثلاث جمعت بين الرهبنة الدينية ومداواة الجرحى والفروسية، وكانت مهمتها الأساسية حماية الصليبيين والذود عنهم والعناية بالمرضى والجرحى، وكان شعارها بادىء الأمر: الفقر، والطاعة، والإخلاص.

١ - فرسان القديس يوحنا:

نشأت هذه الطائفة في القرن الحادي عشر في مستشفى بالقدس أنشىء للعناية بالحجاج، ومن هذه المستشفى، اشتق اسمها الثاني الذي عرفها به العرب المسلمون وهو «الاسبتالية». وقد أعيد تشكيل هذه الطائفة بعد إدخال أساليب الفروسية إلى مهامها الأساسية الرهبنة والعناية بالمرضى، وتبعاً لذلك، ازدادت سطوة أفرادها وثروتهم، ولعب فرسان القديس يوحنا أو الأسبتالية، دوراً مهماً في الحروب الصليبية حيث أصبحوا مع الطوائف الأخرى القوة الضاربة في المنطقة التي استولى عليها الصليبيون، وبعد فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس عام ١١٨٧م، انتقل هؤلاء الفرسان إلى عكا ثم إلى قبرص عام ١٢٩١م. واستقروا في رودس عام ١٣١٠ وأصبحوا يعرفون بفرسان رودس وقد تعاظمت ثروتهم وسطوتهم ثم انتقلوا إلى مالطة، منذ عام ١٥٣٠ بعد صراعهم مع الأتراك العثمانيين ومنحهم هذه الجزيرة شارل الخامس، كما هاجموا الأراضي الليبية واحتلوا طرابلس عام ١٥٣١ حتى تم طردهم منها عام (١٥٥١) على يد العثمانيين فعادوا إلى مالطة وقد بدأ ذكرهم يخبو حتى جاءهم نابليون عام ١٧٩٨ واستولى على الجزيرة وانتقم شر انتقام من هؤلاء الفرسان الذين اتهموا بمساعدة أنصار الملكية في فرنسا بعد قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩.. ومنذ ذلك التاريخ زالت هذه الطائفة، إلا من بعض الطوائف الدينية التي اتخذت هذا الاسم في بعض بلدان أوربا.

٢ - فرسان الهيكل أو فرسان الداوية

وهي الهيئة العسكرية الدينية الثانية التي نشأت في القدس عام ١١١٨م برئاسة « هيودي باين » لحماية الحجاج المسيحيين، وازداد عددهم تدريجياً، وانضمّ إلى هذه الطائفة كثير من النبلاء الشبان واتخذت بادىء الأمر من الفقر والجوع شعاراً لها، ولكن وبفضل الهدايا والمنح التي انهالت عليها من أوربا غدت تشكل قوة مالية ضخمة، وقد ثبتت جذورها بفضل شجاعة فرسانها الذين أدوا دوراً في المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين، غير أن فتوحات صلاح الدين الأيوبي أجبرت الداوية أو فرسان الهيكل إلى الجلاء عن بيت المقدس واستقروا في عكا. حيث كان لهذه الطائفة دور بارز في الحملة الصليبية الثالثة.

وبعد سقوط عكا عام ١٢٩١ بيد المسلمين، انسحب فرسان الهيكل إلى قبرص ثم إلى فرنسا، وتخلوا نهائياً عن صفتهم الحربية والدينية أيضاً وأصبحوا، بسبب الأموال التي حصلوا عليها، والأساليب الحضارية والذكية التي تعلموها من الشرق من كبار تجار وصناع أوربا وشكلوا كبريات البيوت المالية فيها، وأطلق عليهم الإفرنسيون « صيارفة أوربا ». لكن ذلك كان شؤماً عليهم فقد أثار غناهم حسد الأمراء والملوك والرهبان وتولى فيليب الرابع أو الجميل ملك فرنسا قيادة حملة دموية على جماعة هذه الطائفة فحطم كيانهم واستولى على أموالهم ثم أشعل النار في ستين واحداً منهم بما فيهم رئيسهم آنذاك (جاك دي مولاي) وخبا ذكرهم بعد ذلك.

٣ - فرسان تيوتون:

وهي طائفة عسكرية دينية أسسها الرهبان الألمان في فلسطين عام ١١٩٠م، وكان لأعضاء هذه الطائفة دور مهم في الحروب الصليبية، لكن فتوحات صلاح الدين أجبرت التيوتون إلى العودة إلى ألمانيا حيث استأنفوا نشاطهم الحربي هناك ضد منطقة بروسيا الوثنية وأبادوا سكان هذه المنطقة الأصليين وأسكنوا فيها جاليات ألمانية مسيحية، وفي عام (١٥٢٥م) أعلن رئيس هذه الطائفة اعتناقه للمذهب البروتستانتي، واضمحلّ ذكر هذه الطائفة وأصبحت الآن في النمسا كطائفة فخرية حافظ أعضاؤها على ارتداء زيّ فرسانها المكون من طيلس أبيض عليه صليب أسود مطرز بالذهب.

... لقد وسع الفرسان الرهبان بفئاتهم هذه من مهامهم العسكرية؛ فلم يكتفوا بالحرب براً بل أصبح لهم أسطول بحري، خاض كثيراً من المعارك البحرية وكانوا يعقدون المعاهدات ويجبون الضرائب من الأقوام التي تحت سيطرتهم داخل الأراضي المقطعة لهم، وهم بتشكيلاتهم هذه يؤلفون حكومات مستقلة عن الأمارات اللاتينية الأخرى، وقد أدوا في سنيهم الأولى من تكوينهم خدمات بارزة للصليبيين، فاكتسبوا بذلك عطف العالم المسيحي الأوربي، وأخذت الهدايا والهبات ترد إليهم من ديار الغرب، حتى تجمعت لديهم ثروات طائلة، انتهت بهم إلى تفشي الفوضى بينهم وإلى الانحدار الخلقي، لا سيا بين الفرسان الهيكليين الذين أصبح عددهم في أواخر الحكم الصليبي/١٥/ألف راهب. ودبت المشاحنات بين هذه الطوائف الثلاث وأصبحت كل طائفة تلصق بالأخرى شتى أنواع التهم، كما أكثروا في شتم بعضهم مما أثر في سمعتهم في أواخر الحروب الصليبية وزعزع مركزهم في نفوس الصليبيين، لدرجة أنهم أصبحوا مضرب الأمثال في أوربا بسوء الخلق والكذب والوقاحة.

القلاع الصليبية

اهتم الصليبيون وعلى الأخص الرهبان الفرسان بالإستيلاء أو بناء القلاع في المناطق التي احتلوها في بلاد الشام، لا سيا على الساحل الغربي من سوريا والأردن، ولا زالت آثار هذه القلاع موجودة حتى الآن، ويلاحظ المرء غلبة الفن القوطي عليها، التي تتميز هي والقصور التي أقامها الصليبيون بالأقواس والعقود المزدوجة والمنكسرة... وقد تركز بناء الحصون والقلاع في مواقع استراتيجية على غاية من المنعة من حيث الموقع والبناء، وكانت هذه الحصون مركز الحاكم الإقطاعي الصليبي؛ وأهم هذه القلاع والحصون:

١ - قلعة صلاح الدين

ويطلق عليها اسم قلعة صهيون، وهي تقع على ذروة جبل قرب بلدة الحفة على الساحل السوري في منطقة مدينة اللاذقية، بنى الصليبيون هذه القلعة عام ١١١٩ واستخلصها منهم صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٨ م، ولقد حفر الصليبيون خندقاً حول القلعة حتى أصبحت منعزلة عن جميع المرتفعات المجاورة وأنشأوا من الجهة الشمالية

جسرا وحيداً محميا للمرور منه، وأضاف المسلمون بعد الاستيلاء على القلعة جامعا صغيرا ومئذنة وحماما ولا زالت أثار هذه القلعة باقية حتى هذا اليوم.

٢ - قلعة المرقب

تقوم على رابية ضخمة قرب بلدة بانياس على الساحل السوري، وكانت قلعة عربية، ثم استولى عليها الصليبيون عام ١١١٧م، وأصبحت مركز امارة صليبية تابعة لمدينة إنطاكية، وقد سيطر على القلعة بعد ذلك فرسان السبتالية (القديس يوحنا) عام ١١٨٦، وتتميز هذه القلعة باتساعها وبارتفاع سورها المزدوج. وحفر الصليبيون خندقا من الجهة الشرقية والجهة الشمالية لفصلها عن الهضاب المجاورة وفشل صلاح الدين في اختراقها وقد حاصرها الظاهر بيبرس ونجح في عزلها، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها أيضاً واضطر ساكنيها لان يعقدوا معه صلحا عام ١٢٧٠م. وتمكن أخيرا السلطان قلاوون من الاستيلاء عليها عام ١٢٨٥م.

٣ - قلعة الحصن - او الأكراد

تقع على رابية منعزلة عن جميع المرتفعات المجاورة لها بصورة طبيعية، في المنطقة الساحلية لسوريا وعلى السفوح الشرقية لجبال النصيرية، السورية، واختار موقع القلعة لأول مرة العرب الذين بنوا فيه حصنا عام ١٠٣١ ثم احتل الصليبيون هذا الحصن وعمروا به قصرا حصينا، أطلقوا عليه كلمة (كراك) ثم سمي حصن الأكراد ويعرف الآن بقلعة الحصن.

وقد أصبح هذا الحصن مركزا مهماً من مراكز فرسان القديس يوحنا عام ١١٤٢ وفشل نور الدين زنكي وكذلك صلاح الدين الأيوبي من الاستيلاء عليه، وكان يشكل شوكة حادة في جنب القوات الإسلامية حتى وفق الظاهر بيبرس باقتحامه عام ١٢٧١، وتعتبر هذه القلعة من أجل القلاع الصليبية وأهمها، وحالتها حاليا جيدة بسبب الاهتمام بها من قبل مصلحة الآثار السورية.

٤ - قلعة الكرك

شيد الصليبيون - فرسان الاسبتاريه - هذه القلعة في المنطقة الواقعة بالاردن

حاليا ـ كانت تعرف قديا باسم «كيرمؤاب» وتعتبر من القلاع الحصينة جدا، وقد استولى عليها صلاح الدين عام ١١٨٨ وما زالت باقية حتى اليوم.

٥ ـ قلعة الشوبك

شيدها بلدوين الأول الصليبي عام ١١١٥ وهي تشرف على الطريق الصحراوي المار من الأردن والواصل بين دمشق والحجاز، سماها الصليبيون مونتريال ومونس ريجالس، سقطت بيد صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين وبعد اسر، ثم قتل قائدها الصليبي (أرناط) رينالد دي شاتيون عام ١١٨٧.

العلاقات بين الصليبيين والمسلمين

اتسمت العلاقات بين المسلمين والصليبيين عموما بالعداء، وحاول الصليبيون، إقامة علاقات سلمية سواء مع العرب مسيحيين ومسلمين الذين كانوا داخل مناطق سيطرتهم، أو مع جيرانهم، ونجحوا أحيانا، إما باستعمال السلاح أو لتخاذل بعض الحكام السلاجقة، من الوصول إلى علاقات سلمية، ولكنها كانت دائماً متقطعة ومحدودة.

وبالنسبة لمن كان تحت سيطرتهم فإن الصليبيين، بعد أن استقر بهم المقام أخذوا يعاملون هؤلاء معاملة فيها كثير من الحذر والتخوف، وعمدوا الى ارضائهم واتباع سياسة لينة نسبياً معهم ليأمنوا جانبهم، فقد تركوا لهم مثلا مزارعهم وبيوتهم ومصانعهم واكتفوا بأخذ الجزية المقررة منهم. أما السلطة السياسية والعسكرية فكانت بأيدي الصليبيين، وكذلك السلطة الدينية على أتباعهم. وهذه السياسة يؤيدها الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي زار أثناء رحلته إلى المشرق البلاد التي كان يسيطر عليها الصليبيون ويقول ابن جبير في كتاب رحلاته:

« ... رحلنا من تبنين ـ وهو حصن صليبي ـ واقع على الحدود ـ يوم الاثنين، وطريقنا إلى عكا، وكله ضياع متصلة، وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية عن كل رأس دينار وخمسة قراريط ـ خمس دينار ـ وللإفرنج على ثمر الشجر ضريبة يؤديها

الفلاحون، ولهم أيضاً مساكنهم وجميع أحوالهم متروكة لهم... »[1].

وبالنسبة لعلاقات الصليبيين بالمسلمين الذين هم خارج مناطق سيطرتهم، فقد كانت مرهونة بنتائج المعارك الحربية التي كانت تدور بين الطرفين فإذا انتصر الصليبيون أملوا شروطهم على الجهة المغلوبة وكانت هذه الشروط تتضمن بنودا لتقديم المساعدات الفنية والطبية والاقتصادية للجانب الصليبي، فلقد أيقن الصليبيون منذ أن حطوا ببلاد الشام أن هؤلاء الذين غزوهم يفوقونهم تحضرا ومدنية، لذلك كانوا يحرصون على أن يستفيدوا من علم المسلمين لتدبير شؤون حياتهم في أماراتهم، وكثيراً ما استعملوا حد السيف لإرغام المسلمين على تقديم معارفهم وعلومهم للصليبيين، والمسلمون عرفوا ذلك، فكانوا يسخرون من الصليبيين على بدائيتهم وجهلهم، ويروي الفارس والأديب العربي أسامة بن المنقذ صورا عن هذه العلاقات وعن تأخر الفكر والفهم عند الصليبيين. وأنقل فيما يلي هذه الرواية الغريبة التي ذكرها ابن المنقذ في كتابه الاعتبار.

« ... ومن عجيب طبهم (طب الصليبيين) أن صاحب المنيطرة (حصن صليبي) كتب إلى عمي (أمير منطقة شيزر)[2] يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له: ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له ما أسرع ما داويت المرضى فقال أحضروا لعندي فارساً قد طلعت في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة، وأصلحت وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء

---

(١) رحلة ابن جبير - بيروت١٩٦٤. وابن جبير هو أبو الحسن محمد بن أحمد الكتاني توفي عام ٦١٤ هـ ولد في الأندلس وقام بثلاث رحلات وزار ديار الشام ومنها المناطق التي كانت تحت الاحتلال الصليبي بما فيها القدس، وذكر في كتابه الكثير عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتحدث عن الأسرى المسلمين الذين كانوا مكبلين بالحديد والأغلال في سجون الصليبيين ووصف بعض المعارك التي دارت بين الطرفين.

(٢) شيزر إمارة صغيرة تقع على نهر العاصي شمال سوريا، حكمتها أسرة بني المنقذ العربية مدة طويلة وقد صمدت في وجه الهجمات الصليبية التي تعددت عليها واضطر حاكمها آخر الأمر إلى عقد معاهدة سلام مؤقتة مع الصليبيين الذين طوقوا بلدته من كل الجهات وقطعوا عنها المؤن وقد اشترك البيزنطيون في حصار المدينة، ورغم هذه المعاهدة فقد بقي الصليبيون خارجها ولم يستطيعوا اقتحامها. وفي هذه الإمارة ولد أسامة بن المنقذ الذي دون مذكراته اليومية عن الفترة التي حكم فيها الصليبيون البلاد الشامية ويعتبر الكتاب من المصادر التاريخية المهمة التي تلقي الضوء على الحياة اليومية للصليبيين والمسلمين.

يداويهم:... ثم قال للفارس: ايا أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ فقال أعيش برجل واحدة، قال احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعة، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة، ما انقطعت، ثم ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات الفارس من ساعته، ثم أبصر المرأة فقال هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها، فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف فقال الشيطان قد دخل في رأسها فأخذ الموس وشق رأسها صليبياً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت من وقتها . . . »[١].

وكانت الحدود بين المسلمين والصليبيين مفتوحة خاصة أيام السلم، وكان المسلم يستطيع الدخول إلى المناطق التي كان يحتلها الصليبيون ويتصل مع إخوته المسلمين ويتبادل التجارة والسلع معهم ويقول ابن جبير: إن قوافل التجارة كانت مستمرة حتى أيام الحرب بين المسلمين داخل حدود الصليبيين وخارجها، وهذا يدل أن الغزاة لم يكونوا قادرين على فرض هيمنتهم الكاملة على ما بين أيديهم، ويقول المؤرخ العربي رفيق التميمي: إن من الأمور التي كانت تؤدي إلى مشاحنات كثيرة بين الصليبيين ما كان يعمد إليه بعض البحارة الفرنج من تهريب الأسلحة إلى الأمراء المسلمين، فإن هذا التهريب كان يغضب اللاتين ويحملهم في كثير من الأحوال على اتخاذ تدابير قاسية لمنع ذلك التهريب، وحينما استفحل الأمر وضعت الحكومة اللاتينية تشريعاً خاصاً جاء فيه: [أن كل من يبيع خصوم الصليبيين حديداً أو أسلحة أو خشباً لبناء السفن أو سفناً جاهزة للسفر، وإن كل من يشتغل لحساب المسلمين ولمصلحتهم، إما بصفة ربان سفينة أو بحري، يعاقب بالحرمان من الكنيسة وتصادر أملاكه وتسلب حريته الشخصية، فإذا وقع أسيراً في قبضة صليبي حقّ له أن يعتبره رقيقاً يباع ويشترى][٢]. على أن صرامة هذا التشريع لم تحل دون الاستمرار في تهريب الأسلحة وسائر المواد الضرورية للحرب إلى معسكرات المسلمين حتى انه اعترف بهذا وصرح به ونصّ على وجوب السماح به في معاهدة عقدت بين سلطان مصر

---

(١) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص١٣٢ مطبعة جامعة برنسون.

(٢) التميمي ـ الحروب الصليبية ـ ص٧٦.

وجمهورية بيزا، الطليانية، وكان المسلمون يهزأون بهذه المقررات والتشاريع الصليبية، ويواصلون شراء ما كان يعرضه عليهم المهربون الفرنج من أسلحة وذخائر ليستخدموها ضد الفرنج في ساحات القتال.

وعلى غير العادة فقد أصبح الغالب يقلد المغلوب في نمط حياته وسلوكه ومأكله وملبسه، وأصبح الصليبيون الأولون يختلفون بالعادات والطباع والخلق عن الأقوام الإفرنجية التي جاءت بلاد الشام حديثاً، ويقول أسامة بن المنقذ في هذا الصدد:

[... ليس عند الفرنج من النخوة والغيرة وهم يعالجون مرضاهم بطرق ابتدائية ويحاكمون المذنبين منهم بأساليب غبية عجيبة، وكل ما هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية يكون أجفى أخلاقاً من الذين عاشروا المسلمين...]. كما يورد ابن المنقذ قصة عن شخص مسلم صادق فارساً إفرنجياً من الفرسان القدماء الذين خرجوا في أول خروج الفرنج وقد أعفي من الخدمة فقدم الإفرنجي للمسلم مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة، ولكن المسلم تردد في تناول الطعام فقال له الإفرنجي: كُلْ وأنت طيب النفس فأنا ما آكل من طعام الإفرنج ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبخهن ولا يدخل داري لحم خنزير[1]...

واهتمّ المسلمون والصليبيون على حدّ سواء في تقصي أخبار بعضهم البعض، وتعيين جواسيس وعيون للوقوف على آخر أخبار الطرف الثاني، ويقول التميمي: إن أخبار المسلمين كانت تصل إلى الفرنج بسرعة، والغالب أن هؤلاء برعوا في التقاط الأخبار أكثر من الذين نزلوا عليهم؛ فكان الفرنج حينما يبلغهم حادث في ديار المسلمين يضعون خططهم الحربية وكانوا يستخدمون أناساً من أبناء نحلتهم من الأرمن وغيرهم ولربما كان للمسلمين أيضاً شأن في ذلك طمعاً في مال أو انتقاماً من أمير، وقد ذكر المؤرخون أن صاحب إنطاكية الصليبي أرسل إلى عزالدين مسعود صاحب حلب يخبره بقتل والده قسيم الدولة (آق سنقر البرسقي) صاحب الموصل على يد الباطنية قبل أن يصل إليه الخبر، وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدة عنايتهم بمعرفة أحوال المسلمين[2].

---

(١) كتاب الاعتبار أسامة بن منقذ. ص١٣٤.
(٢) الحروب الصليبية رفيق التميمي ص (٧٨).

ويبدو أن المرأة الإفرنجية سحرها الفارس العربي برجولته وشهامته لدرجة أنها أصبحت عين المسلمين داخل معسكرات الصليبيين، استخدمها المسلمون لنقل أخبار تحركات الإفرنج إليهم، ويؤيد ذلك ما نقله صاحب كتاب شفاء القلوب[1] حيث يقول: إن المعظم عيسى بن عبدالملك العادل أبي بكر، كان يختار الجواسيس أثناء جهاد الأيوبيين ضدّ الصليبيين ليأتوه بالأخبار، وكان هؤلاء الجواسيس يعتمدون على النساء في تصيد الأخبار. وان جواسيس المعظم بجبل عكا كانوا اتفقوا مع بعض نساء الفرنجة أن ينرن إليهم بالشموع ليلاً لينقلن إليهم أخبار الإفرنج، فإذا عزم الفرنجة على إخراج مائة جندي أوقدت المرأة شمعة واحدة، وإن كانوا مئتين أوقدت شمعتين ثم تشير المرأة بهذه الشموع إلى الجهة التي يريد الجند قصدها... وكان المعظم لا يضنّ بالمال الوفير ويعطي لهؤلاء النسوة جزاء ما يؤدين من خدمة، وقد حدثه مرة بعض الخاصة منتقداً بقوله هذا إسراف لا يحلّ، فقال: أنا أفدي الكثير بالثمين. ويروي المعظم عن نفسه أن الامبراطور فريدريك الثاني لما عزم على غزو الشام بغتة أرسل فارساً من لدنه يستطلع له الأخبار، فبعثت امرأة جميلة إفرنجية كانت على اتصال بهذا الفارس بالخبر إلى المعظم. فأرسل المعظم إليها ثياباً حريرية وأشياء نفيسة أخرى مكافأة لها. ولما عاد الفارس الفرنجي إليها ووجد تلك الهدايا الثمينة عندها سألها عن مرسلها فأخبرته، فذعر أول الأمر ولكنها ما زالت تلاطفه وتتودد إليه حتى رضي عنها، فكان إذا أتاه خطاب بعد ذلك من الأمبراطور حمله إليها فترسله إلى المعظم مختوماً كما هو..[2].

---

(١) كتاب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - لمؤلف مجهول - كتب للملك الأشرف أحمد صاحب حصن كيفا. أنظر المعجمي ص٧٩.

(٢) أنظر في كل ما تقدم في هذا الفصل بالإضافة الى المصادر المذكورة عن عادات وحياة الفرنج في الشام، رنسيمان - الحروب الصليبية ج ٢ - ص٤٦٧ وما بعدها - باركر - الحروب الصليبية - ص٦٠ - هامرتن - تاريخ العالم - ج ٤ ص٧٤٧ - زكي النقاش - العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج - ص٢٧ وما بعدها، وعن القلاع الصليبية في بلاد الشام - أنظر أبو الفرج العش - آثارنا في الإقليم السوري - ص٩٣ وما بعدها.

الفصل الخامس

بداية التحرك العربي الاسلامي

ثلاثون سنة مرّت على وصول الصليبيين إلى بلاد الشام وتأسيسهم ممالك وإمارات على أرضها، لم يقابل الصليبيون خلال تلك السنوات أية مقاومة تذكر من العرب المسلمين، وقد لاح للغزاة الفرنج أن الأمر انتهى لصالح بقائهم السرمدي في الديار الشامية، فقضوا هذه الفترة في إيجاد صيغ دستورية وقانونية لممالكهم وإماراتهم، وكذلك في الصراع والتشاحن فيما بين قادتهم الطامعين على اقتسام المغانم وحكم الإقطاعات الغنية.

لكن هذه الثلاثين سنة كانت من جهة أخرى الفترة التي استلزمتها الظروف الطارئة والوضع الجديد لإفاقة العالم العربي الإسلامي من سباته العميق، وبعث الهمم في نفوس أفراده للقتال وطرد الغزاة الغرباء. وقد لا تكون هذه السنون طويلة ذات شأن بالنسبة لنظرتنا إليها الآن، لكنها كانت بالنسبة لجماعة ذلك العصر قاسية مُرّة موحشة، وعلى كلّ حال، فقد تحولت هذه السنون العجاف، تنوراً ساخناً نضجت في أتونه العقول والنفوس، حيث أسفرت عن يقظة شاملة للعرب المسلمين وتمكنهم من طرد الصلبيين وتحرير بلادهم منهم.

وسأحاول فيما يلي التعرض لعوامل هذه الإفاقة الإسلامية ودوافع انبعاثها.

أولاً ـ عوامل دينية:

عندما وصل الصليبيون البلاد الإسلامية، حللوا دماء جميع المسلمين، واعتبروا قتل المسيحي للمسلم تقرباً إلى الله وانتصاراً للمسيح، وعملت هذه السياسة الطائفية المتزمتة على إثارة الحمية والغيرة على الإسلام في نفس كل مسلم، بعد أن بات في يقينه ان هؤلاء الوافدين إلى بلاده هدفهم الرئيسي مسح الدين الإسلامي من الوجود

ونشر المسيحية، وهذا يعتبر استحداثاً لأمر جديد لم يكن معروفاً بهذه الحدة من قبل، وقد تحددت أبعاد السياسة الصليبية بكل جلاء وبقناعة تامة في نفوس الخاصة والعامة من العرب المسلمين، فدفعهم للتململ أولاً ثم للاندفاع بقوة وعنف لصون دينهم والدفاع عن شريعتهم. ومن ناحية ثانية فقد تسبب تصرف الصليبيين هذا، ونظرتهم الطائفية الضيقة في خلق جو من النفور بين المسيحيين عموماً والمسلمين، كما تعتبر هذه الفترة تاريخياً، بداية لجميع الاصطدامات الدينية التي اكتست أحياناً كثيرة طابعاً دموياً بين المسلمين والمسيحيين خصوصاً عام ١٨٦٠م في جبل لبنان ودمشق، كذلك أحداث هذه الأيام الجارية في لبنان. ويقول الأستاذان جورج حداد وراتب الحسامي في هذا الخصوص: «إن الاضطهاد الطائفي عموماً لم يكن موجوداً إلا في أدوار الانحطاط والضعف، خصوصاً بعد الحروب الصليبية التي أثارت الضغائن»[١]. وأكد ذلك أيضاً الأستاذ (برنارد لويس) في كتابه الغرب والشرق الأوسط فقال: «جاء الصليبيون يحملون معهم تراثاً ضخماً من الشكّ والتعصب، أثروا به في علاقة العرب المسيحيين بجيرانهم المسلمين. وأضعفوا الصلات التي كانت قائمة قبل قيام الحروب الصليبية»[٢].

لقد انطلق العرب المسلمون من جزيرتهم في القرن السابع الميلادي وهم يحملون الشعار الإسلامي (لا إكراه في الدين) بالنسبة لأهل الكتاب اليهود والنصارى خاصة، وكان المسلمون في عصر النبوة يميلون إلى أهل الكتاب من المسيحيين لاعتقادهم بأن دينهم أقرب إلى تعاليم الدين المسيحي من المجوس وغيرهم، كما أن القرآن أمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن [ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون] وكانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين منذ فجر الإسلام تتسم بطابع الوحدة والإخاء؛ فلم تكن هناك خصومات سياسية بين النصارى والنبيّ، ولم يجد الرسول الكريم سوى بلاد النجاشي الحبشي المسيحي موئلاً للمسلمين من بطش المشركين بهم، وقد كانت هذه المعاملة الودية مسحوبة على اليهود أيضاً، غير أن هؤلاء اتبعوا أسلوب الغدر ونقض المواثيق التي أبرمت بينهم وبين المسلمين فكان نتيجة

---

(١) موجز تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، حداد، دروبي ص١٤٤.
(٢) العرب والشرق الأوسط، برنارد لويس، الترجمة العربية ص٢٢.

ذلك إجلاءهم عن المدينة المنورة وخيبر، كما لم يرد في القرآن أية آية تهضم حقوق أهل الكتاب، وكل ما نصّ عليه القرآن فرض الجزية وهي ضريبة ضئيلة يدفعها أهل الكتاب نظير حماية المسلمين لأرواحهم وأملاكهم وأعراضهم، حتى ان أبا عبيدة بن الجراح حين اضطرّ للانسحاب من مدينة حمص أعاد للمسيحيين أموال الجزية التي أخذها منهم بعد أن سقطت أسباب جبايتها، وكانت سياسة المسلمين تقوم على نشر الدعوة الإسلامية عن طريق الحجة والإقناع بين أهل الكتاب، فإما تقبل أو ترفض، فإذا رفضت فتوجب قبول الجزية أو الحرب، وسمى المسلمون أهل الكتاب الذين قبلوا دفع الجزية بأهل الذمة، ومعنى الذمة العهد والضمان أي دخول هؤلاء في عهد وضمان المسلمين وتسقط الجزية عن الذميّ الذي يعتنق الإسلام غير أن عبد الملك بن مروان الأموي اضطرّ إلى جبي الجزية حتى من أهل الكتاب الذين أسلموا، بعد أن اتسعت فتوحاته واحتاج لأموال كثيرة لتغطية نفقات الحرب والقتال، وحين تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز ألغى جباية الجزية من الذميين المسلمين ونهى عنها بقوله: إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً. وعموماً فقد كانت أهمّ الحقوق التي أعطتها الدولة الإسلامية لأهل الذمة ـ كما يقول الدكتور حداد ـ الحرية الدينية والمعتقدات وإقامة الشعائر والمراسم الدينية، وكان من أهم حقوق الذميين على الدولة الإسلامية حمايتهم بعد دفع الجزية التي يقول (الماوردي) إن هذه التسمية مشتقة من الجزاء وأنها وضعت لكي يقرّ الذميون في دار الإسلام، وعندها يكون لهم حقان: حقّ الكفّ عنهم، وحق الحماية لهم. وهذه الجزية فرضت عليهم مقابل فرض الزكاة على المسلمين وقد حضّ النبيّ الكريم وخلفاؤه الراشدون على الرفق والإنصاف في جبايتها، كما كان الخلفاء يعاملون الجماعات غير المسلمة معاملة حسنة ويحافظون على العهود التي كتبت لهم متبعين في ذلك قول الرسول « من ظلم معاهداً أو انتقصه من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة » وكانت الطوائف من أهل الذمة تنتخب رؤساءها الروحانيين بمحض إرادتها وتقدم أسماءهم للخليفة الذي يعتمدهم ويعتبرهم ممثلين لطوائفهم في قصر الخلافة، كما أبقت الدولة الإسلامية لأهل الذمة محاكمهم وقضاءهم الخاصين كما كان للذمي الحق في أن يعرض قضاياه على القضاء الإسلامي إذا أراد ذلك، حتى إن قاضي مصر محمد بن مسروق قضى في عام ١٧٧ هـ بين جماعة من الذميين اختلفوا فيما بينهم بناء على رغبتهم، واعتمد المسلمون وخاصة الخلفاء على الذميين في تسيير شؤون

الدولة؛ فكان الكثير منهم الكتبة في الدواوين والماليين والأطباء والمهندسين والمترجمين، ومثالاً على ذلك فإن منصور بن سرجون الدمشقي تولى إدارة المالية في سوريا أيام البيزنطيين وبقي في منصبه الحساس هذا أيام الخلافة الأموية، كما استمرت أسرته في وراثة هذا المنصب حتى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك. وكان رئيس النصارى في بغداد الطبيب الخاص للخليفة العباسي، بل إن ثقة المسلمين بإخوانهم المسيحيين وصلت درجة سلموهم فيها الوزارة كما كان في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي نصّب عيسى بن نسطورس النصراني الوزارة، وقد أفتى فقهاء المسلمين أن وزير التنفيذ لا حرج ذمياً أن يكون من أهل الذمة الموثوق بهم.

ويتضح مما تقدم تفصيله أن المسلم والمسيحي عاشا معاً وعملا جنباً إلى جنب في كل مجالات الحياة، وفي المعرفة والعلوم والاقتصاد، دون أن يتحسس طرف من الطرف الآخر بسبب اختلاف في الدين أو المعتقد، إلى أن جاء الغزو الصليبي فانقلبت روح التسامح والتعاون بين المسلمين والمسيحيين إلى روح تفيض حقداً ومرارة، وقد كانت هذه السياسة الصليبية القاتلة لروابط الاخوة والتسامي من القوة بحيث هزت وجدان المسلم وزعزعت في نفسه جميع معاني التضامن والتسامح خصوصاً بينه وبين المسيحي الوافد من الغرب بسيفه الذي لا يرحم وبعقله الجاهل المغلق، فاندفع يحارب الغزاة بكل قواه[1].

ثانياً: عوامل فكرية وحضارية:

جاء الفرنج إلى بلاد الشام بسيوفهم وبتعاليمهم الدينية الساذجة وبعاداتهم الفطرية البدائية، فصدموا بالمستوى الفكري والحضاري الذي كان عليه العرب المسلمون، لكن صدمة المسلمين كانت أشد حين اكتشفوا مدى جهل وبدائية الوافدين الفرنجة، وحين يشعر المغلوب أنه أكثر تحضراً وفهماً وإدراكاً من غالبه والمتحكم بحريته وسيادته، يكون ذلك سبباً كافياً ليتحرك المغلوب لإعادة الأمور إلى نصابها

---

(١) يورد الدكتور زكي النقاش ما ذكره الأستاذ آدم متز، أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بال بسويسرا من أن الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير أبعد مما ذهبت إليه الدولة الإسلامية بالنسبة لأهل الذمة، كما يقول الأستاذ متز أنه كثيراً ما كان رجال الشرطة المسلمون يتداخلون بين الفرق النصرانية للتفريق بينها - أنظر زكي النقاش - العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج - ص٨٧.

الصحيح، خصوصاً وقد أصبح المغلوب أستاذاً ومروضاً لبدائية الغالب.

لقد تخلى الصليبيون بعد احتكاكهم بالعالم الإسلامي عن عاداتهم وجميع القيم السطحية التي حملوها معهم، بعد أن أصبحت هذه العادات والقيم موضع سخرية واحتقار المسلمين عموماً، وقد أفاض المؤرخ العربي أسامة بن منقذ في كتاب ذكرياته «الاعتبار» في وصف عادات الإفرنج وجهلهم المطبق، كما أشار أسامة الى تلمذة الفرنجة على يد المسلمين بقوله: «فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تبلدوا (أي صاروا كأبناء البلد الإسلامي) وعاشروا المسلمين»[1].

ثالثاً: عوامل اقتصادية:

إذا كانت الحياة السياسية في بلاد الإسلام وبلاد الشام على وجه الخصوص في اضطراب وعدم استقرار بسبب تطاحن الحكام المسلمين على كراسي الحكم وتوسيع رقع الممالك التي يحكمونها، إلا أن الحياة الاقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة كانت مزدهرة بوجه عام عند العرب المسلمين، وكانت موانىء البحر الأبيض المتوسط المحطات الحيوية لازدهار تجارتهم وصناعتهم، فعن طريق هذه الموانىء كان المسلمون يوزعون سلعهم الخاصة أو السلع التي يجلبونها من بلاد الهند وغيرها إلى إفريقيا وأوربا، وقد اشتهر العرب بقدرتهم التجارية وتمكنهم من فنون البيع والشراء وإرضاء أذواق الناس خصوصاً أهل الشام حتى غدت التجارة والصناعة منذ القرن الثالث الهجري مظهراً من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، فكانت قوافلهم وسفنهم المحملة بالسلع المختلفة تجوب البلاد والبحار كلها، وقد وجدت نقود عربية في أقاصي الشمال الأوربي وفي مناطق نائية من إفريقيا. وكان هذا النجاح الاقتصادي موضع حسد المدن الإيطالية التجارية كالبندقية وجنوا وبيزا التي نمت وازدهرت بفضل السلع التي كان العرب المسلمون يجلبونها إليها من أقاصي المعمورة، وقد رنت هذه المدن لكسر احتكار العرب للمتجارة خاصة السلع التي ترد من آسيا الشرقية وعلى رأسها التوابل التي كان العرب يتحكمون في استيرادها وتحديد أسعارها المرتفعة، ومن المعروف أن رحلة فاسكو دي غاما التي أبحر فيها حول إفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح وكذلك رحلة ماجلان التي اكتشف فيها بالصدفة أمريكا،

---

(١) ابن منقذ - الاعتبار - ص١٣٤.

كانت أسبابها الأولى اكتشاف طريق إلى الهند لا تمرّ من بلاد العرب؛ وقد وجد تجار المدن الإيطالية في الحروب الصليبية فرصتهم لتدمير الاحتكار التجاري العربي، فوضعوا سفنهم تحت تصرف الصليبيين أثناء الحرب. وبعد أن دان الساحل السوري للسيطرة الصليبية سارع هؤلاء التجار واحتلوا جميع أسواق مدن الساحل السوري من إنطاكية وحتى القيسارية وعسقلان، وأخذوا في تضييق الخناق على تجار دمشق والقدس وحلب وغيرها من المدن العربية، ونجح تجار أوربا في إزاحة التاجر السوري والاغتناء على حسابه.

وبالنسبة للزراعة والصناعة فقد دمر الصليبيون أثناء غزوهم آلاف المزارع والمصانع، وأوقفوا الحركة النشيطة لهذين القطاعين الاقتصاديين المهمين، وانعكس ذلك على أوضاع المواطن العربي الحياتية وأثر في معيشته ورزقه، ويؤكد المؤرخ البريطاني برنارد لويس في كتابه « العرب في التاريخ » بأن الحملات الصليبية ليست بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى إلا محاولة مبكرة قصد بها التوسع الاستعماري، وكان الدافع إلى القيام بها هو الاعتبارات المادية، أما الدين فقد اتخذ وسيلة لتهيئة النفوس لها... ويضيف الأستاذ لويس « بأن تجار الجمهوريات الإيطالية الذين كانوا يسعون إلى الاتصال بمصادر تجارتهم مع البيزنطيين والفاطميين، والبارونات الذين كان يحفزهم الطموح وحب المغامرة، وأبناء النبلاء الذين كانوا يبحثون عن وسيلة رابحة للتكفير عن ذنوبهم... هؤلاء هم الذين كانوا أبرز رجال هذه الغزوة التي قام بها الغرب، لا أولئك الذين كانوا يسعون إلى إنقاذ القبر المقدس[1] ».

وينقل الأستاذ لويس عن المؤرخ الصليبي فولكر تشارتر قوله « في كل يوم يلحق بنا إلى الشرق أقارب وأصدقاء تاركين وراءهم كل ما كان في حوزتهم وهم في الغرب، وأما مَن كانوا فقراء هناك فقد أغناهم الله هنا، ومن كان خاوي اليدين إلا من دريهمات معدودات أصبح لديه من القطع الذهبية ما لا يحصره عدّ، ومَن لم تكن لديه قرية أصبح يمتلك، والمعطي هو الله، مدينة برمتها، فلماذا نعود إلى الغرب ما دام الشرق يهيء لنا كل هذا؟؟ »[2].

---

(١) العرب في التاريخ، برنارد لويس - ص٢١٤.
(٢) المصدر السابق ص٢١٦.

ومما لا شك فيه ان غنى هؤلاء الغزاة وثراءهم جاء على حساب السكان الأصليين من العرب، وعلى حساب الاستقرار والازدهار الاقتصادي الإسلامي الذي اضطرب وتخلخل، واتسعت تبعاً لذلك ساحات الفقر والعوز في المجتمع العربي المسلم وجأر الناس عامة بالشكوى من هذا البلاء الذي عمّ دار الإسلام.

رابعاً: عوامل سياسية واجتماعية:

عمد الصليبيون حين استقرّ بهم المقام في المناطق التي استخلصوها من المسلمين، على توزيع الأراضي المغتصبة فيما بين أمرائهم وقادتهم ومتنفذيهم، وحكموا هذه الأراضي وفق النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في أوربا آنذاك، ويرى هربرت فيشر أن الصليبيين لم يكتفوا بأن يطبقوا النظام الإقطاعي الحربي الذي درجوا عليه في فرنسا بل زادوه شيئاً من الصرامة..

وإذا كان النظام الإقطاعي الأوربي كما يقول ريجين بيرنو قد تكوّن بعوامل ذاتيه بحتة تحت ضغط الأحداث دون أن تكون له قواعد تفصيلية مرسومة واحدة، إلا أن هذا النظام قد قام على قاعدة أساسية ثابتة إن الأرض ومن عليها من بشر ودواب ومصادر رزق جميعها ملك خالص للمقطع.. لذا فإن هذا النظام رفضه المسلمون في ذلك الوقت، فالاسلام نصّ على المساواة بين البشر لا سيد ولا مسود، كلكم لآدم وآدم من تراب، وكان المسلم يتمسك بهذه المفاهيم الإسلامية حتى ان الحاكم المسلم المستبد المتعالي كان يعلم بأن نهج حكمه مخالف للشريعة الإسلامية ويعمل على إسكات معارضيه تارة باللين وأخرى بالعنف... وهنا تكمن نقطة الصدام في نظرة المسلم للحاكم والمحكوم، ونظرة الفرنجي لهما؛ فالإفرنجي استقرّ في عقله ان وضعه الاجتماعي سيداً كان أو عبداً هو قدَره ومصيره المرسوم في السماء قبل ولادته أي أن جوهر الارتباط الإنساني بين الفلاح والإقطاعي والعلاقات الجدلية بينهما كانت غائبة عن إدراك الإفرنجي، وقد استمرّت هذه الغيبة في أوربا حتى قبيل الثورة الفرنسية وخروج مفكرين وموجهين عملوا على توضيح الرؤيا وتحديد مفاهيم إنسانية جديدة في العالم الأوربي.

لقد رفض المسلم بقوة نظام وسياسة الإفرنجي وكبر في نفسه أن يكون هو وأولاده

ونساؤه وأرضه ملكاً لذلك الإفرنجي يفعل بها ما يشاء دون حسيب أو رقيب، لقد كانت نقطة صدام حادة بين سكان البلاد الأصليين والوافدين الأوروبيين[1].

ولكن النظام الإقطاعي الأوربي لم يشكل وحده نقطة الصدام الاجتماعي بين الفريقين، بل كانت أخلاق وعادات الإفرنج التي درجوا عليها تختلف اختلافاً بيّناً عن أخلاق وعادات العرب والمسلمين، من أمثلة ذلك أن المسلم اشتهر بغيرته الشديدة الصارمة على نسائه وعرضه وأنه يعتبر هذا الأمر في وزن حياته، وأنه على استعداد للموت ذوداً عنه، بينما كانت غيرة الإفرنجي على نسائه ليست بهذه الدرجة، وقد روى لنا أسامة بن منقذ مجموعة من الروايات في كتابه «الاعتبار» عن سلوك الإفرنج مستهجناً تصرفاتهم ساخراً من أخلاقهم، ومن هذه الروايات التي أوردها ابن المنقذ أن إفرنجياً دخل بيته مرة فوجد أحد أصدقائه نائماً على سريره بجانب زوجته، فما كان من الإفرنجي إلا أن صاح بصديقه: «وإن عدت لهذا العمل مرة أخرى فإنني سوف لن أكلمك أبداً». ويختم ابن المنقذ رواياته ساخراً: (فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته!).

كما يقول ابن المنقذ في مكان آخر من كتابه «... وليس عندهم [الإفرنج] شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلّاها مع المتحدث ومضى»[2].

كانت هذه العوامل مجتمعة كافية لإثارة المسلمين وتسابقهم للقتال لطرد الإفرنج، وقد لعب رجال الدين والعلماء والخطباء والشعراء دوراً كبيراً في شحذ الهمم وتوحيد كلمة المسلمين لقتال عدو دينهم وقوميتهم، كما لجأ بعض رجال الدين إلى وضع أحاديث نسبوها إلى النبي الكريم تمجد القدس وتجعل طريق الجنة يمرُّ منه. ومن هذه

---

(١) أود أن أشير هنا إلى أن حديثي منصبّ على العرب المسلمين أيام الحروب الصليبية وحدهم. إذ إن الوضع بعد دخول العرب عصر الانحطاط الكامل الذي تلا العصر الصليبي وقضى على الجذوة الحضارية الإسلامية، انقلب رأساً على عقب وأصبح الإقطاعي المسلم أشد ضراوة وقسوة من الإقطاعي الأوربي إبان العصور الوسطى، وخاصة في مصر، ويعتبر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر المحرر الأول للفلاح المصري من رقّ وعبودية الإقطاعي التي كانت بلا حدود.

(٢) كتاب الاعتبار. أسامة بن منقذ ـ مطبعة جامعة برستول، تحقيق فيليب حتي ـ ص١٣٥.

الأحاديث « ... عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله: صخرة بيت المقدس على نخلة، والنخلة على نهر من أنهار الجنة، وتحت النخلة آسيا امرأة فرعون ومريم إبنة عمران، ينظمان سموط أهل الجنة إلى يوم القيامة »[1].

ولحثّ الخلفاء والحكام على قتال الفرنجة عمد الفقهاء ورجال الدين إلى إصدار الفتاوى بعدم شرعية الخليفة الذي لا يمتدّ حكمه إلى المسجدين: المسجد الحرام في مكة، ومسجد بيت المقدس[2].

وأنقل هذه الأبيات التي قالها شاعر ذلك الزمن أبو المظفر الأبيوردي:

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلن يبقى منا عرضة للمراحم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أترضى صناديد الأعارب بالأذى	وتقضي على ذلّ كماة الأعاجم
فليتهم إذ لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيره بالمحارم[3]

وهكذا عمت الثورة كلّ نفس، وسجل التاريخ الإسلامي تظاهرات العرب المسلمين ضد حكّامهم المتقاعسين عن إنقاذ دار الإسلام خصوصاً ما أورده ابن الجوزي في « مرآة الزمان » من أن المسلمين كثر فيهم الضجيج وارتفعت أصواتهم في كل المدن العربية وخرج النسوة والصبيان والرجال في مظاهرة كبيرة عام ٥٣٢ هـ ودخلوا مساجد المدينة ومنعوا الناس من إقامة الصلاة وطلبوا منهم أن يتوجهوا لقتال الأعداء المرابطين في الغرب، وقد كانت هذه الثورة الإسلامية، وهده النقمة على الصليبيين تحتاج إلى القائد القادر على توجيهها نحو ميادين القتال بعد رصّ صفوفها، ومن المؤكد أن العرب المسلمين كانوا يعلمون ان أمر تحرير الأرض العربية لن يأتي من قيادة عربية فقد أضعفت القوى الفارسية ثم السلجوقية كل القيادات العربية، وكان آخرها دولة بني مرداس في حلب التي قضى عليها تتش بن ألب ارسلان عام

---

(١) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عبدالرحمن العليمي ص٢٣٦.
(٢) نفس المصدر السابق ص٣٤١.
(٣) ابن الجوزي - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - ج ٩ - ص١٠٨.

٤٧٢ هـ، والتي يصفها الأستاذ محمد كرد علي في خطط الشام بأنها كانت أول جمهورية في التاريخ العربي قامت في منطقة حلب شمال سوريا[١] فبعد القضاء على هذه الدولة خلت الساحة من أية قيادة عربية مهيأة لتزعم القافلة الإسلامية؛ فاتجهت أنظار العرب إلى القيادات التركية التي كانت تقبع بين الصفوف الخلفية من القوى السلجوقية، فدعمتها وتلاحمت معها، وكانت هذه القيادات على مستوى الأحداث، واستطاعت كما يقول الأستاذ البيومي، فهم روح العصر ومطلب العامّ والخاصّ من الناس؛ فخرج من هذه القيادات الخلفية ثلاثة رجال قادوا ـ على التوالي ـ جماهير المسلمين نحو ميادين القتال وحرروا الأرض العربية من الصليبيين، وهم: عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود وأخيراً صلاح الدين الأيوبي.

الأتابك عماد الدين زنكي:

يعتبر عماد الدين زنكي أولى القيادات الإسلامية البارزة التي تمكنت من استيعاب الوضع السياسي والاجتماعي للعرب المسلمين، واستطاعت بفضل ذلك استقطاب جماهير المسلمين وحشدها لقتال الإفرنج. ويعود نسب عماد الدين إلى أسرة تركية متواضعة منذ بداية صعود رجالاتها؛ فكان والد عماد الدين (أق سنقر) خادماً مرافقاً لملكشاه ابن السلطان السلجوقي ألب ارسلان، ولما توفي ألب ارسلان وآلت السلطة إلى ملكشاه رفع من منزلة أق سنقر بعد أن أنس فيه الإخلاص والفكر السياسي الناضج، وجعله من كبار أجرائه ومنحه لقب قسيم الدولة، ويبدو أن أق سنقر أصبح بفضل ذكائه يمتلك شعبية واسعة بين جنود الأتراك وبين السكان العرب أيضاً حتى أصبح موضع حسد زملائه الأمراء، وخاصة الوزير نظام الملك الذي أشار على السلطان بإبعاده عن بغداد وتعيينه والياً على منطقة مدينة حلب. ويقول ابن الأثير في كتابه «الباهر» في هذا الخصوص: «ان نظام الملك أشار على السلطان بتولية أق سنقر مدينة حلب وأعمالها، ويحكمه في عساكرها وأموالها، ويضيف إلى حكمه غيرها من البلاد، وكان قصده أن يبعده عن خدمة السلطان»[٢]. وأدى أق سنقر خدمات كبيرة لسيده ملكشاه في موقعه الجديد، فاستطاع إخماد معارضي حكم

---

(١) خطط الشام محمد كرد علي، ج ١ ـ ص٢٣٩.

(٢) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ابن الأثير. ص٤.

السلاجقة في حلب واللاذقية وحماه وغيرها، وكان إخلاصه الشديد لملكشاه سبباً في مقتله على يد (تاج الدولة تتش) شقيق ملكشاه الذي حاول انتزاع الحكم من أولاد أخيه بعد وفاته، فانضمّ أق سنقر إلى بركياروق ابن ملكشاه وفي معركة قرب حلب انهزم فيها جيش أق سنقر ووقع نفسه أسيراً بيد رجال تتش الذي أمر بقتله، ولم يخلف قسيم الدولة سنقر غير ولد واحد هو زنكي الذي لقب فيما بعد بعماد الدين، ولم ينس بركياروق إخلاص أق سنقر له فأمر عامله في الموصل كربوغا برعاية ولده عماد الدين الذي أتى به إلى الموصل وكان عمره آنذاك عشر سنوات، واعتبره كربوغا أحد أولاده. ويبدأ بروز عماد الدين السياسي منذ أن رفض الانضمام إلى حاكم موصل الجديد (جاولي سقاوه) في عصيانه على السلطان السلجوقي في بغداد، وكان هذا الموقف الذي اتخذه عماد الدين والذي يدلّ على تعلق هذا الشاب بالسلطنة السلجوقية والعمل على تقويتها ومقاومة الحركات الانفصالية التي قامت ضدها، فقد كان يرى، كما دلت على ذلك مواقفه السياسية بأن قوة الأتراك وسيطرتهم على البلاد العربية مرهونة ببقاء السلطنة السلجوقية في بغداد قوية مهابة الجانب، ووصل تعلقه بالسلطنة السلجوقية حد التعصب، واضعاً سيفه دائماً في خدمتها ضد مَن يحاول التمرد عليها سواء من العرب أو من الأتراك أنفسهم، وقد رأينا كيف عارض سقاوه كما وقف نفس الموقف عندما حاول حاكم آخر للموصل اسمه جيوس بيك العصيان على سلطان بغداد محمود، كما نراه يقف أيضاً بكل قوة أمام حركة العصيان التي قام بها العربي دبيس بن صدقه عام ٥١٧ هـ ضد الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، كما وقف ضد حركات الخلفاء العباسيين لاسترداد هيبتهم وملكهم من السلاجقة. وكل هذه المواقف والأعمال أسهمت في ارتفاع شأن عماد الدين وازدياد ثقة السلاطين به، فقد عهد إليه السلطان محمود بتسيير الأمور في بغداد نيابة عنه أثناء غيابه في همذان. وجاءت فرصة عماد الدين الذهبية حين شغر منصب والي الموصل بعد مقتل حاكمها البرسقي، ثم وفاة ابنه مسعود الذي تولى السلطة بعد مقتل والده، وقد رشح عماد الدين لتولي الحكم في الموصل اثنان من أعيانها وهما القاضي بهاء الدين أبو الحسن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الباغيسياني اللذان اتصلا بالسلطان محمود وأفاضا في مدح عماد الدين ورغبة أهل الموصل أن يكون حاكمهم، ووافق السلطان على تولية عماد الدين زنكي إمارة الموصل كلها وكتب منشوراً بذلك في رمضان من سنة ٥٣١ هـ

وسلم إليه ولديه ألب ارسلان وفروخ شاه وجعله أتابكهما؛ فأصبح عماد الدين يلقب بالأتابك. وأتابك، كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية، لفظة تركية تتألف من كلمتين (أتا) وتعني الأب و(بك) وتعني الأمير، وأصبحت رتبة يعطيها السلاطين الى الخلّص من أتباعهم الذين يعهدون إليهم تربية أبنائهم الصغار.

ومنذ هذا التاريخ وهو عام ٥٢١ هـ - ١١٢٧ م بدأت مرحلة جديدة مشرقة في تاريخ كفاح المسلمين لردّ الغزو الصليبي عن ديارهم[1].

سياسة عماد الدين:

قلت: إن عماد الدين امتاز عن غيره من الحكام الأتراك بالنضج والنظرة البعيدة ووعي كامل لمشاكل عصره، كما امتاز بالطموح السياسي والتطلع لأن يكون زعيماً إسلامياً متجاوزاً حدود إمارة الموصل، ولتحقيق هذا الطموح والتطلع فقد رسم لعمله سياسة ارتكزت على تجميع القوى الإسلامية تحت إمرته وحشدها في مواجهة الصليبيين، وبدأ نهجه هذا في القضاء شيئاً فشيئاً على دول المدن والإقطاعات الصغيرة والزعامات المتعددة في البلاد الشامية.

أمضى عماد الدين السنة الأولى من حكمه في توطيد مركزه داخل ولاية الموصل التي كانت أوضاعها غير مستقرة بسبب كثرة الطامعين في حكمها. وأحاط نفسه بمجموعة مختارة من أنصاره ومؤيدي سياسته وسلمهم إدارة البلاد، وبعد أن قوي مركزه في الداخل انطلق لتحقيق المرحلة الثانية من سياسته في القضاء على الزعامات التركية المتعددة في بلاد الشام ومدّ سلطانه إلى المناطق التي بحوزتها، وكانت الخطوة الأولى ضمّ جزيرة ابن عمرو وإربل ونصيبين والخابور وسنجار وحران، وهي مناطق قريبة من الموصل؛ ثم وجه أنظاره نحو حلب، وقبل تحركه أبرم معاهدة هدنة مع جوسلين أمير منطقة الرها الصليبي، وتعهد الطرفان فيها بالمحافظة على السلم بينهما لمدة سنتين فترة سريان هذه المعاهدة، وبعد أن أمن جانب الصليبيين من الشمال اتجه إلى مدينة حلب بجيشه؛ فوصلها في محرم ٥٢١ هـ ويوليو ١١٢٨ م، واستطاع بسهولة

---

(١) أنظر في كل ما تقدم - أبو شامة - الروضتين - ج ١ - ص٢٩ وما بعدها، ابن الأثير - الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية - ص١٥ - ابن الجوزي - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج١٠ - ص٥ وما بعدها - ابن واصل - مفرج الكروب - ج ١ - ص٣١ وما بعدها.

الاستيلاء على المدينة وقلعتها، وقد استقبل من شعبها بالترحاب والتهليل، وبهذا العمل الذي وحد فيه عماد الدين الجبهة الشمالية الأساسية، تمكن من عزل منطقة الرها عن بقية الامارات الصليبية في الغرب والجنوب، كما تمكن عماد الدين من أخذ تفويض في حكم الموصل والجزيرة والشام من السلطان السلجوقي في بغداد، الأمر الذي قوّى مركزه وأسبغ على أعماله وتحركاته صفة الشرعية، ثم توجه بعد حلب إلى مدينة حماه فاستولى عليها وضمها إلى مناطق نفوذه بعد أن كانت خاضعة لنفوذ (بوري) حاكم دمشق.

واضطرّ عماد الدين للعودة إلى الموصل بعد اضطراب الأحوال في بغداد إثر موت السلطان السلجوقي محمود وتنازع أبنائه على وراثة الحكم، واستغلال الخليفة العباسي المسترشد بالله هذا الوضع لتدعيم مركزه والقضاء على الحكم السلجوقي، وقد بعث مسعود شقيق السلطان الراحل رسالة عاجلة إلى عماد الدين طالباً منه التدخل؛ ولبى عماد الدين هذه الدعوة، وحرك جيشه نحو بغداد، ولكن جيش الخليفة هزمه هزيمة منكرة، ولولا المساعدة التي قدمها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين أمير منطقة تكريت، لعماد الدين وفلول جيشه، لوقع في أسر الخليفة، وتمكن من العودة سالماً إلى الموصل بعد اجتياز نهر دجلة، واشتدّ ساعد المسترشد بالله حتى بدا للناس أن عهد الخلفاء العباسيين الأول عاد من جديد، وحاول المسترشد الاستيلاء على الموصل ولكنه بعد حصاره لها وجد أنه لا قِبَل له بفتحها؛ فقد تحلّق سكانها حول أميرهم عماد الدين، وقاوموا الخليفة بكل قواهم؛ فاضطر لفكّ الحصار عنها والعودة إلى بغداد ليلتحم في معركة فاصلة مع جيش مسعود أسفرت عن إلحاق الهزيمة بجيش الخليفة العباسي ووقوعه في أسر السلاجقة الذين نفوه إلى أذربيجان حيث قتله واحد من الإسماعيليين، وفشل الراشد الذي تولى الخلافة بعد طرد أبيه من توطيد مركزه داخل بغداد، وسارع مسعود لقمع حركته ثم عزله وتولية المكتفي بالله مكانه الذي أقرّ بسلطنة مسعود، وعادت بغداد هادئة في ظل السلاجقة كالسابق.

وبعد أن اطمأنّ عماد الدين على الوضع في بغداد عاود نشاطه الحربي في بلاد الشام، وتمكن من انتزاع العديد من القلاع المهمة من أيدي الصليبيين ومنها قلعة أتارب التي تبعد عن حلب /١٥/ كم، وتقع على الطريق الواصل بين حلب وإنطاكية، كما استعاد كفرطاب ومعرة النعمان، ثم اتجه نحو الجنوب وفتح مدينة حمص وعزل

حاكمها التركي، ثم حاصر مدينة دمشق غير أنه لم يفلح في فتحها.

ورافق بروز عماد الدين في الجانب الإسلامي اختفاء عدد من القادة الصليبيين الأوائل أمثال بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي توفي عام ١١٣١ م، وقد خلفه على حكم القدس زوج ابنته ميليسند، الأمير فولك، كما توفي في هذه الفترة جوسلين الأول أمير منطقة الرها، وفي السنة السابقة لقي بوهمند الثاني أمير إنطاكية مصرعه على أيدي الترك الدانشمند، وذلك حين خرج في حملة لتوسيع أملاكه على حساب أملاك /ليو/ وهو أمير أرمني كان يحكم منطقة عين زربة في شمال سوريا، وقد استعان ليو بجيرانه التركمان فنصبوا كميناً لبوهمند وجيشه فوقع فيه بكل سهولة وعمد التركمان لقتل أسراهم بما فيهم بوهمند نفسه، ولكنهم ندموا على قتله لأنهم كما قال أميرهم غازي لم يعرفوا أنه الأمير، فلو عرفوا لأبقوا على حياته وطلبوا مبلغاً كبيراً من الذهب ثمناً لرأسه.

ويرى المؤرخ رنسيان أن فقدان هؤلاء الزعماء الثلاثة شكل خسارة فادحة للافرنج، لأن ورثتهم أمثال فولك وريموند بواتييه والمغامر ريجنالد شاتيون الذي اشتهر بالميل إلى العدوان وسفح الدماء، هؤلاء الورثة لم يكونوا في إدراك ونضج سلفهم الذين استطاعوا التلاؤم مع الحياة الشرقية وأدركوا حقيقة وضعهم الشاذّ في المنطقة، فانصبت جهودهم فقط على الاحتفاظ بما بين أيديهم من أراضي المسلمين. ولم يلتزم خلفاؤهم بهذه السياسة الحكيمة فأتعبوا جيوشهم في توسيع رقع حكمهم وفي مناوشة المسلمين[1].

الصليبيون يفقدون أولى معاقلهم المهمة:

كانت خطة عماد الدين كما رأينا تقوم على تأجيل منازلة الصليبيين حتى يتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية تحت قيادته، وبقيت مدينة دمشق وحاول عدة مرات الاستيلاء عليها، ولكنه فشل وكانت آخر مرة حاصر فيها دمشق في عام ١١٣٩ م، ولكن وزيرها معين الدين أنر الذي كان حاكم حمص وطرده عماد الدين لجأ إلى دمشق واستلم الوزارة الأولى فيها، وقد استغل إقدام عماد الدين على قتل جميع

---

(١) انظر تاريخ الحروب الصليبية الجزء الثاني لرنسيان ص٢٩٧.

رجال حامية بعلبك بعد أن تعهد بالحفاظ على حياتهم ان استسلموا إليه، وكان قصد عماد الدين من عمله هذا إرهاب دمشق التي استعصت عليه.

استغلّ أنر هذه الحادثة ونجح في تشويه سمعة عماد الدين بين سكان دمشق، ولم يلق أنر أية صعوبة في أخذ موافقة الدمشقيين على الاستنجاد بالصليبيين لردّ عماد الدين الذي أصبح في نظرهم سفاحاً لا يرعى ذمة ولا عهداً، وعدواً خارجاً عن الدين، وأقنع أنر سكان دمشق بفتواه العجيبة أن الاستنجاد بكافر صديق لردّ كافر عدو أمر لا يتعارض مع الدين. وسارع فولك ملك بيت المقدس لإنجاد أنر؛ فقد كانت فرصته لتحجيم قوة عماد الدين التي تتعاظم يوماً بعد يوم. وجهز جيشاً كبيراً اتجه به نحو دمشق، وحين سمع عماد الدين بتحرك الصليبيين رأى الانسحاب وتأجيل فتح دمشق لظروف أكثر ملاءمة، وقرر تركيز جهوده في المناطق الشمالية، وكانت الرها وهي أقدم امارة أقامها الصليبيون في بلاد الشام أولى أهداف عماد الدين، وكان وجود الصليبيين في هذه المنطقة عاملاً مؤثراً في تمزيق القوة الإسلامية حيث تفصل بين شرق وغرب الشمال الشامي، كما كانت سيفاً مسلطاً على الطريق الواصلة بين الموصل وحلب، ولكلّ هذه الاعتبارات الاستراتيجية المهمة صمم عماد الدين على أن تكون أول نقطة صدام حربي بينه وبين الصليبيين.

كان على إمارة الرها الكونت جوسلين الثاني الذي رأى تدعيم مركزه فيها بإبرام معاهدات صلح وتحالف مع جيرانه من الزعماء المسلمين الصغار، ونجح في الوصول إلى تحالف مع أحد الأمراء الأتراك وهو قره ارسلان الأرتقي حاكم منطقة ديار بكر، وكان عماد الدين واقفاً على كل ما يجري في المنطقة، وقرر استغلال هذا الحلف بين جوسلين والأرتقي لصالح هجومه على الرها؛ فتظاهر بالهجوم على ديار بكر حتى يجبر جوسلين على ترك الرها لإنجاد حليفه التركي، وهكذا كان فقد خرج جوسلين على رأس جيش كبير في خريف ١١٤٤ م متجهاً به نحو الفرات لقطع طرق مواصلات عماد الدين وحصر جيشه بين الفرات وديار بكر، وكان هذا ما ينتظره عماد الدين الذي ما ان سمع بخروج جوسلين من الرها حتى أدار وجهة جيشه نحو هذه المدينة، ووصلها الجيش الإسلامي بسرعة وضرب حولها الحصار الذي تواصل لمدة ثمانية وعشرين يوماً، تمكن خلالها النقابون المسلمون من فتح ثغرة في سور المدينة، دخل منها الجيش الإسلامي في/٢٥/ديسمبر ١١٤٤ م. وتمكن عماد الدين بسهولة من

فرض سيطرته على المدينة كلها، وأمر قواته بالمحافظة على أرواح المسيحيين العرب والأرمن سكان المدينة الأصليين، وقتل جميع الإفرنج.

أما جوسلين الذي اتخذ من بلدة تل باشر مركزاً له بدلاً من الرها بعد سقوطها بيد المسلمين، أرسل الرسل إلى القدس وإنطاكية، طالباً المساعدة والنجدة، وقد حاولت ملكة بيت المقدس ميليسند دعم جوسلين بجيش صليبي، ولكنّ تحرك هذا الجيش جاء بعد فوات الأوان. وتعرض جوسلين إلى حملة انتقاد مرة من قبل الصليبيين وعلى رأسهم المؤرخ الصليبي وليم الصوري الذي اتهم جوسلين بالجبن والخوف من عماد الدين وترك الرها لقمة سائغة في فم المسلمين.

كان لسقوط الرها صدى واسع النطاق لدى المسلمين والإفرنج على حد سواء؛ فالمسلمون اعتبروا ذلك الفتح بداية عهد جديد مشرق في صراعهم مع الصليبيين، واشتدّت إثر ذلك عزائمهم وارتفعت معنوياتهم، وأصبح عماد الدين بطلاً من أبطال الإسلام في جميع العالم الإسلامي: مشرقه ومغربه. وأغدق المسلمون عليه الألقاب، منها الملك المؤيد من الله والمظفر والمنصور، قاهر الكفرة والمتمردين... الخ.

كما عكس ابن الأثير في الكامل فرحة المسلمين العارمة بفتح الرها، ونقل روايات شعبية شاعت بين أوساط العامة من المسلمين، مثل قصة الشيخ الصالح الذي كان يجلس في بلاط روجر ملك جزيرة صقلية فغفا في مجلسه، وأيقظه روجر ليخبره أن قواته قامت بغزوة على ميناء طرابلس الغرب وحققت مكاسب في هذه الغزوة، ويسأل روجر الشيخ ساخراً: أين كان النبي محمد عن تلك البلاد وأهلها! فقال له الشيخ المسلم: كان محمد في بلاد الشام يشهد فتح الرها، وقد سخر القوم من الشيخ، ولكن جاءت الأنباء بعد أيام تؤكد قول الشيخ الذي رأى سقوط الرها بيد المسلمين أثناء إغفاءته القصيرة التي أيقظه منها روجر. كما نقل ابن الأثير عن جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنساناً صالحاً رأى زنكي في منامه، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال عماد الدين غفر لي ذنوبي بفتح الرها[1].

أما وقع سقوط الرها على الإفرنج فكان عظمياً إذ هزّ معنوياتهم واعتبروا ذلك فاتحة النهاية لحكمهم لبلاد الشام وقد ركبهم الخوف والهلع.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ١١ ـ ص١٠٠.

ونعود للرها لنجد أن عماد الدين عيَّن عليها أميراً تركياً اسمه علي كوجك ونصحه بمعاملة المسيحيين الوطنيين من الأرمن والعرب واليونانيين معاملة حسنة، وخصَّ المسلمون الأسقف العربي باسيل بالعطف لما أظهره من الاعتزاز في رده عند سؤاله عما إذا كان جديراً بالثقة بأن ولاءه للفرنج دلّ على كفايته في ولائه. واعتبر الأرمن تحيز العرب إلى المسلمين جاء على حسابهم فحاولوا التمرد والعصيان؛ فأخمد كوجك تمردهم بحزم، وطرد عدداً كبيراً منهم خارج الرها[1].

مقتل عماد الدين زنكي:

لم يتوقف زنكي بعد فتح الرها طويلاً إذ سرعان ما أعاد تنظيم جيشه، وبدأ في تطهير جميع الجيوب الصليبية التي كانت تحيط بمدينة الرها حتى أصبحت الطريق بين الموصل والرها وحلب آمنة بعيدة عن حراب الصليبيين، وعزم عماد الدين مرة أخرى على فتح دمشق وضمها إلى سيطرته؛ فذلك في نظره خطوة أساسية قبل أن ينطلق لتحرير بيت المقدس خصوصاً وأن شعبيته اتسعت بين الدمشقيين إثر فتح الرها، وفي سنة ١١٤٦ م اتجه بجيشه جنوباً نحو دمشق، وقرر فتح قلعة جعبر التي تقع على الطريق الواصل بين الفرات ودمشق بعد أن رفض أميرها سالم بن مالك العقيلي الاعتراف بسيادته عليه، وأثناء الحصار وثب أحد الخدم واسمه (برتقش) كما يقول ابن القلانسي على عماد الدين وهو نائم، وأغمد خنجره في صدره، وقد تعددت الروايات في أسباب قتل هذا الخادم لسيده، من هذه الروايات أن عماد الدين شاهد خادمه يشرب الخمر بكأسه الخاص، فنهره وحقره؛ فحفظ الخادم له ذلك؛ فتركه حتى نام فقام إليه وقتله، وتلك الرواية التي اعتمد عليها رنسيان نقلاً عن وليم الصوري وغيره من المؤرخين غير مؤكدة وفي رأيي أنه يجب أن لا نستبعد أن اغتيال زنكي ذو بواعث سياسية دبرها له أعداؤه من الأمراء والحكام المسلمين الذين امتلأت قلوبهم حسداً وحقداً عليه خاصة ألب ارسلان وهو ابن السلطان السلجوقي محمود الذي عين زنكي في ولاية الموصل باسم ابنيه أحدهما ألب ارسلان كما سبق الإشارة الى ذلك، وقد أعلن ارسلان العصيان على عماد الدين أثناء حياته كما أنه إثر مقتل زنكي سارع إلى الموصل للاستيلاء عليها، ولكن رجال عماد الدين أفشلوا مخططه ونصبوا

---

(١) الحروب الصليبية، المجلد الثاني، ستيفن رنسيمان - ص٣٨٢.

ابنه سيف الدين غازي بدلاً عن والده في إمارة الموصل.

وانتهى بموت عماد الدين زنكي فصل مهم من فصول دور اليقظة الإسلامية، وسيتم خلفاء زنكي مسيرة الظفر وطرد الفرنج من بلاد الشام، وسيكون ابن عماد الدين نور الدين محمود الذي تولى حكم حلب بادىء الأمر ثم أصبح الرجل الأول في بلاد الإسلام القائد الثاني في هذه المسيرة[1].

---

(١) رنسيمان - الحروب الصليبية - ج ٢ - ص٣٨٢ وانظر كذلك ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق - ص٢٨٤ و٢٨٥ - ابن الأثير - الكامل - ج ١١ - ص١١٠ وما بعدها، أبو شامة - الروضتين - ج ١ - ص٤٢؛ ويورد أبو شامة أن قاتل عماد الدين برتقش التجأ الى دمشق لكنه قبض عليه وأرسل إلى حلب ثم إلى الموصل حيث قتل فيها، انظر الروضتين - ص٤٦.

الفصل السادس

انهزام الحملة الصليبية الثانية

يقف الدارس للفترة التي تلت مقتل عماد الدين زنكي أمام قلعة جعبر عام ٥٤١ هـ بمدية أحد خدمه طويلاً محاولاً معرفة السر الذي كمن وراء تتابع الأحداث في بلاد الشام، ذلك التتابع المتئد المنتظم الذي انتهى بانتصاب نورالدين بن عماد الدين أميراً على طول البلاد العربية الإسلامية بدءاً من الموصل في العراق وحتى آخر حدود مصر، وقائداً فذاً لجيوشها الموحدة، فالتوقعات التي لا بد لمعاصري تلك الفترة أن يكونوا وضعوها في حساباتهم، قياساً واستلهاماً لما كان يحدث في الماضي، لم تحدث، وكان التفسير الوحيد لذلك السر أن الأقدار كانت مع المسلمين، وأن الله أنزل رحمته على بلاد الإسلام وحماها من فتنة كبرى تعيد الصليبيين الى سابق قوتهم وجبروتهم بعد أن كسر عماد الدين زنكي جناحهم الشرقي في معركة الرها الشهيرة عام ٥٣٩ هـ أي قبل سنتين من وفاته تقريباً.

ولنتابع الآن حديثنا عن دور اليقظة العربية الإسلامية والتي ذكرت من الفصل السابق من هذا الموضوع. إن هذا الدور بدأ مع بروز عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي... وسيتضح مما سأذكره أن أناس ذلك العصر كانوا على حق حين قالوا إن الله كان مع عباده المسلمين.

* * *

ترك عماد الدين وراءه بعد موته المفاجيء عدداً من الأولاد كان أهمهم اثنان: سيف الدين غازي وهو الأكبر، ونور الدين محمود، وكان سيف الدين بعيداً عند مقتل أبيه. فقد كان أميراً على منطقة شهرزور شمال مدينة الموصل، أما نور الدين فكان مع أبيه ضمن الجند المحاصرين لقلعة جعبر، فقفز الأول إلى الموصل وأعلن أنه الوارث لأملاك أبيه، وقفز الثاني إلى حلب وأعلن انه الأحقّ في حكم مملكة أبيه. كما

خلف عماد الدين مجموعة كبيرة من الأعداء تُركاً وصليبيين الذين تنفسوا الصعداء حين بلغهم مقتله، واستقبلوا هذا النبأ بالغبطة والسعادة، وانتعشت في نفوسهم آمال التوسع وطموحات السيادة والامارة.. وكان أول هؤلاء ألب أرسلان بن السلطان محمود السلجوقي فقد شدّ الرحال مع جماعة من أنصاره وعساكره باتجاه الموصل للاستيلاء عليها وتنصيب نفسه أميراً قبل أن يوارى جثمان عماد الدين. أما في الجنوب فسارع معين الدين أنر الحاكم الفعلي لمنطقة دمشق لاسترداد مدينة بعلبك وحمص وحماه التي سلخها من سيطرته عماد الدين. وفي الشمال الشرقي تمكن أراتقة ديار بكر استعادة جميع المناطق التي أخذها منهم عماد الدين. أما في الجانب الصليبي فقد عادت الدماء الى عروق جنود الصليبيين ودب الحماس مجدداً في قادتهم، فخرج أمير انطاكية في غارة سريعة حتى بلغ أسوار حلب بينما نشط جوسلين الثاني حاكم الرها السابق للعمل على استعادة ملكه وتمكن بالفعل من تخليص مدينة الرها من بين أيدي المسلمين، وفي القدس تحركت الجيوش الصليبية لمساندة أحد المنشقين واسمه التونتاش، وكان أرمنياً مسيحياً في الأصل ثم أسلم، وقد أعلن استقلال منطقة بصرى وحوران التي كان والياً عليها عن سيطرة دمشق والمسلمين عموماً وطلب من ميليسند ملكة بيت المقدس الصليبية دعمه ضد أنر مقابل أن يتنازل لها عن بصرى وقسم من حوران ويكتفي بمنطقة صغيرة من حوران، وتحرك جيش الملكة الصليبية باتجاه حوران جنوب دمشق لدعم هذا الحليف الجديد، ضارباً عرض الحائط بمعاهدة التحالف والصداقة التي أبرمتها ميليسند مع الوزير معين الدين أنر، كما سبق ورأينا في الفصل السابق...

هذه هي باختصار خارطة الأحداث التي وقعت إثر مقتل عماد الدين زنكي بعد أشهر قليلة فقط، ورغم ذلك تابع الفوج الاسلامي مسيرته الظافرة الى النهاية حتى أتم القضاء على حكم الصليبيين لبلاده. ولا شك أن عدداً من الظروف الموضوعية أسهمت إلى حد كبير في منع البلاد الشامية من النكوص إلى الوراء والعودة الى حالة التمزق والشلل السابقين، من هذه الظروف:

١ ـ المناخ الشعبي العربي الاسلامي الذي أشبع بالحماس والنشاط المتولدين من انتصار عماد الدين على الصليبيين لأول مرة والذي توّجه باستعادة منطقة الرها، هذا المناخ الشعبي كان على درجة من القوة والفعالية والاتساع لا يسمح بأية خطوة

الى الوراء بخطوها القادة المسلمون، لذا فان الجماهير التفّت والتحمت بسرعة وبقوة مع نور الدين حين وجدت أنه خير من يحمل راية أبيه الظافرة وتخلفت بنفس السرعة والقوة عن بقية القادة الآخرين، وهذا التأييد الشعبي لنور الدين هو، في رأيي الذي جعله يبرز على الساحة العربية باطـراد سريع ويتغلب على جميع خصومه ومنافسيه.

٢ ـ تهيأ لأولاد زنكي مجموعة من الرجال الأقوياء عملوا بذكاء ومهارة مشهودتين على ضبط الأمور وتسييرها الى الوجهة الصحيحة وحققت النصر الحاسم لآل زنكي على منافسيهم العديدين.

٣ ـ النضوج وبُعد النظر السياسي اللذين تحلى بهما كل من الأخوين سيف الدين غازي ونور الدين محمود فعرفا أين يقفان وفي أي عصر يعيشان ومع مَن يتعاملان، فحزما أمرهما وسارا وفق المعطيات الجديدة التي افرزتها مرحلة الفوز بعد الاندحار والوحدة بعد التمزق والضياع التي جاء بها والدهما عماد الدين..

ولأبدأ الآن بالتفاصيل.

ذكرت أنه بعد مقتل زنكي عام ٥٤١ هـ حاول الملك ألب أرسلان السلجوقي الاستيلاء على الموصل وكان أمام قلعة جعبر مع عماد الدين وما أن بلغه مقتله حتى جمع أنصاره وأسرع بالتوجه الى الموصل وكان وزير عماد الدين جمال الدين الأصفهاني موجوداً مع الجيش المحاصر لقلعة جعبر فما أن سمع بتحرك ألب أرسلان حتى سارع بالاتصال بزميله ومنافسه صلاح الدين الياغيساني، لتوحيد جهودهما والتصدي لمؤامرة ألب أرسلان، ومما قاله جمال الدين للياغيساني وفق رواية ابن الأثير... «إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ونسلك طريقاً يبقى به الملك في أولاد صاحبنا (عماد الدين) ونعمر بيته جزاء لإحسانه الينا، فان الملك (ألب أرسلان) قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر، لئن لم نتلافَ هذا الأمر في أوله ونتداركه في بدايته ليستعز الخرق ولا يمكن رقعه: فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحلف كل واحد منهما للآخر»[1].

ويمضي ابن الأثير في روايته أن جمال الدين وصلاح الدين سافرا معاً الى ألب

---

(١) ابن الأثير، الباهر في الدولة الاتابكية ـ ص٨٤، ٨٥.

أرسلان ولحقا به وهو في الطريق قبل أن يصل الى الموصل، مبديان فرحتهما باستلامه الحكم وطلبا التقرب منه وخدمته وقد قالا له: «إن أتابك (عماد الدين) كان نائباً عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه». فقبل قولهما وظنه حقاً وقربهما طمعاً في أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه، وأرسلا الى زين الدين، نائب عماد الدين بالموصل، يعرفانه قتل الشهيد، عماد الدين، ويأمرانه بالارسال الى سيف الدين غازي وإحضاره الى الموصل وكان بشهرزور وهي اقطاعه من أبيه ففعل زين الدين ذلك[1].

ولاستكمال الخطة بقي جمال الدين الأصفهاني مرافقاً للملك ألب أرسلان بينما توجه صلاح الدين الياغيساني إلى الشام لترتيب الأمور مع نور الدين والحيلولة دون حدوث اقتتال بين الأخوين، وبذل الأصفهاني الجهد لتأخير وصول ألب أرسلان إلى الموصل حتى يصلها سيف الدين قبله، واقترح عليه التوجه إلى مدينة الرقة للراحة فيها قبل متابعة السفر إلى الموصل، وفي الرقة رتب الأصفهاني لألب أرسلان ليالي حمراء صاخبة، وشجعه على منح ما بين يديه من أموال إلى الجواري الحسان اللاتي أحاطه بهن حتى لا يترك لديه مالاً يمكنه من استمالة قلوب قادة العسكر إليه، وبنفس الوقت والملك غارق في سكره وبين أحضان جواريه، كان الأصفهاني يخرج إلى عسكر ألب أرسلان مشوهاً صورة هذا الملك في نفوسهم، ومشيداً بمزايا وفضائل سيف الدين غازي، ومقارناً بينه وبين تصرفات هذا الملك الأرعن وكان كل جندي يقتنع بوجهة نظر الأصفهاني، يطلب منه ترك معسكر ألب أرسلان فوراً والالتحاق بالموصل. ثم خرج الأصفهاني بالملك من الرقة إلى بلدة ماكسين وهي تقع على نهر الخابور، أحد روافد الفرات، ثم انتقلا إلى سنجار وكانا في كل مكان يصلانه يقضيان فيه أياماً، وفي سنجار جاء الأصفهاني الرسول الذي انتظره أياماً ليخبره أن الخطة نجحت تماماً، وأن سيف الدين غازي وصل إلى الموصل وتسلم إمارتها، ودخل الأصفهاني على ألب أرسلان يعلمه بما جرى في الموصل ويقترح عليه أن يسارع إليها لتدارك الوضع لصالحه، ومرة أخرى وقع الملك في حبائل مكر الأصفهاني، وتوجه مع القلة القليلة من العساكر التي بقيت معه إلى الموصل، وعند مشارف المدينة أقنع الأصفهاني ألب أرسلان بالبقاء خارج أسوار المدينة حتى يسبقه بالدخول ويدبر له أمر دخوله ظافراً

---

(١) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

إليها، وفي الموصل اجتمع بسيف الدين وأخبره أن ألب أرسلان خارج المدينة في قلة من الجند، فخرج إليه القائد عز الدين الدبيسي بجيش من الموصل، حاصره ثم هاجمه وأسره وقاده مكبلاً إلى المدينة، وكان هذا آخر عهد الناس به[1].

شهرة نور الدين تبدأ من مدينة حلب:

كان نور الدين محمود مع أبيه زنكي عند مقتله، ووفقاً لرواية المؤرخ العربي يحيى ابن أبي طي الحلبي أن أسد الدين شيركوه وهو عم صلاح الدين الأيوبي، لما سمع بمقتل عماد الدين ركب لساعته وجاء خيمة نور الدين محمود وأخذ يؤلبه على أخيه سيف الدين وطلب شيركوه من نور الدين أن يعتمد عليه في تنصيبه على مدينة حلب ويجعلها مركز ملكه حيث ستجتمع في خدمته إذا تولاها عساكر الشام، وأن من يتولى حلب استظهر على بلاد الشرق[2].

واقتنع نور الدين بهذا العرض المغري وسافر مع شيركوه وعسكره إلى مدينة حلب بعد أن أخذ خاتم والده من يده، ونصب نفسه أميراً على جميع منطقة حلب، وأسفر عن ذلك أن دولة عماد الدين أصبحت دولتين الأولى في الشرق وعاصمتها الموصل تحت إمرة سيف الدين غازي، والثانية في شمال سوريا وعاصمتها حلب بإمرة نور الدين محمود، وطبيعياً والحال هذه أن تحدث منافسة بين الأخوين، فالأول وهو سيف الدين اعتبر نفسه الوارث الشرعي لملك أبيه بصفته ولده الأكبر، وأن استيلاء أخيه نور الدين على حلب يعتبر عصياناً عليه، غير أن سيف الدين قرر أخذ أخيه بالسلم وليس بالحرب، فأرسل إليه يطلب منه الحضور الى الموصل، لكن نور الدين خاف على نفسه فبعث برسالة يعتذر فيها عن الحضور، وتذرع بتحرك الإفرنج الجديد الذي يقتضي وجوده في حلب.

وجاءت الفرصة لنور الدين ليظهر دفعة واحدة على المسرح السياسي والعسكري كأمير مخلص وقائد شجاع، وذلك حين عمد جوسلين أمير الرها السابق لاستغلال

---

(١) انظر في كل ما تقدم: ابن الأثير «الباهر في الدولة الأتابكية» - ص٨٤ و٨٥. أبو شامة كتاب «الروضتين» - ج ١ - ص٤٧ - ابن واصل «مفرج الكروب» - ج ١ - ص١٠٩ - ستيفن رسيمان «تاريخ الحروب الصليبية» - ج ٢ - ص٣٨٦ وما بعدها.

(٢) أبو شامة «الروضتين» - ص٤٧ و١٤٠.

الاضطراب الذي حدث بين صفوف المسلمين إثر مقتل زنكي واختلاف أولاده، فاتفق مع مجموعة من الأرمن كانت مستوطنة في الرها على إعلان العصيان على الحاكم الإسلامي ليسهل له أمر احتلال المدينة، ولم يجد جوسلين صعوبة كبيرة باحتلالها في ٢٧ أكتوبر ١١٤٦م غير أن حاميتها المسلمة تحصنت في قلعتها، وأرسل قائد هذه الحامية رسالة إلى نور الدين القريب منه طالباً منه النجدة.

ولم يترك نور الدين وقائده شيركوه هذه الفرصة الثمينة تفوتهما. ولم يمض على احتلال الرها من قِبَل الصليبيين سوى خمسة أيام حتى كان جيش نور الدين يحاصرها، وشعر جوسلين أنه وجيشه أصبح بين فكي كماشة المسلمين، نور الدين من الخارج وحامية المدينة من الداخل، وانتظر حلول الظلام فتسلل هارباً بمن معه من الرجال وبعض السكان الأرمن، ولم يشأ نور الدين أن يدخل المدينة قبل أن يصفي الحساب مع جوسلين، فما أن سمع بفراره حتى لحقه ودخل معه في معركة عنيفة قتل فيها من الصليبيين عدد كبير، منهم الأمير بلدوين سيد منطقة مرعش، كما أصيب جوسلين نفسه بجرح خطير في رقبته غير أنه استطاع الفرار مع قلة من جنوده إلى بلدة سميساط البيزنطية، وعاد نور الدين إلى مدينة الرها لينتقم من سكانها الأرمن الذين خانوا العهد، فأباحها لجنوده كما أمر بقتل جميع من كان قادراً على حمل السلاح من الأرمن وسبى نساءهم وأطفالهم، ثم عاد إلى حلب على رأس جيشه، وجعل أسراه ومنهم الأسقف يوحنا زعيم الأرمن الديني في الرها، ومعهم كذلك السبايا والغنائم في مؤخرة هذا الجيش. وخرج الشعب الحلبي عن بكرة أبيه ليستقبل نور الدين كأحسن ما يستقبل به الأبطال.

كان من المتوقع أن تزداد الجفوة بين نور الدين وشقيقه سيف الدين بسبب تدخله في الرها التي أصبحت الآن تابعة لنور الدين بينما هي في الأصل من أملاك سيف الدين. لكن سيف الدين أظهر خلاف ما كان يتوقعه الناس، فبادر بتهنئة أخيه وطلب منه الالتقاء معه لا في الموصل ولا في حلب، ولكن في منطقة وسطى على نهر الخابور على أن يأتي كل منهم بثلة تتألف من خمسمائة فارس لحمايته، ويبدو أن وزراء سيف الدين وخاصة جمال الدين الأصفهاني هم الذين أشاروا عليه باتباع هذه السياسة، فان أي خلاف بين الأخوين لن يستفيد منه سوى الأعداء، وليثبت سيف الدين حسن نيته لأخيه جاء إلى اللقاء في المكان المتفق عليه ومعه خمسة فرسان

فقط، بينما جاء نور الدين ومعه خمسمائة فارس ووفق ما يروي ابن الأثير أن نور الدين خجل من موقفه فترجل عن فرسه وقبّل الأرض بين يدي أخيه الذي رفعه وعانقه، ثم قال له والاثنان يبكيان «لِمَ امتنعت عن المجيء إليّ، هل كنت تخافني على نفسك؟؟ والله لم يخطر ببالي ما تكره. فلمن أريد البلاد ومع مَن أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت سوءاً بأخي وأحبّ الناس إليّ... فاطمأن نور الدين وسكن روعه». كما قال سيف الدين لأخيه في لقاء آخر... «لا غرض لي في مقامك عندي وأنا غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنا»[1].

والواقع أن هذه النظرة السياسية الناضجة لسيف الدين ونور الدين، حمت ملكهما من الاندثار تحت سنابك الصليبيين والأمراء المسلمين المتربصين بهما.

نجم نور الدين يوالي صعوده:

كان استرداد الرها أول درجات المجد الذي بدأ يصعده نور الدين بسرعة مذهلة، فانتصاره هذا استقطب أنظار المسلمين وجعلهم يلتفون حوله، حتى ان عدو والده الماكر معين الدين وزير دمشق لم يتردد أن يطلب من نور الدين النجدة بعد أن انشق عليه توتنتاش واليه في بصرى الشام وتحركت جيوش الصليبيين من بيت المقدس لنصرة ذلك المنشق، وتفصيل ذلك أن توتنتاش استاء من معين الدين، فأعلن عصيانه عليه، وبنفس الوقت اتصل بميليسند ملكة القدس طالباً مساعدتها على أنر، وقد ترددت الملكة بادىء الأمر لأن دعم هذا المنشق يعني فصم عرى صداقتها الحميمة مع أنر، لكن عرض توتنتاش كان مغرياً خصوصاً وأن احتلال حوران سيكون خطوة نحو احتلال دمشق كلها، وقد حاولت ميليسند بادىء الأمر التوسط بين أنر وعامله المنشق عليه، فاستشاط أنر غضباً، فقد كبر في نفسه أن يضحي به الصليبيون وهو الذي قدّم لهم من المساعدة والخدمات ما لم يحلموا به، لكن المارد الإسلامي الذي بدأ ينتصب في الشمال، جعل أنر يلعق الإهانة الصليبية، وعمد لاسترضائهم مجدداً باذلاً لهم إقطاعات إسلامية ليحتلوها بدلاً من بصرى وحوران، وعندما رأت ملكة الصليبيين أن السياسة الحكيمة تقتضي الاكتفاء بما بذله أنر لها مع الاحتفاظ

(١) ابن الأثير «الباهر في الدولة الاتابكية» - ص٨٨.

بصداقته، رفض قادتها الشبان وجنودها الإذعان لرأيها وحدثت بلبلة واضطراب في القدس جعل ميليسند تتراجع وتأمر جيشها بالتحرك صوب جنوب دمشق، ولم يجد أنر بداً من بعث الرسل إلى نور الدين طالباً النجدة، فسارع جيشه يشق طريقه بسرعة باتجاه دمشق، وسبقته سفارة تحمل إلى أنر الهدايا وتطلب منه يد ابنته زوجة لنور الدين، وكان القصد من ذلك بث الطمأنينة في قلب الوزير الدمشقي، ومن ثم الاستيلاء على المنطقة الغنية برجالها ومالها وضمها الى حكمه عن طريق المصاهرة، والتقى جيشا حلب ودمشق على طريق بصرى وسارا معاً نحو هذه المدينة التي سقطت بأيديهما بسرعة، ثم تقدم الجيشان لملاقاة الصليبيين الذين قرروا التقهقر والرجوع إلى بيت المقدس بعد أن عرفوا أن لا قِبَل لهم بالتصدي للجيش الإسلامي الكبير، وكان تراجعهم فوضوياً وبلا نظام، وأخذ منهم التعب والجوع والعطش مأخذه، وتمكن المسلمون قتل وأسر الكثير منهم، وحين شعر الصليبيون أنهم هالكون لا محالة أسرعوا بارسال مندوب عنهم، الى الوزير أنر يطلبون منه عقد الصلح معهم، لكن المندوب قتله أحد الجنود المسلمين قبل أن يصل إلى مركز قيادة أنر... وكان أنر نفسه يفكر بوقف زحف الجيش الإسلامي، فهو رغم اتفاقه ومصاهرته لنور الدين ما زال يشك في نوايا صهره، ويعرف أن طموحات هذا الشاب لا نهاية لها، كما عرف أن تدمير الجيش الصليبي بالكامل سيهيء الفرص لنور الدين ليقوي من مركزه.. وعمد أنر إلى تأخير وعرقلة تقدم الجيش الإسلامي حتى تمكن معظم أمراء الصليبيين ومن بقي من جيشهم الوصول سالمين إلى القدس.

ويقول رنسيمان أنه لم يستفد من هذه الحملة إلا رجل واحد هو نور الدين، وأن أنر كان شديد الإدراك لما أصبح عليه نور الدين من القوة، واشتد حذره لما يخبئه المستقبل من أخطار، وتطلع مجدداً إلى إعادة التحالف مع الفرنج[1].

أما نور الدين الذي أخذ مدينة حماه مكافأة على تعاونه مع أنر، عاد إلى الشمال ليواصل انتصاراته على الصليبيين الذين أصبحوا بمجرد ذكر اسمه تهتز عروشهم. ولم تمض سنة ١١٤٧م حتى أضحى يملك مساحات شاسعة من بلاد الشام استخلص معظمها

(١) رفض رنسيمان الاعتراف بمساعدة أنر للأمراء الفرنج أثناء تراجعهم إلى بيت المقدس، وقال ان هؤلاء رفضوا مساعدته، وإنهم بشجاعتهم الخارقة وإصرارهم عادوا سالمين إلى بيت المقدس. راجع في كل ما تقدم ما كتبه رنسيمان في الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» - ص٣٩١.

من الصليبيين خصوصاً من إمارة انطاكية مثل أرتاح وكفرلاتا والبلاطة ويسرفوت، كما أنه أصبح رجل المسلمين الأول الذي تعلقوا به وبنوا عليه آمالهم في دحر الصليبيين.. أما هؤلاء فقد اتفقت آراؤهم على كسر شوكة نور الدين مهما كلف ذلك من ثمن..

الحملة الصليبية الثانية:

ترتب على سقوط أول مستعمرة أقامها الصليبيون في أرض الشام وأعني (الرها) بيد المسلمين نتائج كثيرة، كان من بينها وأهمها اجتماع الكلمة في أوربا على تجهيز حملة كبيرة من شبابها لدعم الصليبيين في الشرق الذين عرّاهم الفزع والهلع، والهدف الثاني توسيع رقعة عالم الصليب على الأرض الإسلامية، وإقامة مستعمرات مسيحية جديدة. وفي الواقع فإن سيل الأوربيين نحو بلاد الشام لم ينقطع منذ سقوط بيت المقدس بأيديهم عام ١٠٩٧م ففي كل عام يصل القدس مئات من الحجاج الأوربيين المدربين على حمل السلاح الذين اعتبروا قتال المسلمين والدفاع عن ممتلكات الصليبيين في الشرق استكمالاً لطقوسهم الدينية وجزءاً أساسياً من مراسم الحج. لكن ذلك المدد الأوربي الصليبي ظلّ محدوداً طالما أن الأوضاع الحربية هنا كانت بوجه عام مستقرة وليس ثمة خطر إسلامي حقيقي يهدد المستعمرات الصليبية في الشام. ولكن، وكما يقول رنسيان، إن الغرب كان بحاجة إلى ما حلّ بالرها كيا ينهض من جديد إذ تراءى لأوربا الغربية بعد سقوط الرها بيد المسلمين أن الجناح الأيسر في حملة الصليب على الهلال مهدد بالخطر، في الوقت الذي كانت فيه حملاتهم نحو الجنوب وأقصد في أسبانيا تتقدم باطراد وتكسب كل يوم مزيداً من الأراضي الإسلامية وتعيدها إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية في روما.

وفي خريف عام ١١٤٥م وصل القسيس (هيو) أسقف بلدة جبلة على الساحل السوري إلى بلاط البابا (يوجينوس) الثالث المقيم في بلدة (فيتيريو) الإيطالية، محملاً برسالة من ملكة بيت المقدس ميليسند تنبئه فيها بسقوط الرها بيد المسلمين وتطلب مساعدة العالم المسيحي الأوربي لحماية ملكها وملك ما تبقى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وقد تلقى البابا (يوجينوس) هذا النبأ بألم كبير، وفق ما يقوله مؤرخ الحروب الصليبية الألماني (أوتو فريزنجين) الذي رافق الأسقف هيو وقابل البابا معه،

لكن البابا في نفس الوقت وجد فرصة مناسبة ليبرز على ساحة العالم المسيحي بعد أن كثر خصومه ومنافسوه الذين تمكنوا من طرده من روما،واضطروه إلى الالتجاء الى بلدة فيتيربيو، فسارع بتنظيم أمر بابوي إلى لويس السابع ملك فرنسا آنذاك وإلى سائر الأمراء والمؤمنين في فرنسا يدعوهم فيه للنهوض لنجدة إخوانهم صليبيي المشرق، ولم ينسَ أن يمنحهم، إذا لبوا أمره، الغفران من جميع ذنوبهم، ولم يخيب الملك الفرنسي أمله، فحين وصله أمر البابا أجرى اتصالاته مع أمرائه وقادته وبعث إلى البابا برسالة يعلن فيها انصياعه لأمر ممثل السماء في الأرض، ويقترح عليه أن يكون قائداً لهذه الحملة، خصوصاً وأن هذا الملك كان في ذلك الوقت يشعر جدياً بالخطايا والموبقات الكثيرة التي أثقلت كاهله حتى فترة قصيرة من ورود الأمْر البابوي، ووجد في قيادة حملة صليبية خير وسيلة لمحو ما قاده إليه طيشه وما ارتكبه من فواحش مخجلة، كما اقترح على البابا أن يكون القديس برنارد رئيس دير كليرفو الذي يصفه رنيسمان بأنه أقوى من الملك نفسه، سلطة ونفوذاً، داعية لهذه الحملة الجديدة، ووافق البابا يوجينيوس على اقتراحات الملك لويس، ومنحه البركة متمنياً له التوفيق، وتم الاتصال بالقديس برنارد الذي كان يحمل جميع صفات ومزايا بطرس الناسك، المحرض النشط للحملة الصليبية الأولى، وتقرر أن يعقد اجتماع كبير في بلدة فيزيلاي الفرنسيةْ للدعوة إلى الحرب بشكل علني ورسمي، وفي ٣١ مارس ١١٤٦م عقد هذا الاجتماع الذي حضره الألوف من الشعب الفرنسي أمراء ورجال دين وعامة، وتصدَّر القديس برنارد منصة الشرف، ثم قام وألقى كلمة طويلة في جموع الحاضرين ألهبت حماسهم وجعلتهم يصيحون بصوت واحد: أعطونا الصلبان، وبحركة مسرحية مؤثرة خلع القديس برنارد أرديته الخارجية وقذف بها إلى الجمهور المتحمس طالباً منهم تقطيعها وإخاطتها على شكل صلبان ثم نزل بينهم وانهمك مع الجمهور في خياطة الصلبان من أرديته وأردية من معه.

وإثر هذا النجاح الذي حققه اجتماع فيزيلاي وبشكل خاص شخصية القديس برنارد، في تعبئة الجمهور الفرنسي بعث هذا القديس برسالة إلى البابا يقول فيها: «لقد أمرت فأطعت وما كان لمن أصدر الأمر من سلطة، جعلت طاعتي مثمرة فلم أكد أفتح فمي وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون، فلا حصر لعددهم، فالقرى والمدن هجرها سكانها فلا تكاد تجد رجلاً واحداً لكل سبع نساء، ويصادفك في كل مكان الأرامل

اللائي لا زال أزواجهن أحياء». وشجع هذا النجاح المنقطع النظير الأسقف برنارد لينقل دعوته إلى ألمانيا، فاتصل بملكها (كنراد هوهنشتاوفن) الذي لم يعر دعوته الاهتمام الكامل بادىء الأمر، ولكنه عاد وتحمس للانخراط في الحملة الصليبية الثانية، كما أن تأثير برنارد في العامة الألمانيين لم يكن بتلك القوة التي وجدها عند الإفرنسيين، وربما يعود ذلك إلى جهله باللغة الألمانية، فكانت ترجمتها إلى لغة أولئك العامة يفقدها الكثير من بريقها وتأثيرها في النفوس، غير أنه نجح في حشد جمع كبير من فقراء ألمانيا في هذه الحملة بعد أن وعدهم، كما فعل زميله السابق بطرس الناسك بكنوز الشرق التي لا تعد ولا تحصى، ويبدو أن البابا يوجينيوس الثالث كان يريد حصر الحملة بالإفرنسيين فقط وبقيادة ملكهم لويس السابع حتى يضمن تجانس المقاتلين، وتتحقق وحدة القيادة بعد أن تعلم من الحملة الأولى أن النجاح في الحرب ليس بكثرة العدد بل بالانسجام بين المقاتلين وبالقيادة الواحدة التي ينصاع إليها جميع أولئك المحاربين. لذلك فقد استقبل نشاط الأسقف برنارد في ألمانيا ببرود تام.

الحملة الصليبية الثانية تبدأ تحركها:

تشكلت الحملة الصليبية من الإفرنسيين بقيادة ملكهم لويس السابع،والألمانيين بقيادة ملكهم كنراد هوهنشتاوفن. كما أن مجموعة من الإنكليز وصلتهم دعوة الأسقف برنارد، فتحمسوا لها وقرروا السفر منفصلين وركبوا البحر ونزلوا في البرتغال، لكن المعارك المحتدمة هناك ضد العرب المسلمين شدتهم، فبقوا يقاتلون بالأندلس تحت راية الصليب. أما الملك الألماني كنراد فقد رحل بجيشه، الذي قدّر عدده رنسيان بعشرين ألفاً، بينما ترى مصادر أخرى أنه ثلاثة أضعاف هذا العدد، واتخذ الجيش طريق البر وكان ذلك في أواخر مايو ١١٤٧ م. ورافق الملك الألماني ولي عهده وابن أخيه فريدريك دوق سوابيا، وفلاديسوف ملك بوهيميا، وبوليسلاف ملك بولندا، واستقبل البيزنطيون بالحذر جيش كنراد بادىء الأمر، ولكنهم رحبوا به بعد ذلك، وتعهدوا في نقل الجنود الألمان إلى الساحل الآسيوي بمراكبهم، ورغم الحزم الذي أبداه الملك الألماني على جنوده، فقد وقعت مشاحنات ومعارك بين الألمان والبيزنطيين، كادت تهلك الجيش الألماني قبل أن يتحرك لقتال المسلمين، لكن بتعاون قادة الطرفين طوقت هذه الأحداث، وغادر الجيش الألماني القسطنطينية التي وصلها

في العاشر من سبتمبر ١١٤٧ م، وتولت سفن بيزنطية، كما هو مقرر، نقل كنراد وجنوده عبر بحر مرمرة إلى الشاطىء الآسيوي بعد أن حمَّل الامبراطور البيزنطي مانويل الملك الألماني بالهدايا الثمينة، كما أمده بالأدلاء لاختراق جبال ووهاد آسيا الصغرى.

وبدأ الجيش الصليبي رحلته باتجاه بلاد الشام من بلدة نيقية مقر تمركزه في آسيا، في ١٥ أكتوبر ١١٤٧ م. وما أن توغل قليلاً في تلك الأراضي الوعرة حتى وجد الجيش نفسه محاصراً من قبل السلاجقة الذين انهالوا على الجنود الألمان بسهامهم وحرابهم بشكل كثيف، ودب الفزع بين صفوف الجيش، وأخذ الألمان يتساقطون بالعشرات، فاضطر الملك لترك المعركة وإطلاق ساقي فرسه للريح مع مَن تبقّى من جنوده نحو نيقية. ويقدر مؤرخو الغرب أن عدد من نجا لا يتجاوز عُشر الجيش، أي من ٢٠ الفاً لم يسلم سوى ألفين فقط، فضلاً عن خسارتهم بالسلاح والعتاد، وما أخذه السلاجقة من جنود باعوهم في أسواق النخاسة.

تحرك الجيش الفرنسي:

في يونيو من عام ١١٤٧ م تحرك الملك لويس السابع الذي لم يتجاوز عمره آنذاك السادسة والعشرين عاماً، من بلاده على رأس جيش يقل قليلاً عن جيش الألمان، وأصرت زوجات قادته بما فيهن الملكة اليانور زوجة لويس المتدينة، على مرافقة أزواجهن في حربهم المقدسة، وسار الجيش الإفرنسي مخترقاً بافريا والمجر، واستقبل الامبراطور البيزنطي امانويل في القسطنطينية الملك الفرنسي بمراسم دبلوماسية كاملة تليق بملك الفرنجة، فتعددت مآدب التكريم وزيارات لمعالم المدينة التاريخية الجميلة، لكن الامبراطور أمانويل من جهة أخرى كان يعمل لإزاحة الجند الفرنسيين عن بلاده بسرعة، وأخيراً تم نقل الملك لويس وجنوده عبر البوسفور إلى مدينة خلقدونية على الجانب الآسيوي من بيزنطة، وأمر الامبراطور بتموين الجيش الضيف بكل ما يلزمه من مؤونة بعد أن أخذ وعداً من لويس بإعادة جميع الأراضي التي كانت للبيزنطيين وسيطر عليها الصليبيون في الجزء الشمالي من بلاد الشام.

وفي نيقيه تقابَل الملك لويس مع الملك الألماني المهزوم كنراد، فاتفق الملكان على أن يغيرا خط سيرهما وأن يتخذا الطريق الساحلي خاصة المناطق التي تحت حكم

البيزنطيين والتي تمر من ازمير وافيسوس، وعندما وصل الجيشان إلى افيسوس اضطر الملك كنراد للعودة إلى القسطنطينية بسبب مرض خطير ألمّ به وترك قيادة جيشه إلى أعوانه بإشراف الملك الفرنسي، واثناء تحرك الصليبيين باتجاه بلاد الشام قابلهم الأتراك في كل مكان، وأخذوا يقتلون ويخطفون من الجند ما جعل الملك لويس يحث الخطى نحو بلدة أضاليا البيزنطية على البحر الأبيض، وهناك قرّ قرار الملك على إتمام رحلته عن طريق البحر، ولما كان عدد السفن التي وصلته من البيزنطيين قليلة، اضطر أن يملأ هذه السفن بحاشيته وبفرسان الحملة الأقوياء، ووصل مع هؤلاء إلى مدينة السويدية في ١٩ مارس ١١٤٨م، أما بقية جيشه، فقد تركه في أضاليا تحت رحمة سهام وسيوف الأتراك السلاجقة الذين أفنوا أكثر من نصف الصليبيين، وما تبقى سارع بالفرار نحو إنطاكية التي وصلها الجند وهم متعبون جائعون، وقد قرح جلودهم برد تلك المناطق القارس.

والتقى الملك لويس بفلول جيشه في إنطاكية، واعاد تنظيمه، كما أن الأمير ريموند سيد إنطاكية الصليبي عمل جهده مع رجاله على الاحتفال بالجنود الصليبيين الجدد أعظم احتفال، وتمكن من جعلهم ينسون المتاعب والمشاق والأهوال التي صادفتهم في آسيا الصغرى.

واختلف زعماء الصليبيين القدامى حول الاستفادة من الجيش الصليبي الجديد، فكل منهم يريد استغلاله في توسيع منطقة نفوذه، لكن الملك الفرنسي قرر الانضمام إلى جيش الملكة ميليسند في بيت المقدس، وأسرع في ترك إنطاكية خصوصاً بعد أن أخذت الألسن تتحدث عن علاقات مشبوهة بين الملكة اليانور، زوجة لويس وبين سيد إنطاكية ريموند[١].

الصليبيون يقررون احتلال دمشق:

اكتمل جمع الصليبيين الجدد في بيت المقدس بعد وصول لويس السابع إليها، وكان الملك الألماني كنراد وصلها قبله بشهر تقريباً، وكذلك عدد من البارونات والأمراء

---

(١) انظر في كل ما تقدم رنسيان، «تاريخ الحروب الصليبية» - المجلد الثاني - ص٣٩٧ وما بعدها، هربرت فيشر «تاريخ أوربا في العصور الوسطى» - ص١٩٥ وما بعدها. باركر «الحروب الصليبية» - ص٧٢ وما بعدها.

الأوربيين الآخرين الذين تطوعوا للقتال تحت راية الصليب لإنقاذ إخوانهم في المشرق، وفي ٢٤ يونيو ١١٤٨م دعت الملكة ميليسند بصفتها مضيفة هذا الحشد الكبير من الملوك والأمراء إلى عقد اجتماع في مدينة عكا ليقرر فيه هؤلاء القادة خطة تحركهم المستقبلية، وبعد نقاش طويل رأى المجتمعون أن خطوتهم الأولى يجب أن تكون نحو دمشق، ثم ينطلقون منها إلى باقي المدن الإسلامية الشامية حتى تتم السيطرة على جميع بلاد الشام بشمالها وجنوبها وتحويلها إلى سيادة الصليب واستئصال الإسلام منها نهائياً. ويعود اختيار قادة دمشق كخطوة أولى لأسباب عديدة منها:

١ - إن احتلال المدينة بسرعة يمنع أي لقاء إسلامي موحد بين الشمال والجنوب يفكر فيه أو يعمل له المسلمون مما يفسد مخطط الصليبيين ويقوي المسلمين.

٢ - إن دمشق قريبة من القدس واحتلالها يخلق دولة صليبية واسعة تمتد من البحر وحتى الصحراء، وقادرة على تصفية جميع الجيوب الإسلامية في الشمال أو في الجنوب.

٣ - تعتبر دمشق من وجهة نظر عسكرية أضعف إمارة خاصة من إمارة نور الدين في الشمال أو أخيه سيف الدين في الشرق، ومما يؤكد ضعفها أن أميرها مجير الدين ووزيره معين الدين أنر كانا قد أبرما معاهدات تحالف وتعاون حربي واقتصادي بين دمشق والملكة الصليبية في بيت المقدس خوفاً من نور الدين وقبله أبيه عماد الدين، لذلك فإن السيطرة على المناطق الضعيفة استراتيجياً يجب أن تكون الخطوة الأولى لكل قائد قبل الانطلاق لخوض المعارك الفاصلة.

٤ - ان دمشق ومزارعها وبما فيها من أموال قادرة، إذا أصبحت تحت سيطرة الصليبيين، على بناء قاعدة اقتصادية قوية تغذي نفقات المعارك القادمة وتتصدى لعاديات الزمن..

لقد كانت هذه الأسباب وجيهة ومنطقية لقوم قرروا بناء دولة الصليب الكبرى مكان دولة الإسلام في بلاد الشام، وفي رأيي أن تقريع المؤرخين الغربيين القدامى والحديثين لقرار قادة الحملة الصليبية الثانية باختيار دمشق هدفاً لحملتهم وقولهم إن هؤلاء القادة كانوا من أفشل المخططين العسكريين، إن هذا الحكم فيه كثير من التجني، ولا شك أن حكم المؤرخين الغربيين هذا بني على نتائج هذه الحملة والكارثة

التي لحقت بالحملة كلها، والتي جاءت بسبب عوامل موضوعية ستبرز وستتدخل في مجرى القتال حتى ولو غير الصليبيون وجهة تحركهم. من هذه العوامل يقظة العرب المسلمين واستماتتهم في الدفاع عن بلادهم ودينهم، وكذلك تحصنهم بما اكتسبوه من خبرة ومعرفة بأساليب أعدائهم وطرق قتالهم، وكذلك بوقوفهم على مرامي وأهداف الصليبيين البعيدة المدى، وهذا الانقلاب الحديث والولادة الجديدة للمسلم لم تقتصر على مسلمي دمشق فقط بل عم جميع الديار الإسلامية مشرقها ومغربها.

الدمشقيون وحدهم يهزمون الحملة الصليبية الكبرى[1].

بعد أن انفض اجتماع القادة الصليبيين الذي عقدوه في عكا في ٢٤ يونيو الذي اتفقوا فيه على توجيه ضربتهم الأولى إلى دمشق، تولت الملكة ميليسند أمر تجهيز هذا الجيش اللجب الذي يقدر عدد جنوده بخمسين ألف مقاتل وبدأ تحركه في ١٥ يوليو ١١٤٨ م صوب دمشق ووصلها يوم السبت ٢٤ يوليو، وعسكر على حافة غوطتها من الجهة الجنوبية، وكان معين الدين أنر ما زال يستبعد أن ينكث حلفاؤه الصليبيون بعهودهم ويخونون صداقته الودية لهم، ولكن لما رأى طلائع جيش الصليب تقترب من دمشق ارتعدت فرائصه وأيقن أن القوم جادون وأنه هالك لا محالة، واضطر وهو مكره للاستنجاد بسيف الدين غازي حاكم الموصل وأخيه نور الدين حاكم حلب وسارع الشقيقان لتلبية استغاثة أنر، وخلال أيام كان جيشهما في مدينة حمص التي تبعد مسيرة يوم وبعض اليوم عن دمشق (١٦٠ كلم) وهناك بعث سيف الدين إلى الوزير أنر رسالة اشترط فيها تسليم أمر دمشق لمن يوثق به خوفاً من أن يغدر به فماضي هذا الرجل وتاريخه حافل بنكث العهود ومهادنة الإفرنج وتحالفه معهم على المسلمين ويورد ابن الاثير نص رسالة سيف الدين ومما قاله فيها... «قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي. فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بين

---

(١) من الأمور المستغربة أن كثيراً من الشعب العربي اليوم حتى قسم كبير من الدمشقيين، يجهلون تفاصيل الملحمة البطولية التي سطرها سكان دمشق في تلك الأيام والتي لا تقل مطلقاً في نتائجها وتضحياتها عن ملحمة الشعب المصري في المنصورة إبان الحروب الصليبية، وكذلك ملحمة بور سعيد عام ١٩٥٦ على العدوان الإنكليزي الفرنسي الإسرائيلي، أو تصدي شعب ستالينغراد للجيش النازي في الحرب العالمية الثانية، في الوقت الذي أفاض المؤرخون القدامى بالحديث عن هذه المعركة وملأوا كثيراً من الصفحات تمجيداً وتخليداً لهذه الملحمة.

نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة علينا لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق به وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنا على الفرنج انني لا آخذ دمشق ولا أقيم فيها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي »[١].

وكان طبيعياً أن يرفض أنر عرض سيف الدين فهو يعلم أن الدمشقيين يكرهونه ويتطلعون إلى الأخوين أولاد زنكي، خاصة نور الدين الذي كان نجمه في تصاعد، وبما اشتهر به بين رعيته من تقى وعدل، فإذا وافق أنر على تسليم دمشق إلى أحد رجالهما فإن الدمشقيين سيتمسكون بهما حتى ولو وفيا بقسمهما بالانسحاب من المدينة... وشجع أنر على تجاهل رسالة سيف الدين الوقفة الشجاعة الانتحارية التي وقفها شعب دمشق قبالة الغزاة الصليبيين والتي لم يكن، لا هو ولا الصليبيون أنفسهم، يتوقعونها بهذا الحجم وهذه الفعالية...

واصل الجيش الصليبي زحفه نحو دمشق يتقدمه فرسانه، وانتشر في جميع المنطقة الجنوبية، والجنوبية الغربية، وبدأ مناوشاته مع جنود دمشق الأتراك الذين لم يقووا على مجابهة الصليبيين، فارتدوا إلى داخل المدينة مما شجع الصليبيين على التقدم والتوغل في بساتين الغوطة، ففوجئوا بسكان دمشق الذين أخذوا يقاتلون الغزاة بأسلوب ما يعرف بحرب العصابات، مستغلين أشجار الغوطة الكثيفة لنصب الكمائن وتصيد الفرنجة. وغيَّر الصليبيون مواقع هجومهم إلى الجهة الغربية في المنطقة المعروفة باسم الربوة، وتمكن الملك الألماني كنراد أن يصل بجنوده حتى أسوار دمشق، وكان رد الدمشقيين على ذلك أن ملأوا شوارع المدينة وأزقتها بالمتاريس استعداداً لحرب الشوارع والاستماتة دفاعاً عن مدينتهم، بينما واصل رجال العصابات تصيد جند الفرنجة داخل البساتين، وتشجع جنود أنر وقاموا مع شباب دمشق (مجموعة الحدث) بهجوم معاكس على جند الألمان في فجر اليوم الرابع وهو يوم الثلاثاء فأرغموهم على التراجع عن أسوار المدينة، وهنا رأى قادة الصليبيين أن قوات المسلمين قد تجمعت في الجهتين الجنوبية والغربية، فقرروا مباغتتهم ونقل هجومهم إلى الجهة الشرقية في المناطق الجرداء الخالية من الأشجار، وهذه الخطة في رأي

---

(١) ابن الأثير: « الباهر في الدولة الأتابكية » ـ ص٨٦.

الصليبيين، تجعل حركة جيشهم حرة وتجنبهم حرب العصابات إضافة إلى عنصر المفاجأة، وما ان تحرك الجيش الصليبي في الليل حتى شعر في الصباح بالخطأ الكبير المدمر الذي وقع فيه، فالمناطق الشرقية كانت قاحلة لا ماء فيها، زد على ذلك أن الدمشقيين استفادوا من ترك الصليبيين للمناطق التي كانوا يحتلونها، فوسعوا من انتشارهم في الغوطة وأصبحوا يطوقون الجيش الصليبي من الجنوب والغرب والشمال، وانقلب الصليبيون الى مدافعين والدمشقيون إلى مهاجمين، وإثر هذا الانقلاب السريع الذي حدث في سير المعركة دبّ الخلاف بين قادة الصليبيين وأخذوا يتراشقون بالسباب ويتهمون بعضهم البعض بالخيانة والجبن والرشوة من حاكم دمشق. والواقع أن أنر حين وصل الصليبيون إلى مشارف دمشق عمد إلى رشوة بعض قادتهم بدنانير ذهبية مزيفة، كما أخذ يراسل البعض الآخر مؤكداً من جديد صداقته لهم، وأن نور الدين وسيف الدين سيستفيدان من خلافه معهم فيقويان على الصليبيين، غير أن القادة الفرنج لم يلتفتوا الى أنر كما أنهم اكتشفوا أن الدنانير كانت مزيفة فزاد حنقهم عليه.

وبعد هذا الوضع الحربي السيء الذي آلت إليه الحملة الصليبية الثانية، قرر قادتها النكوص والتراجع، وفي فجر اليوم الخامس، الأربعاء ٢٨ يوليو ١١٤٨م لوصولهم لدمشق بدأوا بالانسحاب والعودة إلى القدس، وهم في أدنى درجات اليأس والقنوط وخيبة الأمل، ولم يتركهم المسلمون يعودون بهدوء فأخذوا يهاجمون مؤخرة الجيش وجناحيه ليلاً، وينصبون الكمائن له على طول طريق العودة في اللجاة الحورانية الوعرة، وتناثرت جثث الجنود الفرنج وخيولهم على امتداد الطريق، ووصل أخيراً من بقي سالماً منهم إلى القدس وهم يجرون أذيال الهزيمة والخذلان. ويقول رنسيان: ان كل ما حققته هذه الحملة أنها فقدت عدداً كبيراً من رجالها وقدراً كبيراً من عتادها وتعرضت لهوان شديد، وإن ما حدث من إرغام جيش في هذه الضخامة على التخلي عن تحقيق هدفه ولم ينقض على القتال سوى أربعة أيام، يعتبر ضربة فاضحة لكرامة المسيحيين، وبذا تبددت نهائياً أسطورة فرسان الغرب الذين لا يقهرون التي نمت وترعرعت أثناء مغامرة الحرب الصليبية الأولى بينما انتعشت آمال العالم الإسلامي[1].

---

(١) ستيفن رنسيمان: «تاريخ الحروب الصليبية»، الجزء الثاني - ص٤٥٨.

ومن المعروف أن هذا الحملة كانت أكثر تنظيماً وقوة من الحملة الصليبية الأولى، وهذا يؤكد أن الفرنج قابلوا هذه المرة مسلمين جدداً غير ما قابلوه في حملتهم الأولى، والواقع أن الشعب الدمشقي الذي أطلق عليه المؤرخون القدامى اسم العامة أو سكان البلد، أبدى ضروباً من الشجاعة بكباره وصغاره ونسائه، وأسهم بالقتال ما يعرفون باسم الأحداث، وهم شباب المدينة مدربين على السلاح. كما تصدر المقاتلين رجال الدين والعلماء والفقهاء الدمشقيون، أمثال: أبو الحجاج يوسف المغربي الفندلاوي شيخ المالكية، والفقيه عبد الرحمن حلحول اللذين استشهدا أمام أسوار دمشق. وتولت النسوة الدمشقيات جلب الذخيرة والطعام والمياه إلى المحاربين، كذلك تطبيب المرضى، وشارك الصبيان أيضاً في المعركة: إما مقاتلين أو مساعدين في نقل العتاد، وقد عبر الشعب الدمشقي بوقفته هذه عن الإنسان المسلم الجديد الذي أنجبته قساوة السنين العجاف الماضية، والتي كان يتجرع فيها كل يوم صنوف الهوان والمذلة وهذا الإنسان المسلم الجديد لم يولد في دمشق فحسب بل في كل منطقة من المناطق العربية الإسلامية، وهو الذي التف حول عماد الدين ثم ابنه نور الدين ومن بعدهما صلاح الدين حتى تمكن من الثأر لنفسه ورد الغزاة[1].

وقد أفاض مؤرخونا القدامى في وصف استبسال الدمشقيين دفاعاً عن مدينتهم، وهذا نموذج مما كتبه أولئك المؤرخون، أنقله من كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» للمؤرخ العربي أبي شامة المقدسي:

«قلت وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» أن ملك الألمان الفرنجي

---

(١) حاول مؤرخو الحروب الصليبية الغربيون، ومنهم وليم الصوري، أن يفتعلوا أسباباً لهزيمة الفرنجة أمام دمشق، من هذه الأسباب أن القادة الصليبيين اختلفوا وهم أمام دمشق على مَن سيكون أميراً للمدينة بعد فتحها، الأمر الذي دفع بعض الأمراء الى التراخي من الهجوم حين لم يرشحوا لإمارة المدينة، ولكن هذه المعلومات تفتقر إلى المنطق. فقيادة الجيش كانت بقيادة ملكين مهمين مع ملك وملكة القدس وكانوا يسيطرون سيطرة تامة على جنودهم وضباطهم، كما أن الوضع العسكري أمام دمشق ما كان ليسمح لأي تنافس بين الأمراء على حكم مدينة لم تلن قناتها، وبقيت صامدة حتى هزمتهم جملة، وقد يكون الخلاف قد حدث داخل القدس عند اتخاذ قرار الهجوم أو أثناء الطريق.

انظر رنسيمان - ج٢ - ص٤٥٥.

وأما هامرتن فإنه يتهم أباطرة بيزنطة بخيانة إخوانهم الإفرنج، وبأنهم تعاونوا مع المسلمين عليهم.

انظر «تاريخ العالم» - ج ٤ - ص٧٥٥ و٧٥٦.

لما وصل إلى الشام اجتمع إليه كل مَن بالشام من الإفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم في جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال: بلى، قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سِر على اسم الله، فتقدما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد، رحمهما الله تعالى. ثم قال أبو يعلى (هو المؤرخ العربي ابن القلانسي): وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها، وهدوا القطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وجرحت معه الصدور، وباكروا الظهور إليهم في غد ذلك اليوم، وهو الأحد، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم.. ولم تزل رحاء الحرب دائرة بينهم وبين خيل الكفار الحجمة عن الحملة حتى تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، وأقبل الليل، وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم، الى مكانه، وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم، للحرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم، وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل، ورجالة الأطراف تتتابع، وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم وزال عنهم روعهم، وثبتوا بإزائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث يقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم، وباكروهم من غد يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم في مخيمهم، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنشاب وحذفاً بالأشجار، وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا، ولم يظهر منهم أحد وظن أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة، ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة الى أن يجدوا لحملتهم مجالاً، وليس يدنو منهم أحد إلا صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث (شباب دمشق) وجعلوا يقصدونهم في المسالك وقد أمنوا، فيقتلون من ظفروا به، ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالمسارعة إلى جهادهم

واستئصال شأفتهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار وأعملوا الآراء فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل فرحلوا بجر يوم الأربعاء التالي مغلولين، وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام، بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم ما لا عدد له ولا حصر يلحقه، بحيث لها أراييح من جيفتهم تكاد تصرع في الجو، وكانوا قد أحرقوا البروة والقبة المدودية في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدة فلله الحمد والشكر..»[1].

كما تبارى شعراء ذلك العصر في الإشادة والفخر بهذه المعركة التي تمكنت فيها مدينة عربية من دحر عدة جيوش صليبية دفعة واحدة، وأنقل هذه الأبيات كنموذج عن تلك القصائد الشعرية، وهي للشاعر محمد بن نصر القيسراني الذي عاصر تلك المعركة، والتي بدأها بمدح مجير الدين الحاكم السلجوقي لمدينة دمشق:

الحقّ مبتهج والسيف مبتسم ... ومال أعداء مجير الدين مقتسم
والنصر دان وخيل الله مقبلة ... ترجو الشهادة في الهيجا وتغتنم
صاب الغمام عليهم والسهام معا ... فما دروا أيها الهطالة الديم
سروا لينتهبوا الأعمار فانتهبوا ... قتلاً ويغتنموا الأموال فاغتنموا
وأقبلت خيلنا تردي بخيلهم ... مجنونة وعلى رماحنا القمم
وافوا دمشق فظنوا أنها جسدة ... ففارقوها وفي أيديهم العدم[2]

---

(١) أبو شامة ـ الروضتين ـ ج ١ ـ ص٥٢ و٥٣.
ويذكر ابن الجوزي أن سكان دمشق من الرجال والنساء والأطفال، اجتمعوا في جامع بني أمية عندما وصل الفرنج بلادهم، وأخرجوا قميص عثمان ووضعوه وسط الجامع، وكشفوا عن رؤوسهم ودعوا، فاستجاب الله منهم فرحل الفرنج. ويضيف ابن الجوزي بأنه كان مع الصليبيين قسيس طويل بلحية بيضاء يركب حماراً أحمر، وترك في حلقه صليباً وفي حلق حماره صليباً، وأخذ في يده صليبين، وقال للإفرنج: إني قد وعدني المسيح أن آخذ دمشق ولا يردني أحد، فاجتمعوا حوله، وأقبل يطلب دمشق فلما رآه المسلمون غاروا للإسلام وحملوا عليه بأجمعهم فقتلوه وقتلوا الحمار وأخذوا الصلبان فأحرقوها...
انظر ابن الجوزي «المنتظم» ـ ج ١٠ ـ ص١٣١.

(٢) أبو شامة ـ «الروضتين» ـ ج ١ ـ ص٥٤.

الفصل السابع

توحيد بلاد الشام مع مصر والموصل

لخص ستيفن رنسيمان نتائج الحملة الصليبية الثانية التي هزمت عام ١١٤٨ هزيمة مرة أمام دمشق، فقال:

ما من حملة في العصور الوسطى ضارعت تلك الحملة التي خرجت وانعقدت عليها آمال بالغة الروعة. إذ وضع خطتها البابا ودعا إليها وأوصى بها القديس برنارد بما اشتهر به من فصاحة. وقادها أعظم ملكين بغرب أوربا، كانت تبشر بمجد العالم المسيحي وخلاصه غير أنه لما بلغت نهايتها المشينة الذليلة بارتدادها المضني عن دمشق، كان كل ما أنجزته أنها جعلت العلاقات بين المسيحيين في الغرب والبيزنطيين من المرارة ما كاد يؤدي إلى القطيعة بينهم، وانها بذرت الشكوك بين الصليبيين القادمين حديثاً من الغرب وبين الفرنج النازلين بالشرق، وأنها أوقعت بين أمراء الفرنج الغربيين، فعزلت كلاً منهم عن الآخر، وأنها حملت المسلمين على أن يزدادوا تقارباً، وأنها أنزلت ضرراً خطيراً بما اشتهر به الفرنج بشدة القتال. وقد يسعى الفرنسيون إلى إلقاء اللوم في فشل الحملة الصليبية الثانية على غيرهم، على الأمبراطور مانويل الخائن أو على بارونات فلسطين لاستخفافهم، وقد يثور القديس برنارد على أولئك الرجال التعيسين الذين تدخلوا في أمر الله، لكن الواقع أن قادة الحملة مجتمعين يعتبرون المسؤولين عن فشلها، لما وقع بينهم من خصام ولجهلهم ولحماقتهم[1].

والواقع ان فشل الحملة الصليبية الثانية، هذا الفشل الذريع المهين كان المؤشر الثاني، بعد هزيمة الفرنج في الرها، الذي جعل الغربيين خاصة الفرنسيين والألمان والإنكليز يقتنعون أنهم قبالة أمة متمدنة، عميقة الجذور، متينة الوشائج. وأنهم قبالة

---

(١) ستيفن رنسيمان - «تاريخ الحروب الصليبية» - ج ٢ - ص ٤٦٢.

دين سماوي احتل احتلالاً كاملاً قلوب أتباعه ونفوسهم، وجعلهم أمة مميزة بسلوكها الإنساني وتفكيرها المتفتح، المستحيل إفناؤها ودحرها، وقد التقت نظرة هذا الغربي مع نظرة ذلك الذي كان يقارع العرب المسلمين في الأندلس سنوات طويلة. وفي رأيي أن هذا التبدل الذي طرأ على نظرة الغربي للعرب وللمسلمين عموماً، قد حوله من إنسان مزدرٍ بالعرب والإسلام إلى إنسان امتلأ حقداً على هذه الأمة ودينها، وتوارث هذا الحقد، عن إدراك أو عن جهل، الأبناء عن الآباء، وعبرت عنه سياسة الغرب وسلوكه طوال الحقب التاريخية التي تلت الحروب الصليبية بشتى الأساليب وبطرق مختلفة.

وغضي مع تاريخ الحروب الصليبية إثر هزيمة الفرنج على أبواب دمشق عام ١١٤٨ م الذين انفضَّ جمعهم، فالملك كنراد الألماني ابحر مع رجاله من عكا في سبتمبر في نفس العام إلى البلاط البيزنطي حيث حاول أن يفتح صفحة جديدة مع الأمبراطور البيزنطي أمانويل بعد ما حدث من شقاق وخلاف وتبادل التهم بين الصليبيين والبيزنطيين. أما ملك فرنسا لويس السابع، فقد ظلّ في فلسطين فترة لينسى فيها مرارة الهزيمة ثم تحول في العام التالي إلى صقلية ضيافة على ملكها روجر الثاني، ثم تابع سيره نحو بلاده فرنسا، وكان يؤكد لكل من قابله من أمراء ومتنفذين دينيين إيطاليين وفرنسيين أن هزيمة الحملة الثانية تقع كلها على كاهل البيزنطيين وأمبراطورهم، بسبب خيانتهم لإخوانهم في الدين وغدرهم بهم. واضطرّ القديس برنارد إلى الاقتناع بأن ما حلَّ بحملته الصليبية الضخمة من خاتمة مفجعة، وما لحق بجنود الصليب من كوارث، إنما مصدره من بيزنطة، فبذل كل طاقته لاستنزال الانتقام الإلهي بالأمبراطورية البيزنطية الآثمة كما شمل غضبه ولعنته كنراد ملك ألمانيا الذي صالح الأمبراطور البيزنطي الخائن الغادر[1].

سقوط حصن العريمة

لم يبق من أمراء الحملة الصليبية الثانية في فلسطين إلا برتراند الصغير، كونت تولوز بفرنسا، والابن غير الشرعي للكونت ألفونسو الذي كان أحد قواد الحملة

---

(١) ستيفن رنسيمان ـ «تاريخ الحروب الصليبية» ـ ج ٢، ص ٤٦١ وسبق الإشارة إلى أن المؤرخ البريطاني هامرتن يشارك القديس برنارد رأيه في أن امبراطور بيزنطة خان إخوانه الفرنج وتسبب في هزيمتهم.

الصليبية الثانية، ومن ذوي البأس والشدة وحب المغامرة، وقد جاء ضمن جيش ملك فرنسا لويس السابع وسبق لويس في الوصول إلى فلسطين، قادماً عن طريق البحر من القسطنطينية، ووصل عكا في إبريل من عام ١١٤٨ م. ولكن ألفونسو مات فجأة في بلدة القيسارية، وهو في طريقه من عكا إلى بيت المقدس. وراجت شائعات بين الصليبيين حول سبب موته، وكثرت أصابع الاتهام المشيرة إلى ابن أخيه ريموند حاكم طرابلس بأنه وراء قتل عمه ليحمي ملكه، وذلك أن ريموند هذا تولى حكم طرابلس بعد أبيه وبما أنه كان وريثاً غير شرعي، فإن عمه ألفونسو أعلن صراحة أنه الوريث الشرعي في حكم هذه الإمارة، واقتنع برتراند الصغير ابن ألفونسو بهذه الشائعات واتّهم ابن عمه ريموند صراحة بأنه وراء قتل أبيه، ونتج عن ذلك أن خاف ريموند انتقام جنود عمه منه، فامتنع عن المشاركة في الحرب الصليبية الثانية وبقي محصناً نفسه في إمارته طرابلس، وبعد اندحار الحملة وعودة الصليبيين إلى فلسطين رفض برتراند الرجوع إلى فرنسا، وقرر البقاء مع جنوده في فلسطين للأخذ بثأر أبيه من ريموند، وبالتالي التربع على عرش طرابلس الجميلة الوافرة الغنى، وبعد أن رتب خططه الهجومية على طرابلس أشاع بين الناس أنه ينوي العودة إلى فرنسا عن طريق أحد الموانيء البحرية الشمالية، وتحرك هو وجنوده صوب شمال فلسطين، ثم اتجه فجأة نحو حصن العريمة فاحتلّه بسرعة، وأخذ في الاستعداد للهجوم الأخير على طرابلس إذ إن حصن العريمة يحتل موقعاً استراتيجياً مهماً، ويشرف على المدينة، ويتحكم على الطريق الواصل بينها وبين عدة مدن داخلية، وحاول ريموند التصدي لابن عمه ولكن جنوده انهزموا أمام جيش برتراند، وما ان شعر ريموند بالخطر المحقق المحدق به، حتى سارعت رسله إلى مجير الدين أنر حاكم دمشق يستنجد به بعد أن رفض جيرانه الصليبيون مدّ يد المساعدة إليه، فجراح هزيمة الحملة الثانية لم تندمل بعد في أجساد جنودهم، وقرر أنر مساعدة كونت طرابلس، ولما كان غير قادر على هذه المساعدة طلب من نور الدين محمود بن زنكي دعمه في هذا العمل، ووافق نور الدين، وسار جيش أنر وجيش نور الدين من مدينة بعلبك التي كانت مكان تجمعهما نحو حصن العريمة، كما دعم الجيشان بجيش أرسله أمير الموصل سيف الدين غازي، ولم يصمد الحصن إلا قليلاً أمام جيش المسلمين إذ سرعان ما تهاوت أسواره أمام ضرباتهم، ودفع كل من بقي حياً من جنود الفرنج في الأسر حتى برتراند نفسه حيث

كان هو وأخته[1] من حصة نور الدين الذي حملهما إلى حلب، وبقيا في الأسر اثنتي عشرة سنة، ودمر المسلمون قلاع الحصن وأسوارها... ويعلق ابن الأثير ساخراً على مصير الأمير برتراند الذي طمع في إمارة طرابلس فأصبح أسيراً للمسلمين بقوله... «وكان مثل ابن الفنش (الفونسو) كما قيل مثل النعامة التي خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين»[2].

لم تشر المصادر العربية إلى الأسباب التي دفعت نور الدين وأخاه سيف الدين إلى دعم أمير طرابلس الصليبي على ابن عمه، خصوصاً وأن نور الدين عرف ببعد النظر السياسي، وأنه لا يخطو خطوة أو يقدم على أمر إلا بعد دراسة وافية، يستبين فيها الأغراض والنتائج المتوخاة من تحركه، ولا نعتقد أن نور الدين ساعد ريموند بناء على إلحاح معين الدين أنر وزير دمشق، كما يوحي بذلك ما نقله مؤرخونا القدامى، مكتفياً ببعض الأسرى والعودة إلى حلب بعد تسليم حصن العريمة بالكامل إلى ريموند الصليبي، ومما لا شك فيه أن تحرك الجيش النوري لدعم ريموند الضعيف كان للحيلولة دون وصول أمير صليبي شرس قوي كبرتراند إلى حكم إمارة طرابلس، مما يدل على أن نور الدين كان على دراية تامة بما يحدث داخل الإمارات الصليبية، ويعرف مدى قوة وإمكانيات كل أمير صليبي في منطقته.

نور الدين يهدّد إنطاكية ويقتل أميرها

بعد عام من معركة العريمة قرر نور الدين البدء في تقليم أظفار الصليبيين القريبين من عاصمته حلب، وخصص لهذا العمل جيشاً كبيراً، واستغل نقض الصليبيين للمعاهدة المبرمة بينهم وبين حاكم دمشق، فطلب منه المساعدة فاستجاب وزيرها معين الدين أنر، وأمدّه بكتيبة بقيادة الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين، وانتظر نور الدين الفرصة المناسبة لبدء هجومه، وقد جاءت إثر هجوم مفاجىء قام به ريموند حاكم إنطاكية على جيش نور الدين الذي كان متمركزاً قرب أفامية القريبة

---

(١) تقول المصادر العربية: إن الذي وقع في الأسر أم برتراند وليست أخته. انظر أبو شامة: «الروضتين» - ج ١ - ص٥٥. كما يورد رنسيان عن المصادر الصليبية أن نور الدين تزوج من أخت برتراند بعد أسرها، وأنجبت له ابنه الصالح الذي خلفه في الحكم، ولم تذكر المصادر العربية هذا الأمر.

(٢) ابن الأثير: «الكامل في التاريخ» - ج ١١ - ص١٣٢.

من الساحل السوري عام ٥٤٤هـ - ١١٤٨م، واضطرّ نور الدين إلى التراجع لأن ذلك الهجوم المفاجىء أحدث فعله في خلخلة صفوف المسلمين فتقهقروا، لكن نور الدين سارع لإنقاذ الموقف، ونجح في تجميع قواته وإيقاف تراجعها، ثم الزحف بها على الجيش الصليبي، والتقى الجمعان مجدداً قرب حصن أنب الذي لا يبعد كثيراً عن حلب، واستبسل المسلمون وتمكنوا من دحر الصليبيين، وقتل الكثير منهم، وكان من بينهم ريموند أمير إنطاكية الذي قتل بضربة سيف من شيركوه قائد جيش نور الدين، كما قتل علي بن وفا أحد زعماء القرامطة الذي انضم إلى صفوف الصليبيين للانتقام من نور الدين الدائب على متابعة أتباعه وتصفيتهم، وقام نور الدين بإرسال رأس ريموند إلى الخليفة العباسي في بغداد، واستغلّ نور الدين هذا النصر فاندفع بقواته نحو إنطاكية، وتمكن من تحرير جميع المدن والقرى المحيطة بها من الصليبيين، حتى وصل إلى باب إنطاكية فحاصرها، ثم اتجه نحو حصن أفامية المنيع فخاف سكانها وأعلنوا استسلامهم للجيش النوري الذي دخلها بعد أن أمَّن نور الدين أهلها، وعاد الجيش الإسلامي إلى حلب ليستعد لمعركة ظافرة أخرى بعد أن بلغ مسامع نور الدين أن الصليبيين تجمعوا في القدس ليتوجهوا إلى الشمال لإنقاذ إنطاكية.

نور الدين يحرر المناطق الشرقية والشمالية من حلب:

بعد سقوط الرها التجأ حاكمها جوسلين الثاني إلى بلدة تل باشر في الشمال، وأصبح بما عرف عنه من شجاعة واندفاع شوكة في جنب نور الدين الذي اضطر إلى مهادنته مراراً حتى يتفرغ لأعماله الحربية في الغرب والجنوب، ورضي جوسلين بهذا الوضع حتى اتهم من قبل الصليبيين بأنه أصبح واحداً من أمراء وأتباع نور الدين. وفي أوائل عام ١١٤٩م قرر نور الدين التخلص نهائياً من هذا الجيب الصليبي، فجهز جيشاً اتجه به نحو تلّ باشر، ولما علم جوسلين بذلك سارع لعقد حلف مع بعض الحكام الأتراك والأرمن المناوئين لنور الدين، وتمكن بهذا الجيش المختلط من إلحاق الهزيمة بالجيش النوري، وقتل من المسلمين وأسر منهم جمعاً كثيراً، وكان من جملتهم خازن سلاح نور الدين الذي بعثه إلى السلطان مسعود بن تاج ارسلان والد زوجة نور الدين، مع كمية من السلاح ورسالة قال فيها: «لقد أنفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك

بعده ما هو أعظم »[١]. وقد تأثر نور الدين كثيراً من هذا الأمر، وبقي مرابطاً حتى تمكن من أسر جوسلين والانتقام منه، ويورد ابن الأثير في الكامل قصة أسر جوسلين فيقول: « إن نور الدين لما علم بالحال عظم عليه ذلك، وقرر إعمال الحيلة للقبض على جوسلين، وهجر الراحة ليأخذ بثأره، وأحضر جماعة من أمراء التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه، إما قتيلاً أو أسيراً، لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه، فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيداً فلحقت به طائفة منهم وظفروا به، فصانعهم على مال يؤديه إليهم، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال، فأرسل في إحضاره، فمضى بعضهم إلى أبي بكر بن الداية، نائب نور الدين بحلب فأعلمه بالحال فسير عسكراً معه، فكبسوا أولئك التركمان وجوسلين معهم، فأخذوه أسيراً وأحضروه عنده، وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين، قاسي القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره »[٢].

لقد كان جوسلين العقبة الأخيرة في تحرير شمال حلب من الصليبيين، وبعد أسره فتحت أبواب المدن والمعاقل الشمالية أمام نور الدين واحدة إثر أخرى، فسيطر على تل باشر وعين تاب، واعزاز وتل خالد وغيرها، وكان نور الدين كلما فتح بلداً أو حصناً عمل على تقويته وحشده بالجند خوفاً من وقوعه بيد الفرنج ثانية.

وكان لهذه الانتصارات المتلاحقة التي نجح نور الدين في تحقيقها الأثر البالغ عند الشعب الشامي والمسلمين عموماً، وأصبح نور الدين واحداً من أبطال المسلمين العظام، واتسعت دائرة شعبيته بين العرب المسلمين خصوصاً في بلاد الشام.

وعكس شعراء ذلك الزمن بقصائدهم الكثيرة المطولة ذلك المدّ الشعبي، وأنقل فيما يلي أبياتاً للشاعر القيسراني أحد الشعراء الشاميين يمدح فيها ويمجد شخصية نور الدين ويدعوه إلى المزيد من الانتصارات وتحرير بيت المقدس من الصليبيين، وقد عارض القيسراني بقصيدته هذه قصيدة أبي تمام التي مدح بها المعتصم عند انتصاره في عمورية، يقول الشاعر:

---

(١) ابن الأثير: « الكامل » ـ ج ١١ ـ ص١٥٤ ، أبو شامة: « الروضتين » ج ١ ـ ص٧٢ .

(٢) ابن الأثير: « الكامل » ـ ج ١١ ـ ص١٥٤/١٥٥ .

هــذي العزائم لا مــا تــدّعي الكتــب
وذوي المكــارم لا مــا قــالــت الكتــب
وهــــذه الهمم الـــلاتي مـــتى خطبـــت
تعــثرت خلفهـــا الأشعـــار والخطـــب
صــافحــت يــا ابن عمــاد الــدين ذروتهــا
براحـــــة للمساعي دونهـــــا تعــــب
يــا ساهــد الطرف والأجفــان هــائجــة
وثــــابــــت القلــــب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفـــك بـــالإفرنـــج راجفـــة
فؤاد روميـــــة الكـــبرى لهـــا يجـــب
ضربـــــت كبشهم منهـــا بقـــاصمـــــة
أودى بهـــا الصلــب وانحطــت بهــا الصلــب
فــانهــض إلى المسجــد الأقصى بــذي لجــب
يوليـــك أقصى المنـــى فــالقــدس مرتقــب
وائـــذن لموجـــك في تطهـــير ساحلـــه
فـــإنمـــا أنـــت بحر لجـــه لجــب[1]

لقد هزت هذه الشعبية لنور الدين كراسي الحكام المسلمين والصليبيين، وأسهمت في إسقاط حاكم دمشق التركي مجير الدين ابق بن بوري طغدكين، وحاكم الموصل ابن أخي نور الدين وأخيراً العرش الفاطمي في مصر، وأصبحت جميع هذه البلاد في سنوات قليلة موحدة تحت السيادة النورية بما فيها اليمن والحجاز، ورافق ذلك تقلص وانكماش النفوذ الصليبي في العديد من المناطق الشامية، وتواصلت هزائم جيوش الفرنجة.

نور الدين يضمّ إمارة دمشق إلى سلطته:

كانت السيادة على دمشق بالنسبة لنور الدين ومن قبله والده عماد الدين زنكي،

---

(١) أبو شامة «الروضتين» - ج ١ - ص٥٨ و٥٩.

أملاً عزيزاً وعملاً مهماً، وطريقاً لفتح بيت المقدس ودحر الصليبيين، وعرف الصليبيون أهمية دمشق فحاولوا مراراً احتلالها، ولما فشلوا عملوا بكلّ وسيلة على منع سقوطها بيد نور الدين، وتعددت في هذه الفترة محاولات الجيش النوري للسيطرة عليها، فقد كان يحكمها وزير تركي ماكر هو معين الدين أنر، الذي استبد في البلاد وبحاكمها الفعلي مجير الدين بن بوري، ونجح في إحكام قبضته على سكان دمشق وتصدى لمحاولات نور الدين وإبعاده والاستيلاء على المدينة ونجاح معين الدين هذا دلّ على دهائه وقدرته الكبيرة على استغلال الفرص والظروف وتعاونه السافر مع الصليبيين. وفي عام ٥٤٤ هـ (١١٤٩م) توفي أنر بمرض الزحار، واستقبل العديد وفاته بالارتياح والسعادة، بن فيهم مجير الدين بن طغدكين الذي كان أنر يحكم باسمه، فسارع لاستعادة سلطته ولكنه أثبت أنه حاكم أرعن فاشل، قام بسلسلة من الأعمال الطائشة زادت من نقمة الشعب الدمشقي عليه، ومنها إعلان خضوعه الكامل للصليبيين حتى وصل الأمر بهؤلاء إلى أن أصبحوا يقومون جماعات وفرادى بزيارة دمشق والتجول في أسواقها وميادينها، واستفزاز الدمشقيين، واستغلوا ضعف مجير الدين فأكثروا من عمليات الفتك والنهب والسبي في العديد من القرى المسلمة ـ كما جعلوا على دمشق إتاوة سنوية يأتي رسولهم ويجبيها من أهلها، وتمادوا في عدوانهم حتى إنهم كانوا يستعرضون الرجال والنساء الفرنج الذين وقعوا أسرى بيد الدمشقيين ويستردونهم قهراً من أصحابهم المسلمين إلا الذين أصروا على البقاء في دمشق[1].

لم يعد بمقدور أهل دمشق الصبر على حياة الهوان والذل التي جاءت نتيجة لضعف حاكمهم، وتمادى الصليبيون، فأعلنوا العصيان والثورة، كما تعددت رسلهم إلى نور الدين طالبة منه التدخل واحتلال دمشق بعد أن أصبحت لقمة سائغة في فم الصليبيين، وكان نور الدين يستقبل هؤلاء الرسل ويكرم وفادتهم مؤكداً لهم أنه سوف يتولى إنقاذ دمشق، ووضع حد لعبث وتطاول الصليبيين، غير أنه قرر التريث وعدم المبادرة فوراً بسبب اضطراب الأحوال في الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي والخلافات بين أسرته على وراثة حكم المدينة، وفي عام ٥٤٥ هـ ـ ١١٥٠ م توجه نور الدين على رأس جيش لجب نحو دمشق، لكن سقوط الأمطار الغزيرة عطل

(١) أبو شامة «الروضتين» ـ ج ١ ـ ص٩٥. ابن الأثير: «الكامل» ـ ج ١١ ـ ص١٩٧.

تقدم جيشه فأتيح لمجير الدين الفرصة ليطلب النجدة من حلفائه الصليبيين الذين سارعوا لنجدته فرأى نور الدين أن الوقت لم يحن بعد لنيل هذه المدينة، فقرر فك الحصار عنها بعد أن وعده مجير الدين بأنه سيعتبر نفسه أحد رجاله وينقش اسمه على النقود الدمشقية ويدعو له بالمساجد في خطب الجمعة بعد الدعاء للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، كما سيوقف عمليات الاستفزاز والعدوان التي يمارسها الصليبيون على أهل دمشق. وفي السنة التالية أدى مجير الدين نفسه زيارة ودية لنور الدين في حلب، ووقّع معاهدة تعاون معه، ومن المؤكد أن نور الدين كان يسعى لإعداد هجوم سريع وقوي لإسقاط حكم مجير الدين نهائياً، ومهد لهجومه العسكري بأعمال سياسية، فكان يتظاهر بالودّ لمجير الدين، ويزوده بالنصح والإرشاد للقيام بأعمال تزيد من نقمة السكان عليه وتباعد بينه وبين أنصاره، ونجح نور الدين في أن يحدث وقيعة بين حاكم دمشق وبين أهم قواده وأنصاره حين كان ينصحه مثلاً بإبعادهم لأنهم يخونونه ويراسلون حلب لاحتلال دمشق، وكان آخر هؤلاء القواد عطاء بن الحفاظ السلمي الذي قتله مجير الدين رغم توسله وحلفه أغلظ الأيمان بأنه لم يخنه وإنما هي دسيسة من نور الدين، وعلى محور آخر عمد نور الدين إلى إرسال العيون وبثّها بين الدمشقيين للتجسس وترويج الشائعات التي تنال من سمعة حاكمهم وتحريض الشعب على الثورة، ومن جهة أخرى تعاهد الدمشقيون خاصة مجموعات الشباب (الأحداث) على إعلان الثورة بمجرد وصول الجيش النوري إلى دمشق، وعلى الطرق المؤدية إلى دمشق نشر نور الدين سراياه لمهاجمة القوافل التجارية التي تحمل الغذاء ومختلف السلع، ومنعها من دخول دمشق مما أدّى إلى ارتفاع الأسعار بعد أن ندرت المواد التموينية بما فيها القمح الغذاء الأساسي للسكان، فتضاعفت نقمة الناس على مجير الدين وحكمه، ووجد نور الدين أن الوقت قد أزف، وأن دمشق أصبحت ثمرة يانعة وحان قطافها، وتوجه نحو المدينة في محرم من عام ٥٤٩ هـ (أبريل عام ١١٥٤م) قائد الجيش النوري أسد الدين شيركوه على رأس ألف جندي بعد أن سبقه رسول نور الدين ليبلغ مجير الدين أن شيركوه سيقوم بزيارة ودية لعاصمته، لبثّ الطمأنينة في نفسه ومنعه من الاتصال بالصليبيين لنجدته، وفوجىء مجير الدين الذي كان ينتظر السفارة النورية الودية، بهذا العدد الكبير من الجنود الذين رافقوا شيركوه عندما وصلوا إلى مشارف دمشق، فأصدر أوامره السريعة بإغلاق أبواب

المدينة ومنع دخول أي جندي نوري إليها، كما رفض استقبال شيركوه وسارت الخطة على الشكل المطلوب، فأعلن نور الدين أن ما قام به مجير الدين من عدم استقبال رسوله واستفزاز جنوده، يعتبر إهانة بالغة ونقضاً لمواثيق التعاون والصداقة المبرمة بين الأميرين، وعقب ذلك تحرك نور الدين بجيش كثيف نحو دمشق بعد أن نجح جند شيركوه في إحكام الحصار عليها، وبدأت القوات النورية بالهجوم والعمل على دكّ سور المدينة المنيع الشاهق، كما أعلن الدمشقيون ثورة شعبية على حاكمهم الذي حاول الاستنجاد بالصليبيين ولكن بعد فوات الأوان، فحين تحرك الصليبيون كان نور الدين قد امتلك دمشق، وأبعد حاكمها السابق إلى مدينة حمص، ودانت له جميع المناطق الحصينة خارج المدينة. ويحدثنا أحد المؤرخين الدمشقيين الذين عاشوا هذه الفترة وهو أبو يعلى حمزة ابن القلانسي، عن الكيفية التي تمّ بها فتح المدينة أمام الجيش النوري فيقول في كتابه: «ذيل تاريخ دمشق»: «في العشر الثاني من محرم وصل الأمير أسد الدين شيركوه بن نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخيّم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الألف، فأنكر ذلك ووقع الاستخواف منه وإهمال الخروج إليه لتلقيه والاختلاط به، وتحررت المراسلات فيما اقتضته الحال ولم تسفر عن سداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغلال، ووصل نور الدين في عسكره إلى شيركوه في ثالث صفر، وخيم بعيون فاسريا عند دومة[1] ورحل في الغد ونزل بيت الآبار من الغوطة، وزحف إلى البلد من شرقيه، وزحف إليه من عسكره وأحداثه (عسكر وأحداث دمشق) الخلق الكثير ووقع الطرد بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، ثم زحف يوماً بعد يوم وتأكد الزحف يوم الحادي عشر من صفر، وظهر إليه العسكر الدمشقي فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كيسان والدباغة من قبلي البلد، وليس على السور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر غير نفر يسير لا يؤبه لهم، فتسرع بعض الرجالة إلى السور وعليه امرأة[2] فأرسلت إليه حبلاً فصعد فيه، وحصل على السور ولم يشعر به أحد، وتبعه من تبعه وطلعوا على ما نصبوا على السور، وصاحوا: نور الدين يا منصور، وامتنع

---

(١) مدينة صغيرة قرب دمشق جهة الشمال.

(٢) ينفرد ابن القلانسي بالقول أن المرأة كانت يهودية، ولحن نستبعد وجود امرأة أعلى الأسوار وقت اشتداد القتال، وربما كان شاباً من أحداث دمشق.

الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله وحسن ذكره وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أغلاقه، وفتحه، فدخل منه العسكر وسعوا في الطرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح باب توما أيضاً ودخل الناس منه، ثم دخل نور الدين وخواصه وسر الناس كافة من الأجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار والخوف من منازلة الفرنج الكفار، وكان مجير الدين لما أحسّ بالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه فأمن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين فطيب نفسه ووعده الجميل، ودخل نور الدين القلعة في اليوم المقدم ذكره، وأمر بالمنادية بالأمان للرعية، ومنع من انتهاب شيء من دورهم، وتسرع قوم من الرعاع والأوباش إلى سوق علي وغيره، فعاثوا ونهبوا، وأنفذ نور الدين إلى أهل البلدة بما طيَّب نفوسهم وأزال نفرتهم وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية... ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقهاء والتجار، وخوطبوا بما زاد في إيناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر إليهم بما يعود بصلاح أحوالهم، فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه... ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا أنه لا يقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل قندوقص «كونت» وتقربوا إليه. ثم ان مَن بتلّ باشر راسلوه وبذلوا له في تسليمها إليه فأرسل إلى الأمير حسان المنجي وهو من أكابر أمراء نور الدين وإقطاعه منبج[1] فأمره أن يتسلمها منهم فسار إليه وتسلمها وحصنها ورفع إليها ذخائر كثيرة[2].

ضمّ الموصل إلى الدولة النورية:

بقيت الموصل في حكم شقيق نور الدين الأكبر سيف الدين غازي مستقلة عن الدولة النورية، وإن كانت تعاونت مع نور الدين في تحرير بعض المناطق من أيدي

---

(١) بلدة شمال حلب.

(٢) ابن القلانسي - «ذيل تاريخ دمشق» - ص٣٢٠، كما يراجع في كل ما تقدم ابن الأثير في كتابه «الكامل» - ج ١١، وكتابه «الباهر في الدولة الأتابكية»، وكتاب «زبدة حلب» لابن العديم - ج ٢. وكتاب «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان - ج ٢. ابن الجوزي «المنتظم» - ج ١٠ - ص١٩٠ وما بعدها.

الصليبيين وكان الشقيقان على وفاق تامّ، ولم يحدث ما يعكر صفو العلاقات بينهما، وبعد وفاة سيف الدين غازي في عام ٥٤٤ هـ (١١٤٩م) آلَ حكم الموصل إلى أخي سيف الدين قطب الدين مودود، لكن بعض الأمراء والقواد، ومن بينهم حاكم سنجار نقموا على قطب الدين لتقريبه واعتماده على الوزير جمال الدين وقائد الجيش زين الدين، اللذين كانا محسودين من أولئك الأمراء للمكانة التي يتمتعان بها لدى سيف الدين أولاً، ثم لدى أخيه قطب الدين وراسلوا نور الدين وطلبوا منه تسلم بلاد الموصل لأنه الابن الأكبر، ووجد هذا الطلب قبولاً كبيراً عند نور الدين الذي كان يسعى لتوحيد الجبهة الإسلامية، فأسرع إلى سنجار على رأس سبعين فارساً من بينهم كبار قواده وأمرائه وتسلمها من واليها عبدالملك، وما ان سمع قطب الدين وجماعته بالأمر حتى جمعوا عسكرهم واتجهوا نحو سنجار وتوقفوا في بلدة تل يعفر وجرت بين الطرفين مفاوضات سياسية وتبادل رسائل، وذلك بناء على مشورة الوزير جمال الدين الذي كان يرى حلّ الموضوع صلحاً وبالحسنى، لأن الموصل كانت تتقوى على السلطان السلجوقي في بغداد بنور الدين، ونور الدين كان يتقوى على الصليبيين بأخيه حاكم الموصل، وينقل ابن الأثير قول الوزير جمال الدين في هذا الصدد «... فإن لقينا نور الدين وهزمناه طمع السلطان فينا، ويقول: هذا الذي كانوا يعظمونه ويحتمون به أضعف منهم وقد هزموه، وإن هو هزمنا طمع الفرنج، ويقولون إن الذي كان يحتمي بهم أضعف منه وقد هزمهم»[1].

والواقع ان هذا الرأي دلّ على بُعد نظر هذا الوزير العجوز ومكره، فحاول إبعاد نور الدين عن الموصل لعلمه أن نور الدين إذا وصل الموصل فَقَد مركزه، وتأكد أن الجيش النوري أقوى من جيش الموصل خصوصاً بعدما انضمت مجموعة من القواد والعسكر من الموصل إلى جانب نور الدين الذي استغل ذلك، وهدد أخاه وصحبه بأنه سيقاتلهم بجنودهم، وان أمراءهم كاتبوه وطلبوا منه التدخل بسبب كراهيتهم لولاية أخيه ووزيره وقائد جيشه[2] ومن ناحية أخرى وجد نور الدين في كلام الوزير جمال الدين شيئاً من الحقيقة فوافق على إنهاء الخلاف سلماً، وترك سنجار بعد أن تمّ الاتفاق على أن يتنازل له أخوه عن بعض المناطق التي تعتبر من بلاد الشام مثل حمص

---

(١) ابن الأثير: «الكامل» - ج ١١ - ص١٤١.

(٢) ابن الأثير: «الباهر» - ص٩٦.

والرحبة والرقة، ويترك له المناطق الشرقية التي من بينها سنجار، كما أنه لم يرحل عن سنجار إلا بعد أن أخذ جميع ما فيها من كنوز وأموال وسلاح الذي كان والده عماد الدين قد خزنها في قلعة المدينة لحين الحاجة، ومن المحتمل أن يكون إسراع نور الدين إلى سنجار للاستيلاء على هذه الأموال والذخائر للاستفادة منها في مشاريعه الحربية، ويعطي ابن الأثير صورة عن مقدار الأموال والذخائر التي حصل عليها نور الدين حين يقول: «إنها حملت على ستمائة جمل ما خلا البغال، وما فرقه على أولاد الملوك والأمراء مع ستة وتسعين بغلاً محملاً ذهباً»[1].

سارت الأمور بين الأخوين بعد هذه الحادثة سيراً حسناً حتى ان نور الدين كما يذكر ابن القلانسي، عندما أصيب بمرض خطير واعتقد أنه سيموت جمع أمراءه وقادته وطلب منهم تولية أخيه قطب الدين على جميع البلاد الشامية بقوله: «وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد بأن يكون في منصبي بعدي فحلفوا له»[2]. غير أن المصادر العربية الأخرى تذكر أن نور الدين حين مرض نصب أخاه نصر الدين خلفاً له، ثم عاد وجعل قطب الدين ولياً للعهد ، وشارك قطب الدين مع أخيه في بعض المعارك التي خاضها نور الدين ضد الصليبيين، ومن أهمها معارك حارم وطرابلس وبانياس، ولم يحاول نور الدين ضم الموصل إلى دولته إلا بعد وفاة أخيه عام ٥٦٥ هـ، وتولى سيف الدين غازي الثاني إمارة الموصل إثر مؤامرة دبرتها الخاتون زوجة قطب الدين مودود لإبعاد عماد الدين زنكي الثاني أخي سيف الدين، وهو الوارث الشرعي لأبيه في حكم الموصل، والتجأ عماد الدين إلى عمه نور الدين مستنصراً به لاستعادة ملك الموصل. وقرر نور الدين عدم إضاعة هذه الفرصة، فتوجه إلى المدينة وحاصرها عام ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) فاضطرّ سيف الدين إلى طلب الصلح من عمه بشرط أن يبقيه حاكماً من قبله على الموصل، ويعتبره أميراً من أمرائه، ووافق نور الدين ودخل المدينة وأبعد نائب حاكمها مجير الدين وعين مكانه أحد قادته سعد الدين كمشتكين، وأصبحت الموصل منذ ذلك التاريخ ولاية تابعة للسلطة النورية واتسعت بها دائرة نفوذ نور الدين والجبهة الإسلامية التي تحت قيادته.

---

(١) ابن الأثير: «الباهر» - ص٩٨.

(٢) ابن القلانسي: «ذيل تاريخ دمشق» - ص٣٥٥.

بلاد الشام تتعرض إلى زلازل مفجعة:

تعرضت البلاد الشامية خلال عامي (٥٥٢ و٥٥٣ هـ - ١١٥٦ و١١٥٧ م) لهزات أرضية قوية مدمرة أسفرت عن تخريب عدة مدن، منها حماه وشيزر، كما وصلت آثارها إلى جزيرة قبرص، أرغمت نور الدين على وقف معاركه مع الإفرنج. ويصف ابن الأثير مدى الكارثة التي جلبها الزلزال في حماه وشيزر، فيورد قصة عن معلم في مدينة حماه خرج من مدرسته لأمر عرض له، فحدثت الزلزلة، فنجا المعلم، وسقطت المدرسة على التلاميذ، فماتوا جميعاً، وانتظر المعلم أولياء تلاميذه ليسألوا عن أولادهم، فلم يأته أحد[1].

وأما شيزر، فدمرت عن آخرها وقتل جميع من فيها. ويذكر ابن الأثير أن أميرها ابن منقذ دعا سكان المدينة وكبراءها، وجميع آل منقذ، إلى حفل ختان ابنه، ووقع الزلزال فسقط القصر على من فيه، فماتوا جميعاً ولم ينجُ من أمراء بني منقذ سوى أسامة الذي كان خارج المدينة وإحدى الأميرات، وأسرع نور الدين واحتل المدينة وأعاد عمارتها، وتعتبر شيزر من المدن المحصنة طبيعياً لوقوعها على المرتفعات شمال مدينة حماه، وظلت أسرة بني منقذ العربية تحكمها دون أن يتعرض لها نور الدين... وقد تتابعت الهزات الأرضية في السنة التالية، ووصلت إلى حمص وحلب ودمشق، ولقي عدد كبير من الناس حتفهم وانكفأ المسلمون، وكذلك الصليبيون على تعمير ما خرب من بلادهم وحصونهم وتوقفت العمليات الحربية.

الأمبراطور البيزنطي يختبر هيبته في بلاد الشام:

ظلت العلاقات بين البيزنطيين والإفرنج متأرجحة بين التأزم والتعاون، غير أنه في هذه الفترة التي هي موضوع حديثنا، حاول الإفرنج بعد اشتداد ساعد نور الدين واهتزاز مركز حكمهم في بلاد الشام، التقرب من الأمبراطورية البيزنطية، ودخل أمراؤهم وأمراء بيزنطية في مصاهرات وتبادل الزيجات، وقرر الأمبراطور البيزنطي القيام بزيارة لبلاد الشام على رأس جيش كبير في عام ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م). وكان يهدف من وراء هذه الزيارة العسكرية إلى مجموعة من الأهداف منها تأديب أمير

---

(١) ابن الأثير: «الكامل» ج ١١ - ص٢١٨.

إنطاكية رينالد شاتيون بسبب قيامه بغارة وحشية على جزيرة قبرص التي تعدّ من أملاك البيزنطيين، أسفرت عن مقتل الآلاف من سكان الجزيرة ونهب جميع أموالهم وأرزاقهم، وشاتيون هذا بدأ حياته مغامراً، وهو ابن أحد كونتات فرنسا الصغار، جاء بلاد الشام ضمن جيش لويس السابع ملك فرنسا يدفعه طمعه في إقطاعية غنية في بلاد المسلمين وظل في فلسطين بعد انهزام الحملة ورحيل لويس، فليس عنده ما يدفعه للعودة إلى بلاده، ودخل في خدمة ملك بيت المقدس بلدوين، ورافقه في زيارة إلى مدينة إنطاكية، وهناك التقى بالأميرة كونستانس أرملة الأمير ريموند صاحب إنطاكية الذي قتل على يد نور الدين في معركة انب عام ١١٤٩ م. فسحرتها جرأته وصعلكته فوقعت في غرامه، وشجعها شاتيون على ذلك لأنها كانت فرصته الذهبية ليصبح بعد أن يتزوجها أميراً على بلد جميل مثل إنطاكية، ولم تمض فترة قصيرة على هذا اللقاء حتى أعلنت قرارها بالزواج من رينالد شاتيون. وفي عام ١١٥٣ م تم عقد القران ونصب رينالد الذي يسميه العرب (أرناط) أميراً على إنطاكية وسط استياء البلاط الإنطاكي، فالزواج كان في نظر الجميع غير متكافىء، وأن الأميرة كونستانس انحدرت وأهانت نفسها وأسرتها بزواجها من ذلك الأفاق، وفي الحال تسلم رينالد السلطة، واتسمت كل تصرفاته بالتهور والاستفزاز والعدوانية، فتخلص من معارضيه بشكل وحشي، كما قام بحملة على قبرص عام ١١٥٦ م متحدياً الأمبراطور البيزنطي، ولم يغادر الجزيرة إلا بعد أن صارت خراباً.

ومن الأسباب الأخرى لزيارة الامبراطور مانويل لبلاد الشام دعم ملك بيت المقدس وبقية الأمراء الصليبيين، والشد من معنوياتهم التي بدأت تنهار إثر تصاعد قوة نور الدين والمسلمين عامة، وحين اقترب الامبراطور وجيشه من بلاد الشام، دب الهلع في قلب رينالد شاتيون، وأرسل إلى الامبراطور مانويل يعرض عليه تسليم إنطاكية، كما أسرع إلى لقاء الامبراطور حافي القدمين حاسر الرأس، معلناً وضع رأسه تحت تصرف مانويل، ورأى الامبراطور البيزنطي أن يبقي عليه كتابع ذليل له.

أما في الجانب الإسلامي فقرّ رأي نور الدين محمود على اتباع الطرق الدبلوماسية مع مانويل، فأرسل هو والخليفة العباسي المقتدر سفارات الى الحدود البيزنطية الإسلامية لاستقبال الامبراطور والترحيب به للإيحاء له بأنهم يعتبرون زيارته إلى

الشام زيارة صداقة وليست زيارة حرب، واستقبل الامبراطور هذه السفارات الإسلامية بالترحاب، ثم توجه مباشرة إلى إنطاكية، وبقي فيها عدة أيام قضاها وسط برنامج مشبع بالاحتفالات الصاخبة، وأظهر فيها أمير إنطاكية كلّ سخاء وكرم، وبعد ذلك خرج مانويل مع جيشه باتجاه الشرق، وفي الطريق استقبل سفارة من لدن نور الدين تعرض عليه توقيع معاهدة صداقة بين الدولتين المتجاورتين، واستقبل الامبراطور هذه السفارة ووافق على المعاهدة واشترط أن يطلق نور الدين أسراه من الصليبيين، وعلى تعاون الجيش النوري والبيزنطي في صد القوات السلجوقية المتمركزة في آسيا الصغرى التي تناصب الطرفين العداء، وجاءت هذه المعاهدة كوقع الصاعقة على رؤوس الإفرنج الذين أملوا أن يتحول جيش بيزنطة الى حلب لسحق قوة نور الدين، ولكن الامبراطور البيزنطي خيب أملهم، ويرجع رنسيمان أسباب حرص الامبراطور على توقيع معاهدة مع نور الدين الى مجموعة من الأسباب أهمها أن بلاد الشام قد تكون بالغة الأهمية للصليبيين، بينما بالنسبة لمانويل لا تعدو أن تكون واحدة من مناطق الحدود، وليس بوسعه أن يتحمل البقاء شهوراً عديدة في الطرف البعيد لخط مواصلات طويل يسهل انتهاكه، كما ليس باستطاعته مهما بلغ جيشه من الضخامة تحمل الخسائر الفادحة على يد المسلمين دون مبرر، يضاف إلى ذلك أن الامبراطور لم يشأ أن يتسبب في تحطيم قوة نور الدين، اذ عرف من تجاربه المريرة السابقة أن الفرنج لا يرحبون به إلا عندما ينتابهم الخوف؛ فمن الحماقة أن يزيل المصدر الأصلي لخوفهم، وقد دلل مانويل بهذه المعاهدة أنه من الرجال ذوي البصيرة النافذة؛ فقد فضل مصلحة بلاده على مصلحة مجموعات من الفرنج كثيراً ما غدروا به وخانوه[1].

وقد أعرب ابن القلانسي عن أسفه الشديد لأن الامبراطور لم ينتقم من رينالد شاتيون بقوله « حكي عن ملك الفرنج (خذله الله) أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقررت، والمهادنة انعقدت، والله يرد بأس كل واحد منهما إلى نحره ويذيقه عاقبة غدره ومكره »[2].

---

(١) ستيفن رنسيان، « تاريخ الحروب الصليبية »، ج ٢ - ص٥٧٣ و٥٧٤.

(٢) ابن القلانسي: « ذيل تاريخ دمشق » - ص٣٥٥.

كما يشير ابن القلانسي إلى أن نور الدين عندما سمع بمقدم الامبراطور البيزنطي، أخذ يتجول في المدن، ويهدىء من روع المسلمين الذين خافوا من تعاون البيزنطيين مع الإفرنج عليهم، وقد اتخذ نور الدين كل احتياطاته لمقابلة جيش بيزنطية، فاستنفر كل القوى الإسلامية في بلاد الشام والموصل والجزيرة، وبعد رحيل مانويل بجيشه نظم نور الدين حفلاً كبيراً حضره أخوه قطب الدين والجند التي جاءت معه والمقدمون والأمراء، ووزع فيه كثيراً من الهدايا على الحاضرين احتفاء بعودة الجيش البيزنطي دون قتال، ويشير أيضاً المؤرخ ابن القلانسي إلى أن مانويل قدم هدايا ثمينة إلى نور الدين قبل رحيله شملت أثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، والجوهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية[1].

وما يورده ابن القلانسي وغيره من المؤرخين أمثال ابن الأثير وأبي شامة يؤكد أن وحدة المسلمين جعلت الامبراطور البيزنطي يجانب الصدام المسلح معهم ويوافق على معاهدة الصداقة مع نور الدين.

وفي عام ٥٥٦ هـ(١١٦٠ م)أي بعد عام تقريباً من رحيل الامبراطور وقع رينالد شاتيون في أسر جنود نور الدين، ولم يتحرك الأمبراطور ولا أي من الأمراء الصليبيين لفديته أو فك أسره، بل ان البعض من هؤلاء اعتبر أسره هدية ثمينة من الله[2].

نور الدين يدخل معركة كبيرة مع الصليبيين ويأسر عدداً من أمرائهم:

في عام ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) سيّر نور الدين قائده أسد الدين شيركوه على رأس جيش صغير إلى مصر لإعادة وزيرها شاور إلى منصبه، كما سترد تفاصيل ذلك فيما بعد، وما ان سمع ملك بيت المقدس الجديد أملريك الذي تولى الحكم بعد موت أخيه بلدوين الثالث عام ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م) بمسير شيركوه حتى سارع بإرسال جيش إلى

---

(١) ابن القلانسي: «ذيل تاريخ دمشق» - ص٣٥٦.

(٢) انظر في كل ما تقدّم إضافة إلى المصادر المذكورة ستيفن رنسيمان. «تاريخ الحروب الصليبية» - ج ٢ - ص٥٦٧ وما بعدها.

مصر لاحتلالها ومنع نور الدين من الاستيلاء عليها، فقرر نور الدين المبادرة بشن هجوم كبير على المعسكرات الصليبية في بلاد الشام حتى يجبر أملريك على ترك مصر، فجهز جيشاً كبيراً وطلب من أخيه قطب الدين أمير الموصل إمداده بجيش، فحضر على رأس قوة كبيرة، كما شارك جند فخر الدين قره أرسلان صاحب حصن بكفا[1] ونجم الدين ألبي صاحب ماردين، وأما الصليبيون فقد تنادوا لجمع صفوفهم والتصدي للجيش الإسلامي الكبير، وتجمع بوهمند أمير إنطاكية وريموند كونت طرابلس وثوروس صاحب أرمينية وقسطنطين كولومان حاكم قليقلية البيزنطي وبذلك أصبح لدى الصليبيين جيش كبير، وقد تحرك الجيش الإسلامي في عام ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) وحاصر مدينة حارم (شمال غربي سوريا) فاتجه الصليبيون لإنقاذ المدينة فقرر نور الدين فك الحصار عنها، وانسحب بجيشه باتجاه بلدة أرتاح وهي حصن تابع لحلب، وكان قصده لقاء الفرنج في مناطق سهلية، وظن الصليبيون أن نور الدين خاف جيشهم فتقهقر، فأسرع بوهمند أمير إنطاكية وحث خطى قواته للحاق بالمسلمين، وتظاهر المسلمون بالفرار وأخذوا يجرون أمامهم جيشه حتى ابتعد عن بقية زملائه، ووصل الى المكان الذي حدده نور الدين للمعركة فلم يجد نفسه ومن معه إلا محاصرين من جميع الجهات، فانهالت سيوف المسلمين على الجند الصليبي وأكثروا القتل فيهم، فلم ينج إلا مَن وقع في الأسر، وتابع المسلمون الكر على بقية الجيش الصليبي فهزموهم شر هزيمة ووقع في الأسر معظم أمرائهم وقادتهم مثل بوهمند أمير إنطاكية وريموند كونت طرابلس وكولومان البيزنطي أما ثوروس فلاذ بالفرار، فربطهم المسلمون مع

---

(١) يروي ابن الأثير بشكل طريف كيف وافق فخر الدين على المشاركة في القتال قائلاً: «بلغني أن فخر الدين قال له ندماؤه وخواصه على أي شيء عزمت، فقال على القعود فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، وهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك، فكلهم وافقه على هذا الرأي، فلما كان الغد أمر فخر الدين بالتجهيز للقتال، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا؟؟ فارتناك أمس على حالة فنرى اليوم ضدها؟ فقال: إن نور الدين سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر، ويستمدّ منهم الدعاء ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة، وقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه. وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون عليّ، فلا بدّ من المسير إليه، ثم تجهز وسار بنفسه ... (انظر ابن الأثير «الكامل» ـ ج ١١ ـ ص٣٠٢، وما أورده ابن الأثير يأتي تأكيداً وبرهاناً على مدى التأثير الشعبي على الحكام في التصدي للصليبيين ودور المواطن العادي في القتال والانتصار لإخوانه، كما يؤكد أيضاً على اتساع شعبية نور الدين وأنه كان يستمدّ قوته من القطاعات الشعبية العربية التي كان على اتصال مباشر معها.

جنودهم بالحبال وقادوهم سيراً على الأقدام بهذه الحالة الى حلب. ويقول ابن الأثير ان القادة المسلمين أشاروا على نور الدين بالمسير إلى انطاكية لتحريرها من الصليبيين بعد أن خلت من حام يحميها ومقاتل يذبّ عنها، فلم يفعل وقال: «أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة فمنيعة وربما سلموها إلى ملك الروم، لأن صاحبها ابن أخيه ومجاورة بيمند (بوهمند) أحب إلي من مجاورة صاحب القسطنطينية»[1].

وواضح أن نور الدين واتته الفرصة لاسترداد إنطاكية ولكنه خاف من تدخل الامبراطور البيزنطي الذي كان يعتبر نفسه حامي هذه المدينة المقدسة، وترك أمرها لغيره، غير أن نور الدين أرسل قواته بعد هزيمة الفرنج إلى المناطق والمدن المحيطة بانطاكية وطرابلس، وتمكن من تحريرها وحصر الصليبيين في منطقة ضيقة من الشريط الساحلي، ومن ناحية أخرى نجح نور الدين في بث الذعر في قلب أملريك الذي عاد فوراً من مصر للدفاع عن مملكته.

مقاتلون من الشمال الإفريقي العربي والأندلسي في جيش نور الدين

وصلت أنباء انتصارات نور الدين المتلاحقة جميع الديار الإسلامية؛ فألهبت في نفوسهم الحماس ودفعت الكثير منهم للتوجه إلى بلاد الشام والانخراط في جيش القائد المظفر، ومن هؤلاء عرب المغرب العربي بدءاً من ليبيا وحتى الأندلس، وقد أسهم هؤلاء المقاتلون، الذين كان يطلق عليهم اسم المغاربة، إسهاماً فعالاً في معارك الجهاد ضد الصليبيين تحت قيادة نور الدين ومن بعده صلاح الدين، وأبلوا بلاءً كبيراً في دحر الصليبيين حتى ان هؤلاء أخذوا يضطهدون بشكل وحشيّ كلّ من وقع من المغاربة في أسرهم، كما استعملوا كل وسيلة لعرقلة وصولهم من الغرب إلى بلاد الشام، بينما كانت منزلتهم عظيمة عند إخوانهم عرب الشام وعند نور الدين، وكان جهادهم واستبسالهم محلّ تقدير كبير من قِبَل الجميع.

ويورد ابن جبير في كتاب رحلته صوراً من أساليب الانتقام التي كان يمارسها

(١) ابن الأثير: «الكامل» - ج ١١ - ص٣٠٣ و٣٠٤.

الصليبيون على عرب المغرب منها فرض رسوم باهظة على كل عربي مغربي، كبيراً كان أو صغيراً، تقذف به السفن الى أحد الموانىء الشامية المحتلة من قبل الإفرنج، أو حين يضطر لدخول الأراضي المحتلة لركوب سفينة تعيده إلى بلاده، كما وقع مع ابن جبير نفسه، ويقول هذا الرحالة العربي:

« ... وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم، أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أجنادهم غزت مع نور الدين، رحمه الله، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه (ديناراً وقيراطاً من الدنانير الصورية) في اختلافه على بلادهم، وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم... ».

ويختم ابن جبير حديثه مؤكداً اعتزاز المغاربة وسعادتهم لهذه المعاملة القاسية وتحملهم بصدر رحب للضريبة الباهظة، لأنها كانت بسبب مؤازرتهم ودعمهم لإخوانهم عرب الشام بقوله « ... فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو، يسهله عليهم ويخفف عنتهم عنهم »[1].

كما يورد الرحالة العربي نفسه مجموعة أخرى من اعتزاز نور الدين وعرب الشام بإخوانهم المغاربة فيقول في مكان آخر من كتابه:

« ... ومن الفجائع التي يعانيها من حلّ بلادهم (الصليبيين) أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسوقهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً... ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلّص لهم سوى ذلك بعد الله عزّ وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم، فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذا السبيل، وقد

---

(١) رحلة ابن جبير، ص٢٧٤.

كان نور الدين، رحمه الله، نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما استبلّ من مرضه أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة، وكانوا من حماه من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال: هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم، فانظر إلى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي »[1].

ويقول ابن جبير أيضاً « ... وقيض الله لهم (للمغاربة) بدمشق من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء، أحدهم يعرف بنصر بن قوام، والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي، وتجارتها كلّها بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وقد نصبهما الله عزّ وجلّ لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذا السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلاّ على أيديهما، فهما طول الدهر بهذه السبيل ينفقان أموالهما ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله، الكافرين والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين »[2].

وما أورده ابن جبير يؤكد بشكل قاطع ان العرب المسلمين، في جميع الديار العربية، اعتبروا أن قتال ومنازلة الصليبيين وطردهم من فلسطين هو من واجبهم جميعاً وليس فقط واجب سكانها الشوام أو قبائل الغز السلاجقة كما أوحت بذلك بعض المصادر التاريخية العربية القديمة، وقد كانوا يعتبرون قتال الصليبيين جهاداً في سبيل الله وانتصاراً للإسلام. كما أن المبلغ الكبير الذي رصده نور الدين أو المبالغ التي اتخذت شكل الاستمرار، والتي كان يجود بها سكان البلاد العرب أو الأمراء والزعماء الترك، تشير إلى أن اشتراك العرب المغاربة في المعارك التي خاضها المسلمون ضدّ الصليبيين، كان بأعداد كبيرة كما تشير إلى الاستمرارية والتواصل تحت إمرة القادة المسلمين الذين تسلموا راية الجهاد واحداً إثر الآخر حتى تم دحر الصليبيين نهائياً.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص٢٨١.

سقوط الدولة الفاطمية وتوحيد مصر مع بلاد الشام:

دبّ الضعف في الدولة الفاطميّة التي أسسها عبيدالله المهدي الشيعي في المهدية قرب القيروان عام ٩٠٩ م وسيطر على كل شمال الجزائر وتونس وليبيا.

وفي عهد المعز لدين الله، انتقل مركز الخلافة الفاطمية إلى مصر عام ٩٦٩، وبنى القائد جوهر الصقلي القاهرة التي اتخذها عاصمة لدولته، وقد بدأت هذه الدولة في الانحدار والضعف إثر قيام خلفاء غير أكفاء وانفصال الأجزاء الغربية عنها، وفي أواخر أيامها خرج الحكم من أيدي الخلفاء وتركز في أيدي الوزراء والقواد الذين كثر التناحر بينهم.

وفي عام ٥٥٠ هـ ١١٥٢ م تولى الوزارة المصرية بالقوة حاكم الصعيد (شاور) الذي دعم العاصمة بجيش من أتباعه، من الصعيد المصري وحاصر الوزير السابق العادل ابن الصالح رزيك فقتله وتقلد مقاليد الأمور بدلاً منه ولقب نفسه أمير الجيوش، ولكن الأمر لم يطل بشاور إذ ناصبه العداء أحد الحجاب وهو من أصل عربي اسمه ضرغام، وتمكن من التغلب على شاور الذي التجأ إلى دمشق للاستنجاد بنور الدين بعد ثمانية أشهر فقط من توليه الوزارة.

وفي عهد ضرغام هذا هاجم أملريك الصليبي مصر، ولكن ضرغام نجح في صدّه وإجباره على التراجع إلى بيت المقدس، وكان هجوم أملريك على مصر عاملاً مهماً في توجيه أنظار نور الدين إليها.

وحين جاء شاور مستنجداً تردد نور الدين أول الأمر، ولكنه وجد أن توحيد بلاده مع مصر، سيقوي الجبهة الإسلامية فأوكل لقائد جيشه أسد الدين شيركوه قيادة جزء من الجيش والتوجه به إلى مصر صحبة شاور لإعادته إلى الوزارة مقابل أن يتنازل شاور عن البلاد الواقعة على الحدود ويعترف بسيادة نور الدين وأن يؤدي مبلغاً من المال مقداره ثلث خراج مصر سنوياً إلى خزينة الدولة النورية ويبقى شيركوه في مصر لتنفيذ هذا الاتفاق.

وتحرك شيركوه واصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي وكان عمره لا يتجاوز السابعة والعشرين، وقيل إن صلاح الدين الأيوبي التحق بجيش عمه وهو

كاره. وقد أصرّ نور الدين على مرافقته للجيش، ويؤكد أبو شامة في «الروضتين» ذلك بقوله: «وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان (يعني صلاح الدين) كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة وما خرجت مع عمي باختياري، قال وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى وعسى أن تكرهوا شيئاً فهو خير لكم..». وقال: ابن الأثير: «أحبّ... نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين مسيره وفيه سعادته وملكه»[1].

وحين سمع ضرغام بسير جيش النوري إليه راسل أملريك. وطلب منه المساعدة، لكن شيركوه كان قد وصل إلى الأراضي المصرية وتمكن من هزيمة جيش ضرغام في مدينة بلبيس وتم قتله عند ضريح السيدة نفيسة، واستعاد شاور منصبه، غير أن هذا الأخير لم يلبث أن نقض العهد وطلب من أسد الدين شيركوه أن يغادر مع الجيش النوري مصر فوراً، ورفض شيركوه ذلك وتحصن في بلدة بلبيس، واستنجد شاور بالملك أملريك طالباً منه التدخل مقابل أن يدفع ألف دينار للجيش الصليبي عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى النيل وعددها سبعة وعشرون مرحلة. كما تعهد الملك الصليبي بأمور أخرى، وكان أملريك ينتظر هذه الدعوة لأن الصليبيين، كما يقول ابن الأثير: «لما أرسل شاور يطلب المساعدة منهم على إخراج أسد الدين، جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته، وطمعوا في ملك الديار».

وبادر أملريك بالمسير أوائل أغسطس إلى مصر فوصل فاقوس عند نهر النيل، فلحق به شاور ثم تحركا معاً لحصار الجيش النوري في بلبيس، وظل شيركوه صامداً للحصار مدة ثلاثة أشهر، وفي هذا الوقت جاءت أملريك أنباء هزيمة زملائه في حارم وأرتاح فتفاوض مع شيركوه على أن ينسحبا جميعاً من مصر، ووافق شيركوه بعد أن اشتد عليه الحصار، وسار الجيشان النوري والصليبي عائدين في طريقين متوازيين عبر سيناء.

---

(١) أبو شامة: «الروضتين»، ص١٥٥. ابن الأثير، ج١١ - ص١٣٠.

شيركوه يعود إلى مصر:

اشتهر أسد الدين شيركوه بين المسلمين والصليبيين على حدّ سواء بالشجاعة وقوة البأس رغم أنه كان قصير القامة فاقداً لإحدى عينيه، فإن شخصيته بين جنوده كانت مؤثّرة لدرجة كبيرة، كما كان قائداً فذاً وسياسياً ذكياً. ومنذ أن رجع من مصر إلى دمشق ظلّ دائم الحديث عن أهمية مصر استراتيجياً ومادياً، وكان يلحّ على نور الدين أن يسمح له بالعودة إلى ذلك القطر، وفي عام ٥٦٢ هـ - ١١٦٧ م - وافق نور الدين على أن يتجهز شيركوه للسفر الى مصر على رأس جيش كبير. وتحرك جيش شيركوه باتجاه مصر. ولما علم شاور بزحف الجيش النوري بادر بالاتصال بأملريك طالباً النجدة، وفي الحال كانت القوات الصليبية تخترق سيناء للحاق بجيش شيركوه الذي وصل برزخ السويس بعد شهر من تركه دمشق، وجاءته الأنباء أن الصليبيين حشدوا جيشاً ضخماً لمنازلته في مصر؛ فاتجه بجيشه إلى الجنوب وعسكر في الجيزة، بينما خرج شاور للقاء الجند الصليبي، حيث عقد الاثنان معاهدة تقضي بأن يدفع شاور للفرنج أربعمائة ألف دينار بيزنطي على أن يتم تسليم نصف المبلغ حالاً، والنصف الآخر فيما بعد، على أن يبقى الجيش الصليبي في مصر حتى خروج الجيش النوري. وطلب ملك الصليبيين توقيع المعاهدة من الخليفة الفاطمي[1].

تم تجهيز الجيش الصليبي والمصري وتحرك الجميع نحو مكان تمركز الجيش النوري، ويقول ابن الأثير ان بعض أمراء شيركوه نصحوه بالإنسحاب والعودة إلى الشام،

---

(١) ينقل رنسيمان عن المصادر الصليبية وصف توقيع المعاهدة من الخليفة الفاطمي العاضد فيقول: لقي رسولا أملريك استقبالاً حافلاً إذ اجتازا في طريقهما صفوف الأعمدة والنافورات والحدائق الغنّاء التي بها حظائر الحيوانات والطيور الجارحة؛ فصارا يسيران من قاعة إلى قاعة والتي ازدانت بالستائر المصنوعة من الحرير وخيوط الذهب، وترصعت بالجواهر حتى انفجرت أمامهما ستارة كبيرة مزركشة بالذهب، فكشفت عن الخليفة الصبي، وقد تلثم واتخذ مجلسه على سرير الملك المصنوع من الذهب فتم أخذ الأيمان بالوفاء بالمعاهدة، ثم أراد رسول أملريك أن يختم العقد على نحو ما هو معروف في الغرب بأن يصافح يد الخليفة، فارتاع رجال البلاط الفاطمي غير أن الخليفة ابتسم ساخراً ثم حزم الأمر ونزع الخليفة القفاز وصافح الرسول الصليبي، وانسحب الرسولان، وقد اشتدّ تأثرهما بما تكدس من ثروة في الامبراطورية الفاطمية وهو ما كان يقصد إليه رجال البلاط الفاطمي، ويشير المؤرخ أرنولد بأنه لم يفق بلاط الفاطميين في الثروة سوى بلاط الامبراطور البيزنطي.

لكنه ومعه ابن أخيه صلاح الدين وأحد قواده أصروا على القتال ولو كان فيه فناؤهم[1].

وتلاقى الجمعان في ١٨ مارس ١١٦٧م، فانهزم الجيش الصليبي والجيش المصري أمام قوات شيركوه هزيمة مهينة، وأترك لأبي شامة الحديث عن هذه المعركة: «ثم إنه (أي أسد الدين شيركوه) جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب، وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب، فهم يجمعون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقاتلت الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه فقاتلهم مَن فيه قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على مَن تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم ووضعوا السيف فيهم، فأثخن وأكثر القتل والأسر وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج في أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب من المسلمين رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم ديار؛ فانهزموا أيضاً. وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفيْ فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل»[2].

وعاد شاور وأملريك بما تبقى من جيشها إلى القاهرة يجرّان أذيال الهزيمة؛ وقد عزا الصليبيون... كما يقول رنسيمان هزيمتهم إلى أن القديس برنارد الذي جاء الملك الصليبي في الحلم، وطلب منه أن يبدأ الهجوم في ١٩ مارس، ولكن أملريك عصا أوامر القديس برنارد وبدأ الهجوم يوم ١٨ مارس[3].

حصار الجيش النوري في الإسكندرية:

بعد هزيمة الفرنج اتجه شيركوه إلى الاسكندرية، فافتتحها مع جميع القرى والدساكر التي في طريقه... وسلم المدينة الكبيرة لابن أخيه صلاح الدين الأيوبي،

(١) ابن الأثير: «الكامل» - ج ١١٠ - ص٣٢٥.
(٢) أبو شامة: «الروضتين» - ج ١٠ - ص١٤٣.
(٣) رنسيمان: «تاريخ الحروب الصليبية» - ج ٢٠ - ص٦٠٥.
باركر: «الحروب الصليبية» - ص٨٧.

وتوجه مع بعض عساكره إلى الصعيد. أما شاور وأملريك فقد أعادا تنظيم قواتها واتجها بها نحو الإسكندرية لينفردا بصلاح الدين، وحاصرا المدينة لكنهما فشلا في احتلالها بعد أن تحلق أهل المدينة حول القائد الشاب، وطال الحصار وقلّت الأرزاق، والمواد التموينية ولم يستطع شيركوه حسم الموقف لصالح قواته؛ فاضطر إلى قبول معاهدة الصلح التي عرضها عليه الملك الصليبي وشاور، وقضت المعاهدة بأن يغادر البلاد مع جيشه إلى الشام مقابل أن يدفعا له خمسين ألف دينار بخلاف ما أخذه من البلاد، واشترط هو أن لا يقيم الفرنج في مصر وأن ينسحبوا بعد انسحابه وأن يتعهد شاور بألا يعاقب الرعايا المصريين في الإسكندرية الذين وقفوا مع صلاح الدين. فقبلت الشروط وخرج صلاح الدين من الإسكندرية في ٤ من أغسطس ١١٦٧م في موكب عسكري حافل وانضم إلى عمه واتجها نحو بلاد الشام.

ويذكر رنسيان أن شاور حاول الاقتصاص من أهالي الإسكندرية. لكن صلاح الدين عندما بلغه ذلك وهو في الطريق، راسل الملك الصليبي الذي تدخل وأجبر شاور على احترام المعاهدة(١).

عودة شيركوه إلى مصر ومقتل شاور:

لا شكّ أن غنى مصر الوافر كان حافز الصليبيين، لاحتلالها وضمها إلى سيطرتهم. وحتى يتم ذلك بادر أملريك إلى إرسال رسول وهو المؤرخ الصليبي وليم الصوري إلى مانويل امبراطور بيزنطة يعرض عليه اقتراحاً بالتعاون على احتلال مصر واقتسامها بين الصليبيين والبيزنطيين. ووافق الامبراطور على هذا المشروع على أن يتم تحرك البيزنطيين والصليبيين معاً. لكن الصليبيين قبل تنسيق تحركهم وخططهم مع البيزنطيين. قرروا التوجه إلى مصر فوراً. وفي نوفمبر ١١٦٨م تحرك الملك الصليبي أملريك على رأس جيش صليبي فيه عدد من الجماعات الإفرنجية التي وصلت إلى فلسطين حديثاً من أوربا، والتي كانت متعطشة للحروب وإسالة دماء المسلمين ويبدو أن أملريك حاول التريث خوفاً من نور الدين ومقاومة الشعب المصري

---

(١) يؤكد ابن الأثير أن الإفرنج وشاور طلبوا الصلح، بينما يقول رنسيان أن طلب الصلح جاء من قبل شيركوه، ويبدو أن الطرفين كانا يحريان وراء الصلح.

له ووفق ما أورده ابن الأثير فإن هذا الملك قال لأمرائه: الرأي عندي أننا لا نقصدها فإنها طعمة لنا وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين[1].

وصل الجيش الصليبي إلى بلبيس فحاصرها، واقترف مذبحة مروّعة بين سكانها العزل، وكان أبطال ـ هذه المذبحة أولئك الفرنج القادمون حديثاً من بلادهم، واضطرّ شاور تحت ضغط ابنه الكامل أن يطلب من الخليفة الفاطمي العاضد أن يراسل نور الدين، ويطلب منه النجدة، وكان نور الدين بحلب يراقب ما يجري، وحين وصلت سفارة العاضد استدعى شيركوه، وتلاقت وجهات نظرهما على ضرورة المسير إلى مصر بأسرع وقت، فالصليبيون قرروا هذه المرة الاستيلاء على مصر والبقاء على أرضها. وفي أواخر عام ١١٦٨ م تحرك الجيش النوري الذي بلغ تعداده كما يقول ابن الأثير ثمانية آلاف مقاتل، وقد رفض صلاح الدين بادىء الأمر الاشتراك في هذه الحملة مرة أخرى. فما زالت ذكرى الأيام الصعبة التي قضاها محاصراً في الإسكندرية ماثلة أمام عينيه، لكن نور الدين أصرّ على أن يسافر صلاح الدين مع عمه، وحين وصل الجيش النوري مشارف مصر كان الصليبيون قد قرروا العودة إلى بلادهم؛ فشعب مصر خاصة فلاحيه نجحوا في قلب أرضهم جحيماً تحت أقدام الغزاة الصليبيين، واقتنع أملريك بأن لا أمل له في البقاء على أرض مصر. ففاوض شاور على أن يزيد الإتاوة السنوية التي يدفعها له، وفي الوقت الذي كان الجيش الصليبي يترك مصر، كان شيركوه يصل عاصمة مصر على رأس جيشه، وقد اتجه إلى قصر الخلافة مباشرة واستقبل استقبالاً كبيراً وتظاهر شاور بالسرور حين التقائه بشيركوه مؤكداً له أنه سيبذل جهده الخالص لضمان تعاونهما على قيادة البلاد، وكاد شيركوه أن يصدق شاور لولا ما أشيع بأن هذا دبر مؤامرة لاغتياله وجميع الأمراء النوريين فقرر ـ صلاح الدين التخلص من شاور بأسرع وقت ممكن، فداهمه مع بعض جنوده، فقتلوه في ١٨ يناير ١١٦٩ م، وقد لقي مصرع شاور ترحيباً كبيراً من المصريين ومن الخليفة الفاطمي الذي نصّب أسد الدين شيركوه وزيراً مطلق الصلاحية. ولم يطل العمر بشيركوه إلا شهرين وخمسة أيام قضاها في تثبيت حكمه[2].

---

(١) انظر ابن الأثير: «الكامل» ج ١١ ـ ص٣٦٢. ورنسيان: ج ٢ ص٦٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص٦٠٧.

ويقول ابن شداد أن سبب موته شراهته للأكل خاصة اللحوم الغليظة[1].

وزارة صلاح الدين:

وفق رواية ابن الأثير، أنه بعد موت شيركوه رغب كلّ أمير من الأمراء النوريين أن تكون الوزارة المصرية لنفسه، إلا أن الخليفة العاضد رفض طلب الجميع، وأرسل يستدعي صلاح الدين يوسف الأيوبي لتنصيبه وزيراً خلفاً لعمه؛ فصلاح الدين كما كان يعتقد الخليفة ما زال صغيراً وليس له أنصار في الجيش النوري يتقوى بهم حتى يتمكن الخليفة بالتالي من ممارسة صلاحياته وسلطته التي سطا عليها الوزراء السابقون. ويبدو أن صلاح الدين فوجيء حين أبلغه العاضد قراره بتعيينه وزيراً لدولة الفاطميين؛ فتردد في القبول إذ شعر أنه غير كفء لهذا المنصب الكبير، لكن العاضد شدّد على صلاح الدين؛ فوافق كارهاً متهيباً، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله: والله لأعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل.

لكن المؤرخين الآخرين يرون أسباباً أخرى لاختيار الخليفة الفاطمي صلاح الدين للوزارة، ويرى بعضهم أن صلاح الدين الذي كان عمره ٣٢ سنة ورث عن عمه (٥٠٠) فارس من المماليك الأقوياء الذين كانوا من أخلص الجنود لعمه أسد الدين وكانوا يلقبون بالجنود الأسدية نسبة لصاحبهم، وقد نقل هؤلاء الجنود إخلاصهم إلى صلاح الدين الذي بهم فرض نفسه على الخليفة الفاطمي، ومهما تكن الأسباب فإن وزارة صلاح الدين قوبلت بمعارضة شديدة من الأمراء والقواد والأتراك والعرب المصريين، لكن صلاح الدين بذكاء ومهارة تمكن من تثبيت نفسه على كرسيّ الوزارة، وإزاحة جميع معارضيه، وفي فترة قصيرة غدا زعيماً شعبياً بلا منازع[2].

أعمال صلاح الدين في مصر:

في الوقت الذي بدأ فيه صلاح الدين توطيد مركزه في مصر فإن الأحداث التي شهدتها مصر إثر توليه قيادتها عملت على تثبيت مركزه واقتناع الكبير والصغير بأنهم قبالة

---

(١) انظر أبو شامة: «الروضتين» - ج١ - ص١٥٩ و١٦٠. ابن الأثير، ج ١١ - ص٣٤١. رنسيان: «الحروب الصليبية» ج ٢ - ص٦١٩.

(٢) ابن الأثير: «الكامل.» - ج ١١ ص٣٤٣. أبو شامة: «الروضتين» - ج ١ - ص١٦١.

قائد عسكري فذ وسياسيّ محنك، فالحدث الأول كان الهزيمة التي ألحقها الشعب المصري بالجيش البيزنطي والفرنجي الذي زحف على مصر لاحتلالها وإقصاء صلاح الدين، والحدث الثاني إسقاط الخلافة الفاطمية وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية السنية.

فبالنسبة إلى الحدث الأول تم الاتفاق أخيراً بين البيزنطيين والفرنج على تجهيز حملة على مصر التي أصبحت تشكل خطراً على الطرفين بعد أن وحدت قواتها مع بلاد الشام إثر مقتل شاور وتولى رجال نور الدين أمر البلاد المصرية، فسارت مجموعة من السفن البيزنطية محملة بالجنود إلى موانىء فلسطين لتلتحم مع القوات الصليبية، ثم اتجه الصليبيون نحو مصر براً والبيزنطيون بحراً في ١٦ أكتوبر ١١٦٩م وأرسل صلاح الدين لما بلغه نبأ هذا التحرك العسكري المشترك يطلب النجدة من نور الدين، وفي دمياط حيث تجمع الحشد الصليبي البيزنطي، فوجىء الجميع بالمقاومة الباسلة التي أبداها شعب هذه المدينة ضد الغزاة، وبقي صلاح الدين مع معظم جيشه في العاصمة المصرية استعداداً للمعركة الفاصلة التي كان يتوقعها بعد سقوط دمياط بيد البيزنطيين والفرنج، واكتفى بإرسال بعض قادته وتموين المدافعين بالعتاد والذخائر، لكن هذه المدينة العربية ظلت صامدة أمام الحصار المائي والبري الذي فرض عليها، وأبدى شعبها ضروباً خالدة من البطولة والتضحية، واستطاع عن طريق حرب العصابات إرهاق الجيش المشترك المهاجم، كما استغلّ قنوات النيل، فأغرق الأراضي الزراعية، فغرق العديد من الصليبيين في المياه والوحل، كما تمكن شعب المدينة من تمرير سفينة حراقة امتلأت نفطاً بين سفن البيزنطيين وأشعلوا فيها النار أنزلت خسائر فادحة في الأسطول البيزنطي، ومات العديد من بحارته حرقاً وغرقاً، وأمام استبسال المدينة وارتفاع خسائر المهاجمين قرر المتحالفون رفع الحصار والعودة من حيث أتوا مدحورين، وأثناء انسحاب السفن البيزنطية قابلتها الزوابع والعواصف الشديدة، فأغرقت الكثير منها وباتت شواطىء مصر وفلسطين لأيام متوالية تتلقى جثث بحارة الأسطول البيزنطي[1].

---

(١) تعتبر موقعة دمياط واحدة من الملاحم الكبيرة التي خاضتها الجماهير العربية، وليس العسكر المجلوبين، ضد غزاتها، كما رأينا ذلك في موقعة دمشق ولا شكّ أن استبسال شعب دمياط جاء كردّ على خيانة حكام مصر السابقين كشاور وضرغام وغيرهما، وتخاذلهم المهين وجبنهم أمام الفرنج ثم تواطئهم معهم ضدّ إخوانهم في =

زوال الخلافة الفاطمية:

العمل المهم الثاني الذي زاد من شعبية صلاح الدين وهو ما زال وزيراً قبل أن يصير سلطاناً إسدال الستار نهائياً على الخلافة الفاطمية، فقد كان نور الدين يلحّ على صلاح الدين بوجوب إنهاء الخلافة الفاطمية وربط مصر بالخلافة العباسية، ولم يكن بمقدور صلاح الدين الإقدام على هذا العمل الخطير قبل اتخاذ مجموعة من الإجراءات التمهيدية، وبدأ طريقه إلى ذلك بكسب محبة الشعب المصري واستمالتهم إليه ومعظمهم من السنّة، ففتح أبواب قصره لهم للاستماع إلى شكاواهم والعمل على رفع الظلم عنهم، كما سعى إلى تحسين حياتهم المعيشية كتخفيض أسعار المواد التموينية وتوفيرها في الأسواق، وكان سخياً في منح الهدايا والعطاءات لزعمائهم وفقهائهم، ثم لجأ إلى تقليص النفوذ الفاطمي الديني في البلاد شيئاً فشيئاً مثل عزله للقضاة الشيعة واستنابته للفصل في قضايا الناس قضاة من السنّة الشافعية، فعين العالم الديني الشافعي صدر الدين بن درباس قاضياً للقضاة ووزيراً للديار المصرية، وبنى داراً للعدل ومدرسة للشافعية، كما ألغى الأذان على الطريقة الشيعية، وأطلق رجال الدين للتشكيك في نسب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب، ووضع مع كل أمير فاطمي عسكراً من الجنود السنيين، وأصبح أولئك الأمراء في أسر جنودهم، وحين قرر صلاح الدين ضرب الخلافة الفاطمية أمر الجنود فذبحوا أمراءهم. ولم يبق أمام صلاح الدين إلا أمر واحد وهو قطع الخطبة للفاطميين في المساجد المصرية والدعاء للخليفة العباسي. وقد تخوف أئمة الجوامع من الإقدام على ذلك فأحجموا، ويقول ابن الأثير: «إن رجل دين أعجمي من الموصل عرف باسم الأمير العالم لما رأى الناس على ما هم عليه من الإحجام، وأن أحداً لا يتجاسر أن يخطب للعباسيين، قال أنا أبتدىء بالخطبة لهم، فلما كان أول جمعة شهر محرم صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء بأمر الله العباسي، فلم ينكر أحد ذلك، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر أن يقطعوا الخطبة للعاضد ويخطبوا للمستضيء»[1].

= الدين والدم. أنظر أبو شامة: «الروضتين» - ج ١ - ص١٨٠ وما بعدها. ابن الأثير: «الكامل» - ج ١١ - ص٣٥٧ و٣٥٢. رنسمان: «تاريخ الحروب الصليبية» - ج ٢ - ص٦٢٤ وما بعدها.

(١) ابن الأثير: «الكامل» - ج ١١ - ص٣٦٩.

وصادف في هذه الفترة مرض الخليفة الفاطمي العاضد، فلم يسمع بالأمر، (وأمر صلاح الدين الجميع أن يخفوا عليه نبأ قطع الخطبة له فان كان عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي إفجاعه بهذا الأمر قبل موته»[1]، وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية في مصر بكل هدوء دون أية مقاومة تذكر، وعلى حد تعبير ابن الأثير لم ينتطح فيها عنزان بعد أن استمرت الأسرة العبيدية تحكم جزءاً كبيراً من ديار العرب لمدة تفوق عن القرنين ونصف، وقد حملت البشرى إلى بغداد التي زينت بأبهى الحلل، وعمت الاحتفالات كل أنحائها، وظهر من الفرح والجذل ما لا حدّ له وسيرت الخلع والهدايا إلى نور الدين وصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية[2].

وفاة نور الدين محمود:

يورد بعض المؤرخين العرب أمثال ابن الأثير وابن أبي طيء الحلبي أن جفوة حصلت بين نور الدين وصلاح الدين الأيوبي حين شعر نور الدين أن عامله في مصر يسعى للانفصال عن الدولة النورية وتأسيس دولة خاصة به، والواقع أن طموح صلاح الدين لم يكن خافياً، ولكنه ظلّ يعتبر نفسه جندياً من جنود نور الدين، كما كان يخافه ويهابه. وقد استدعاه نور الدين عدة مرات لزيارة دمشق لكنه خوفاً من مقابلته كان يختلق الأعذار ليبرر عدم المسير إليه[3].

ويبدو أن نور الدين لم يحاول التادي في استفزازه لئلا يدفعه لإعلان الانفصال عنه، ورفض أن يبقي ولو بخيط واهن يربطه بمصر، ودلل نور الدين على سياسته هذه حين سمح لوالد صلاح الدين وبقية أسرته بالسفر إلى مصر. كما يبدو أن عدداً من الأمراء الحاسدين لصلاح الدين على المركز المهم الذي وصل إليه في مصر والعالم الإسلامي أسهموا في إشعال فتيل الفتنة بينهما، وقيل إن صلاح الدين أرسل أخاه لإيجاد بلاد جديدة ينقل حكمه إليها إذا ما قرر نور الدين المسير إلى مصر وعزله من منصبه، لكن الحظ جاء في جانب صلاح الدين إذ وقع نور الدين في أوائل مايو عام ١١٧٤م بالذبحة الصدرية ولم تمهله سوى أحد عشر يوماً، فمات بها في ١١ شوال

(١) أبو شامة: «الروضتين» - ج ١ - ص١٧١.
(٢) ابن الأثير: «الكامل» - ج ١١ - ص٣٧١ و٣٧٢.
(٣) أبو شامة: «الروضتين» - ج ١ - ص١٧٢.

٥٦٩ هـ. و١٥ مايو ١١٧٤م بدمشق، ودفن في المدرسة التي بناها بسوق الخواصين بدمشق. وبموته أسدل الستار عن شخصية مهمة تميّزت بالشجاعة وحسن التدبير والتقوى. وقد لعب نور الدين دوراً بارزاً ومهماً في تاريخ العرب المسلمين في تصديه للغزو الصليبي. ويقول ابن الأثير: «قد طالعت سير الملوك المتقدمين، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرياً منه للعدل»[١] وبدأت بعد وفاة نور الدين صفحة جديدة مشرقة من النضال العربي الإسلامي سطرها قائد فذّ آخر اتسم بالإخلاص والشجاعة والعبقرية هو صلاح الدين يوسف الأيوبي.

---

(١) ابن الأثير: «الكامل» - ج ١١ - ص٤٠٣.

مصادر الكتاب

الكتب القديمة:

● ابن الأثير ... عز الدين علي بن أبي الكرم

١ ـ الكامل في التاريخ.
بيروت ـ ١٩٦٦.

٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية
تحقيق طليمات ـ القاهرة ـ ١٩٦٣.

● ابن بطوطة ... أحمد

ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. القاهرة ـ ١٩٥٨.

● ابن الجوزي ... أبو الفرج عبدالرحمن

ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.
حيدر آباد ـ ١٣٥٨ هـ.

● ابن جبير ... محمد بن أحمد

ـ رحلة ابن جبير
بيروت ـ ١٩٥٩.

- ابن حوقل ... أبو القاسم محمد

صورة الأرض.

مكتبة الحياة - بيروت

- ابن حزم... أبو محمد علي

الفصل والملل والأهواء والنحل

مكتبة الخياط - بيروت.

- ابن خلدون ... عبد الرحمن

١ - المقدمة

المكتبة التجارية - القاهرة.

٢ - العبر وديوان المبتدأ والخبر

بيروت - ١٩٥٨.

- ابن خلكان ... أحمد شمس الدين أبو العباس

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

القاهرة - ١٩٤٩.

- ابن خرداذبه ... أبو القاسم عبدالله

المسالك والممالك

ليدن - ١٨٨٩.

- ابن شداد ... بهاء الدين

- سيرة صلاح الدين

تحقيق جمال شيال. القاهرة - ١٩٣٤.

- الأربلي ... علي بن عيسى

- كشف الغمة، خلاصة الذهب المسبوك

القدس - ١٨٨٥.

- ابن العبدي ... أبو الفرج غريغوريوس

- تاريخ مختصر الدول

بيروت - ١٩٥٨.

● ابن العديم ... كمال الدين عمر

زبدة حلب في تاريخ حلب
تحقيق سامي الدهان - دمشق ١٩٥٤.

● ابن العماد ... عبدالحي الحنبلي

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب.
الآفاق الجديدة - بيروت

● ابن القلانسي ... حمزة أسد التميمي

ذيل تاريخ دمشق.
بيروت - ١٩٠٨.

● ابن قتيبة ... أبو محمد عبدالله

الإمامة والسياسة.
القاهرة - ١٣٥٣ هـ.

● ابن مسكويه ... أحمد بن محمد

- تجارب الأمم
القاهرة - ١٣٣٣ هـ.

● أبو الفداء ... عماد الدين اسماعيل

- المختصر في أخبار البشر.
المطبعة الحسينية القاهرة

● أبو شامة ... شهاب الدين أبو محمد
عبدالرحمن المقدسي

١ - الروضتين في أخبار الدولتين
النورية والأيوبية.
٢ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع
بيروت - ١٩٧٤.

• الشهرستاني ... أبو الفتح عبدالكريم

الملل والنحل
مكتبة الخياط ـ بيروت

• الطبري ... أبو جعفر محمد بن جرير

تاريخ الرسل والملوك.
مكتبة الخياط ـ بيروت

• القلقشندي ... أبو العباس أحمد

صبح الأعشى في صناعة الانشا
دار الكتب القاهرة ـ ١٩١٧.

• المقدسي ... أبو عبدالله محمد

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
ـ بيروت.

* * *

كتب حديثة

• أمين ... أحمد

ضحى الإسلام
مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ ١٩٦٤.

• بدوي ... أحمد

ـ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية
في مصر والشام.

• التميمي ... رفيق

تاريخ الحروب الصليبية. القدس ـ ١٩٤٥.

• الجملي ... رشيد

ـ دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي.
بيروت ـ ١٩٧٠.

• الخضري ... محمد

تاريخ الأمم الإسلامية.
القاهرة - ١٩٥٩.

• زكار ... سهيل

١ - تاريخ العرب والإسلام
بيروت - ١٩٧٩.
٢. - مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية.
دار الفكر - ١٩٧٣.

• رضا ... أحمد

الخيبة الأدبية للسياسة الغربية في الشرق
نشر بالفرنسية وصدر بالعربية بتونس.

• زيدان ... جرجي

تاريخ التمدن الإسلامي.
القاهرة - ١٩٠٤.

• سرور ... محمد جمال الدين

مصر في عصر الدول الفاطمية.
القاهرة - ١٩٦٠.

• طبانة ... بدوي
- الصاحب بن عباد
القاهرة

• طليات ... عبد القادر أحمد

مظفر الدين كوكبوري - أمير اربل
القاهرة - ١٩٦٤.

• العشي ... أبو الفرج

آثارنا في الإقليم السوري.
دمشق - ١٩٦٠.

• عمر ... فاروق

الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية.
بغداد - ١٩٧٧ .

• عنان ... محمد عبدالله

- مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام
مؤسسة الخانجي - ١٩٦٢ .

• كرد علي ... محمد

خطط الشام.
بيروت - ١٩٦٩ .

• مصطفى ... شاكر

في التاريخ العباسي - الجزء الأول.
دمشق - ١٩٥٧ .

• المطوي ... محمد العروسي

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب.
تونس - ١٩٥٤ .

• النقاش ... زكي

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية
بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية.
بيروت - ١٩٥٨ .

• نوري ... دريد عبدالقادر

سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد
مصر والشام.
بغداد - ١٩٧٦ .

* * *

كتب أجنبية مترجمة إلى العربية

- بروكلمان... كارل

تاريخ الشعوب الإسلامية.
بيروت - ١٩٦٥.

- باركر ... أرنست

الحروب الصليبية.
بيروت.

- بلف ... ڤاز

العرب والروم.
دار الفكر - القاهرة.

- ديورانت ... ر. ل

قصة الحضارة.
القاهرة - ١٩٦٥.

- جب ... هاملتن

دراسة في حضارة الإسلام.
بيروت - ١٩٦٤.

- رنسيان ... ستيفن

تاريخ الحروب الصليبية.
بيروت - ١٩٦٧.

- فيشر ... هربرت

تاريخ أوربا في العصور الوسطى.
القاهرة - ١٩٥٤.

- لودفيغ ... إميل

البحر المتوسط.
القاهرة - ١٩٥٠.

• لويس ... برنارد

١ - العرب في التاريخ
بيروت - ١٩٥٤.
٢ - الغرب والشرق الأوسط
لاغوس - ١٩٦٥.

• هامرتن ... جون

تاريخ العالم.
القاهرة.

* * *

كتب أجنبية:

- **Millo, Clarles, The History of the crusades, Philadelphia, 1944.**
- **Pernoud, Régime, The crusades, Eng. Trans., New york 1964.**
- **Segal, J.B., Edessa, The blessed city, Oxford 1970.**
- **Encyclopaedia of Islam**

  Vol, I, (Art Al-13 athanijya) London, 1960.
- **Encyclopaedia Britanica (Art: Assassin)**

  Vol. II U. S.A, 1965.
- **Starla. Fib 1980. No 267:** المجلة الإيطالية:

  Mars 1980. No 868.
- **Eliseeff (Nikita):**

  Nur. ad-pin 1118-1174. Tome III Damas 1967.

